في عُلبَة الضَوء
رُلى الجردي
رواية
دار الآداب

رلى الجردي

في علبة الضوء

رواية

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة©

ـ ١ ـ

مشت الستّ سارة حتّى باب الخلوة لتواكب زوّارها العائدين إلى حوران. كانوا يستحلفونها كي تبقى مستريحة في جلستها الأرضيّة، داعين لها بطول العمر، ومبتهلين إلى اللّه أن يجعلهم من مستحقّي بركاتها. أخرج صبيّ في الثالثة عشرة من عمره من جيبه كاميرا كوداك إكترالايت ١٠. رمق الفلاش المثبّت فيها بنظرة سريعة، وضمّت أصابعه جسمها اللّيمونيّ المستطيل. توقّف فجأة في الباحة وهو يهزّ يد عمّه ويسأله بصوت خافت إذا كان يستطيع أن يحتفظ بصورة للوفد مع الستّ سارة قبل الرحيل عن دار شمس، فحدجه عمّه بنظرة توبيخ، كازًّا على أسنانه ومجمّدًا شفتيه كي لا يشعر به أحد وهو يقذف إلى أذنيه كلمة: «انقلع من وِجّي!». طأطأ الصبيّ رأسه وأصلح قلنسوته البيضاء ومشى في الطريق الحجريّ الملتوي نحو إحدى البوسطات التي ستقلّهم إلى حوران. نظر إلى الكاميرا وتحسّر على النُّسَخ اللّامتناهية، والتي كان في وسع كاميرته أن تولّدها عن هذه اللّحظة. نُسَخ للقطة نادرة لم تؤخَذ. لن يسمح عمّه لتكنولوجيا حديثة، مثل الكاميرا، بأن توقفه أمام صورته كي ينظر إلى نفسه فيعجب ويتعجّب. لن تصبح هذه الزيارة يومًا تذكارًا في صورة، وستبقى الستّ سارة أصليّة، لا نسخة سلبيّة ولا إيجابيّة لها.

كانت نور، ابنة أخي الستّ سارة، تراقب كلّ شيء من باحة الخلوة. شعرت بارتياح، لم تفهمه، بسبب فشل الصبيّ في التقاط صورة لعمّتها. ومع ذلك، كانت تفهم تلك النّظرة الماسيّة في عينيه. تذكّرت عشيّة ذلك اليوم الدافئ في تمّوز، حين ابتدأت تصوّر. كانت جالسة مع بعض نساء العائلة في بستان عمّها عاطف. أتت ناريمان لتساعد رباب، زوجته، في صنع ربّ البندورة. وجلست، بجسمها الممتلئ ومنديلها الأبيض المعصوب على رأسها، على كرسيّ صغير من القشّ وأمامها طبق كبير من البندورة المقطّعة.

رجعت النساء إلى بيوتهنّ قبل غياب الشمس، وحلّ هدوء أليف في أرجاء الحارة. لاعبت نور الهررة التي وُلدت منذ أسبوعين، ثمّ نامت في الأرجوحة قبالة ناريمان. وحين فتحت عينيها كان الضوء قد انطمر داخل حفرة كبيرة في السّماء. نظرت إلى ناريمان فلم تَرَ جسدها ولا حتّى منديلها. عثرت في العتمة المَشوبة ببعض الزّرقة على وجهها المنحني فوق دَست البندورة الموضوع على الحطب المشتعل. كان وجهها يشعّ ككوكب مشمشيّ متحرّك تشيح به يُمنةً ويُسرةً بعيدًا عن اللّهب. وارتسمت فتحة

الدَّست قمرًا أرجوانيًا ينتفخ وينكمش. علا صوت فقاقيع البندورة المغليّة، فطقطقت في أرجاء البستان.

ركضت نور إلى رباب ترجوها أن تعيرها كاميرا عمّها عاطف، كوداك القديمة، لتلتقط بعض الصُّور، فتردَّدت رباب فرجتها:

ـ مش رح أعملّا شي. فِيا فيلم؟

ـ إي، أخدنا صور بعرس ابن خالي سهيل مبارحة.

اقتربت نور من ناريمان وحاولت أن تلتقط لها صورة. وحين شعرت الأخيرة بما تفعله، اعترضت:

ـ هلّق جايي تطلعيني بشعة؟

ـ رح تطلعي حلوة.

ـ مش شايفتيني لابسة هالقزّيح؟ وهِه! ثيابي موسَّخة بالبندورة! يا قرد! شو خطرلك تصوريني هيك؟

ـ لا، مش مبيِّن الوسخ، ورح طلعِك حلوة. إنت بس خلّيكِ هَيك.

ـ ياي على الولاد وقردنة الولاد! تفضَّلي ست نور، فقِسِيا لهالصورة وخلصينا.

«جايبتا مَعَا من الجيل الماضي. ليك كيف ماسكة هالكاميرا متل شي رجّال مشَوزَب»، همست رباب لناريمان بتعجُّب. لم تزَ فتاة في التاسعة من عمرها تتحدَّث وتتحرَّك هكذا لتلتقط صورة. لا بدَّ من أنَّها متقمِّصة. استدارت نور نحوها برهة، لكنَّها لم تقل شيئًا. كانت معتادة على سماع تلميحات الناس في دار شمس إلى التقمُّص. واستمرَّت ناريمان تحرِّك صلصة البندورة التي تكثَّفت. وأضافت رباب كأنَّها تحدِّث نفسها: «كاينة شي مصوَّرة أو أرتيست هالنّور بجيلها الماضي، أكيد».

• • •

همَّت السّت سارة بالعودة إلى داخل الخلوة، بعد أن ابتعدت خطوات الزائرين، فتأبَّطت يدَها الستُّ مهيبة، ومشت معها إلى إحدى زوايا المجلس. انتظرتها لتجلس على إحدى الفرشات المستطيلة وتلقي بظهرها على المسند. رتَّبت لها منديلها ونفضت بعض الغبار الذي علا تنُّورتها الزرقاء الطويلة، وقرَّبت إليها صحن الزَّبيب والجوز، فتناولت السّتّ سارة منه حبَّتين، ثمَّ شربت الماء من إبريق صغير وهمست: «أنتَ السَّاقي وأنتَ

الحيّ الباقي». واستدارت بعد قليل نحو عايدة، إحدى نساء العائلة التي جلست إلى يمينها، وسألتها:

ـ عايدة، الحمد للّه على رجعته بالسّلامة أكرم. كيف شفتوه؟ انشاللّه بخير؟

ـ بخير، اللّه يسلّمك خالتي. بيطلب صَفو خاطرك. بكرا رح خلّيه يجي يشوفك.

ـ اتركيه يرتاح من تعب السّفر. خلّيه يشبع من فرصته وشَوفة أصحابه.

ـ لا، كيف هالحكي؟ بياخد البركة بزيارتك، ولاحق على الأصحاب والعزايم. بدنا نعملّه عزيمة نجمع فيها شمل الأهل والأصحاب قبل ما يرجع على لوس أنجلس.

ـ بشو عم يتخصّص؟

ـ بالكومبيوتر. بعد سنتين بيتخرّج.

ـ اللّه يوفّقه. أكرم من أهل الخير. هوّ وصبي ما كان يعرف البغض، واللُّقمة اللّي بتقه مش إله. يعني اسم على مسمّى.

ـ إنتِ البركة يا ستّ سارة. اللّه يحفظك.

شعرت عايدة بالاعتزاز والستّ سارة تُثني على ابنها البِكر أمام النساء موجودات. كانت الستّ مهيبة مشغولة بالنّظر إلى خطوط الظلّ الباهتة التي تركتها قضبان الشبّاك على الحصير. وأعلنت بعد دقائق عن اقتراب موعد الصلاة والقراءات. توافدت الجُوَيدات إلى الخلوة حاملاتٍ كتبَ الحكمة. همهمنَ بالسلام بأصوات متقاربة منخفضة كأنّها قطعة موسيقيّة من استراحة النهر لحظات الفجر. فضّلت أجسادُهنّ وهنّ جالسات الهواءَ على مقاسات ضيّقة. واليد أكملت حركتَها الأيدي الأخرى، وارتاحت المناديل المشدودة حول الفم على الكتفين.

دارت في أخلادهنّ أسئلةٌ كثيرة عمّا سمعنه خلال زيارة الموحّدات والموحّدين الذين قدموا من حوران. كان الشيخ مهنّد العماد، رئيس الوفد الزّائر، يقرأ مع الستّ سارة «رسالة الكشف»، وهي مخطوط جديد عُثر عليه في مشهد في إيران. يعلّقان على ما جاء في الرّسالة بتناغم متواتر وسلاسة، ويتبادلان كلمات الشّرح، ويضعانها في علبة مزخرفة. داخل العلبة كلماتٌ أصغر من الشرح، وداخل الكلمات علبةٌ لا لون ولا شكل لها.

هذه العلبة هي المعنى. خلاصة بسيطة لا تحتمل الأضداد. لم يسمع التلميذات والتلاميذ المحيطون بهما من قبل بمثل هذه الأدلّة أو النتائج، فبدأت شكوكهم فيما أخذوه عن مشايخ آخرين، تتسلّل إلى نظراتهم. فالعارفون بأسرار المذهب قلائل، ولذلك كَثُرَ الخلط والوهم بين متبعيه.

• • •

خرجت الشمس من البلدة، عند الساعة الثامنة مساء، لتعتلي مدنًا وبقاعًا أخرى، تاركة على ضفاف النهر خطوطًا زئبقيّة. وشقّ النهر أحراج دار شمس المكسوّة بشجر السّنديان والملّول. وأكمل مسيره نحو أربعين كيلومترًا محاطًا باللزّاب والعنبر. وحين وصل إلى المنعطف الذي يُسمّى عُقدة المغارة، تحوّل إلى نهر آخر تمامًا كأنّه التقى أشباحًا يعرفها وتعرفه. وهجع الشحرور الأسود، وأسرع هو صاخبًا كأنّه صدًى بعيد لأصوات هاتفة في مظاهرة.

لم تكن بلدة دار شمس بعيدة عن ساحل البحر المتوسط، لكنّ تلالها السّبع وكثافة أحراجها حجبت عن سكانها البحرَ وتركت لهم نهرًا غريب الطّباع وسماءً زهريّة. على تلك التلال التي صارت الرئة التي يتنفّس منها الشوف، كان حماة الثغور، أيّامَ الخلافة الأمويّة، يردُّون الهجمات البيزنطيّة ويستقبلون الفارّين من بطش الحكّام. والغريب أنّ دار شمس كانت تحتوي، في العصور الغابرة، على مخازن نادرة لجمع الثلج وتخزينه حتّى قدوم الصيف. ففي عهد السُّلطان العثمانيّ سليم الأوّل، كانت لا تزال تستقبل ثلجًا كثيفًا من شهر كانون الأوّل حتّى شباط. وادّعى البعض أنّها سُمّيَت دار شمس حين عجز الناس عن تجميع الثلج في المخازن لقلّتها. كان ذلك في منتصف القرن التاسع عشر. قويت أشعّة الشّمس وأصبحت الثلوج تهبط خفيفة متفرّقة. وقال البعض الآخر إنّ اسم دار شمس راج على ألسنة الناس حين زارها مغربيّ متجوّل، قال للعطّار في أوّل سوق البلدة: «حين أقبل تكون شمسُكم في وجهي، وحين أدبر تصير في وجهي. هذه دار شمس».

كانت سرايا دار شمس مقرًّا لأهمّ سجون الشوف في أواخر القرن التاسع عشر. نعوم باشا، الذي كان مولعًا ببناء السّرايات، أمر ببناء مثيلتين لها في جونية وبحنّس. وأجبر أهالي دار شمس وقرى الشوف المجاورة على بذل المال وتأمين مواد البناء والعمّال لإنهاء مبنى السّرايا الذي صار مركزًا للقائمقاميّة وسجنها.

احتلّت محاكم دار شمس الشرعيّة موقعًا مهمًا في تنظيم العبادات والمعاملات لدى أهالي الشوف وصيدا مع بروز دَور البلدة في الشؤون السياسيّة والعسكريّة والدينيّة، وبرز في القضاء عددٌ كبير من علمائها ومشايخها. كان عبد الصمد كمال الدين، الجدُّ الأعلى للستّ سارة، أوّلَ رجل نُصّب قاضيًا فيها. واشتهر بعدله وعلاقاته الطيّبة بكبار علماء الأزهر، حتّى اتّهمه بعض الدُّروز باعتناق عقائد أهل السُنّة. تلاه قضاة آخرون من عائلتَي نعمان ومزهر. وحافظ أولاد عبد الصّمد وأحفاده على قاعة المحكمة التي ترأسّها، فأصبحت مع الأيّام ركنًا من أركان البيت الذي وُلدت ونشأت فيه الستّ سارة.

• • •

أقفلت الستّ سارة والستّ مهيبة، بعد أن أغار الظلام على فلول الشعاعات القرمزيّة، بابَ الخلوة على نفسيهما لتستمتعا بالفراغ الذي تركته الزائرات. ومسحت كلٌّ منهما بيديها على وجهها كأنّها تستنشق رائحة الهواء الخالي من التكلُّف الاجتماعي. تقزّمت الحاجات والهموم، وتمدّد عطر الخَزّام والزعتر البرّيّ بين النوافذ، وبات النطق مملًّا وهشًّا بالمقارنة مع إغراءات الصّمت. قامت الستّ سارة من المجلس ومشت في ممرّ طويل إلى الحجرة، غرفتها المربّعة. تخلد فيها هناك إلى العزلة التامّة. لا تحمل إليها كتابًا أو ورقة أو حتّى كوب ماء. وتجلس وحيدة لا يُسمَع لها صوت أو حتّى همس بصلاة.

ما عادت الخلوة خلوة، وما عاد العُقّال عُقّالًا، قالت لنفسها. معظمُهم يقصدها في حاجة أو لطلب الخاطر. لكنّ الذين كانوا يسألونها عن تفاسيرها للرّسائل ومعاني الكلمات والرموز، أصبحوا ينحسرون شيئًا فشيئًا. راسلها، فيما مضى، بعضُ مشايخ الجُرد وحاصبيا، طالبين تصحيحَ معلوماتهم عن صفات الباري ومصير الرُّوح بعد الموت. الآن كثُرَ مدّعو المعرفة، وزادت حلقات الدرس. صار المفوّه علّامة وإن لم يتدرّج بالمعرفة أو يتقشّف.

توجّهت أفكار الستّ سارة نحو الشيخ فوزي الذي عاد منذ سنتين من خلوات البيّاضة إلى دار شمس بعد أن تتلمذ على يد الشيخ مزهر. نشر تفاسيره الخاصّة بين مجموعة من الشبّان الأجاويد. بسّط لهم المُلتبِس في تكفير الطوائف الأخرى، وجمّل ما بدا في ظاهر النصوص قبيحًا. شجّعهم على السّعي لتنفيذ العقاب بحقّ من اتّبع الباطل بعد أن كان موحّدًا، وزرع في قلوبهم، في الوقت نفسه، حبّ الأخوان والتفاني لأجل إعلاء كلمة

الطائفة. وآثر على عكس مشايخ آل نعمان وكمال الدين، التوغّلَ في كلّ جوانب الخلاف بين الدروز وغيرهم من المِلَل. حافزه الوحيد، على حدّ زعمه، كان خوفه من ضياع الهويّة، كما هي الحال بين دروز السّاحل الذين اقتدوا بغيرهم من المسلمين أو انجرفوا في تيّار العلمانيّة الدّاعي إلى الانحلال. يشتكي من أنّه لم يبقَ هناك ما يشير إلى مذهبهم سوى زياراتهم، بين وقت وآخر، مقامَ السيّد عبد اللّه والستّ شعوانة. ويحلو له أن يؤكّد لتلاميذه أنّ الإيمان لا يكتمل من دون محاربة الشّرك وإبعاد الجيل اليافع عن عقائد أهل الزُّور والبهتان من النصارى والمسلمين.

كان الشيخ فوزي يقف صاغرًا أمام الستّ سارة، قبل رحلته إلى خلوات البيّاضة. يطلب رؤية المخطوطات التي بين يديها والرّسائلَ النادرة. ويستشيرها في المسائل الغامضة، وحتّى في معاني أوضح الجمل. أمّا اليوم، فالأمر اختلف. أصبح يزورها في المناسبات العامّة ليتفقّدها في مرض أو يهنئها بعودة غائب. ويأتي محاطًا بتلاميذه ليعرّف الحاضرين إليهم ويعدّد مزاياهم.

وعلى الرّغم من ذلك، فإنّ الستّ سارة كانت تردّد لنفسها: «أنا شاكرة ربّي على كلّ شي». لم يكن لها في متاع الدُّنيا أو حُبّ الظهور رغبةٌ. ولن تصدّ طالبي الحاجات، وإن لم يأتِ طالبو العلم. وإذا لم تفِ بالقراءة بسبب الزيارات المفاجئة صار التّهجد أوجب. والذي ينقصُ في النّهار تعوّضه في اللّيل، وتطلب من اللّه أن يمدّها بالقوّة.

• • •

سارة ملتصقة بالأرض، منذ صِغَرها. تلفُّ كنزتها حول ركبتيها، في المساء، حين يتوزّع أفراد عائلتها على كنبات الدّار، وتفترش السجّادة الأناضوليّة، تنظر إلى ظلالها الرمّانيّة وخيوطها الكحليّة والزرقاء، وتتابع بنظرها أكفّ السّعفات ووردات التوليب بأوراقها الستّ البيضاء. تمسح بيدها على نباتات عود الصّليب المتوهّجة، كأنّ فيها نارًا مستترة. تراها تسبح مع اللوتس في حوض ماء يتماوج بين الزُّرقة والاخضرار. في الوسط نجمةٌ ماسيّة وحيدة كان جدّها يسمّيها «الأنثى». تدعوها أمُّها إلى الجلوس على الكنبة مثل إخوتها، فتجيب: «لا، هون أريحلي. القعدة على السجادة أستَرلي». وتجلس قريبة من النّجمة.

سجنًا كانت الواجبات العائليّة والاجتماعيّة. تملّ الأحاديث التنافسيّة بين الأقرباء والاستعراضات الطاووسيّة والبحث عن هزائم

الآخرين. وتُقلقها الأنا الجبّارة، كما صارت تسمّيها. تتساءل كيف تُهرق الأيّام في تحضير أطباق الطعام وتقديمها واستقبال الضيوف وتدوير قشور الحديث. تعدّ الخسارات، الولائم وغسل الأواني والطاولات والشراشف وشطف الدار. وتتحسّر على الساعات الممتدّة أمامها كفراغات القناني، ويغرق مَن حولها في تحضيرات لا نهاية لها لإرضاء الزائرين وبذل الأغلى للظهور في الأعراس وحفلات التخرُّج والاعتناء بهندامهم. أمّا كلمات الإطراء والهدايا وبطاقات المعايدة والمخابرات التي لا تنضب، فتبدو لها حماقات مرهقة.

تلوذ بالحقول والأحراج حين تُغيِيها التزامات والديها الاجتماعيّة. تُؤثِر معاشرة الأعشاب البريّة المنبثقة من شقوق الحجارة المصفوفة من دون اتّساق. تراقبها كأنّها تقلّد هندامها. يقولون إنّ حاجة الإنسان إلى التشبُّه بمن حوله تعود إلى الخوف، وهذا التشبُّه يحدّ من حريّته وقدرته على الابتكار. يبدأ الخوف من التفرُّد في الطبيعة؛ في النبات والحشرات والأسماك. ويقلّد الكائن من حوله لأنّه يخاف، ويخاف كي يُكتب له البقاء. وحين يتشبّه كائن بكائن آخر في محيطه، وحين يأخذ شيئًا من شكله أو لونه أو صوته أو رائحته، فإنّه يحمي نفسه من الاعتداءات الخارجيّة. والغريب أيضًا أنّه يحمي الكائن الذي يقلّده من خطر الزوال.

إلّا أنّ في التشبُّه أيضًا خروجًا عن المألوف. فسارة كانت تختار النماذج الأقرب إلى نفسها. لم تستطع التشبُّه بأيٍّ من النساء حولها. كان من الطبيعي لها أن تحمل رغبات أمّها وخالاتها وعمّاتها في الحبّ والزواج والأمومة. إلّا أنّها تفرّدت بآمالها وآرائها وأفعالها. وما ساعد الآخرين على استيعاب مثل هذا التفرُّد، أنّها صاغت جسمها على شكل رجل وأعطته قوّةَ امرأة.

لم يكن غريبًا أن تبحث عن أيّ فرصة لترافق فقيرات دار شمس اللواتي يشغلهنّ أبوها كلّ سنة في قطف الزيتون والعنب والتين وصنع شراب التوت والورد. تساعدهنّ قليلًا، ثمّ تبتعد وتجلس وحيدة على العشب. تبدو محاطة بعناصرها هي، بتفاصيل الطبيعة وتقلُّباتها. تحتمي بها من أخطار لا تدرك تمامًا ما هي أو ما مصدرها. تفهم أنّ السَّكينة تنتظرها خارج المجتمع، لا داخله. فصمت الأشجار يناقض حاجة النّاس الدّائمة إلى الكلام، ويسمح لها بالإصغاء إلى صوت في داخلها، يُطلق العنان لحديث الرُّوح إلى نفسها.

• • •

صارت غريبة عن جسدها، حين ابتدأ نهداها يتكوَّران وفخذاها يمتلئان وفمُها يطلب الحلوى بشراهة. تأتيها ضحكة ابنة عمَّتها يوم التصقت بها جارتها لتخبرها عن رضاب فمها الذي استدزه زوجُها والعرقِ المتصبِّب من جلديهما. تصف لها مياه الشهوة التي شعرت بها حين تداخل عريها بعريه. تشعر سارة بالغثيان كأنَّها تشتمّ رائحة سوائلهما. تخال نفسها جاريةً تنفِّذ رغبات سيِّدها الذي يُطعمها من لحم طيور نادرة بعد أن يجعلها تتفرَّج عليه وهو يصطادها. بدأت تحوُّلات جسمها تهزمها. تحت جلدها قطعُ عجين تختمر، وفي حلمتيها سخونةٌ مؤلمة. حاولت أن تروِّض جسمها لينقاد لروحها. تعيد الصَّلوات عن ظهر قلب، وهي راكعةٌ أو ماشية في الغرفة ذهابًا وإيَّابًا. تردِّد: «يا ربِّي، خذ النار وأعطني النور». وحين حاضت، شعرت كأنَّها تتقيَّأ من نفسها وتتذمَّر من جلدها. تنتظر بفارغ الصَّبر مرور الأيَّام لتنتهي من تنظيف الدَّم وإخفاء رائحته.

بقيت على هذه الحال حتَّى صحت يومًا في منتصف اللَّيل والجميع نائم. وضعت شالها الطويل على رأسها ولفَّته حول كتفيها. حملت شرشفًا كبيرًا وكتابَ الحكمة الملفوفَ بقماش طُرِّز عليه رسمُ عصفور، ومشت إلى المطبخ فأخذت ربطة خبز ومرطبان الزبيب ووضعتهما مع الكتاب في الشرشف، وعقدت أطرافه على شكل صرَّة، علَّقتها في معصمها.

نظرت إلى اليمين في اتِّجاه المحكمة، حين مرَّت بالدَّار. كان جدّها الأعلى يتابع عمله فيها كقاضٍ. على رفوفها مئات الكتب والسجلَّات الشرعيَّة والرَّسائل والصكوك. تمعَّنت في الصورتين المعلَّقتين قرب الباب كأنَّها تراهما لأوَّل مرَّة. الأولى عبارة عن صكّ تولية القضاء لجدّها الأعلى عبد الصَّمد في الفترة العثمانيَّة، والثانية أُخذت لمقام جدّها لأمِّها صاحب الكرامات، عبد اللَّطيف الضوفيّ، الذي فسَّر القرآن تفسيرًا عرفانيًا.

نظرت إلى المقام في الصُّورة بقلب مُثقَل بالهمّ. كانت صورة باهتة صغيرة التُقطَت يوم تناقلت الناس خبر شفاء أحد وجهاء حاصبيّا من حُكاكٍ جلديّ مستعصٍ. قيل إنَّه لم يعدم وسيلة لمعالجة مرضه حتَّى يئس من إمكانيَّة الشفاء. عندها ظهرت له في المنام صبيَّةٌ في الخامسة عشرة من عمرها تحثُّه على تقديم الصَّدَقات إلى الأيتام في مقام الشيخ عبد اللَّطيف. ونصحته بأن يبيت قربه ثلاثَ ليالٍ.

كان يقف قبل أن تُنزِل العتمة ستارها، تحت قبَّة عالية قرب المقام. يتضرَّع ويبتهل إلى اللَّه كي يشفيه. نام هناك نومًا متقطِّعًا بسبب الحُكاك. كان الجوع، في الصباح، يقفز داخل معدته بقدمين غليظتين. لم يحمل

معه حتّى الخبز، فقد قالت له الصبيّة في المنام: «سيكفيك المقام كلّ حاجاتك. كُل من طعام المقام واشرب من مائه». تطلّع نحو الطريق فرأى عند مدخل أرض المقام شجرةً من الدزاق الأبيض. لم يأكل الدرّاق منذ أن كان صبيًا، فقد كان يُصاب بالحُكاك من مجرّد رؤية قشره أو مس وبره. اندفع نحو الشجرة وأكل الدرّاق بشهيّة شاكرًا اللّه على نعمته كأنّ داءه دواؤه. وفي مساء اليوم الثالث، برِئَ تمامًا من الحُكاك ورجع إلى حاصبيًا حيث أقام المآدب للفلّاحين العاملين في أرضه. وحدّث كلّ من رآه عن كرامات الشيخ عبد اللّطيف، مشجّعًا إيّاهم على أن يزوروا مقامه ويقدّموا الصَّدَقات إلى الأيتام.

هزَّ بدري، الأخ الأكبر لسارة، رأسه ساخرًا حين سمع بهذه الكرامة لأوّل مرّة. كان يافعًا حين تساءل عن إيمان ذلك المقاطعجي ورأفته بفلّاحيه، قائلًا: «هالقصّة بس لتنسي الفلّاحين حقوقُن! ما هالمقاطعجي عم يستغلُّن. ليش مثلًا بدل ما يطعميهم ما كان يقطعلهم شي قطعة من أرضه! يعني بيسكّته لألّله بعزيمة عشا؟ شو حاوجه جدنا يشفيه؟ من قلّة المساكين اللّي لازملهن دكاترة؟». لم يكن أحد يستهجن شكوكه، فقد ندر أن تمزج عائلة بين العلم العصريّ وتراث عرفاني، كما فعلت عائلة كمال الدّين. وكانت، في الخمسينيّات والستينيّات، تضمّ أناسًا بنزعات متناقضة، منها العلمانيّ المؤمن والملحد والجُويّد وقاضي الشّرع. حتّى حياةُ عُقّالهم وحياةُ جُهّالهم كانتا متداخلتين.

كانت سارة متّصلة بعالم آخر غير عالم أخيها. نظرت إلى صورة المقام وقالت في نفسها: «أنا متلك يا جدّي عبد اللّطيف، زهدت بهالدني وصار لازم إتعلّم أسرار الدّين وفتّش على طريق متل طريقك». كانت تسمع أنّ أوّل حدود الدين هو العقل، وأنّه محاط بحدود أربعة، هي النفس والكلمة والنور والحكمة، وهي بمثابة الأجنحة له. لكنّها كانت تجهل معاني هذه الحدود وأبعادَها، وخصوصًا العقل.

حملت الصرّة وسارت بخطى واثقة. أخذت أحد قناديل اللوكس من كوّة حجريّة في الحائط قرب المدخل، وأشعلته وغادرت المنزل. ومشت صعودًا من حديقة البيت الخلفيّة، في ممرّ متدرّج لمدّة سبع دقائق. لاح لها القبوُ الحجريّ الصغير في آخر الحقل، وبئرُ الماء والحمّام الواقع إلى جانبه. ورأت، عند شجرة الرمّان الكبيرة، باب القبو. كان يعلوه قوس مجزوء وفي وسطه حلقة معدنيّة. علّقت قنديل اللّوكس هناك وفتحت الباب. اشتمّت بعض العفونة، فارتاحت كأنّها وجدت ما تبحث عنه. وضعت أغراضها على

الأرض ثمّ نفّضت الحصائر، وأغلقت باب القبو وابتدأت تبكي وتبتهل إلى اللّـه.

ارتسمت، على الحائط قبالتها، أشكالٌ صغيرة ومتوسّطة الحجم من الضوء، آتيةً من ثقب ضيّق، أخذت هيئةَ أكواز الرُّمان، ولكن مقلوبةً. أوّل من استخدم حجرة مظلمة كهذه للقيام باختباراته عن الضوء والعين وأوهام البصر، كان ابن الهيثم، وهو عالِم موسوعيٌّ من البصرة. قال إنّ العين لا ترسل أشعّة ضوئيّة، بل تتلقّاها من الخارج، وتؤمن للأشياء التي يحيط بها الضّوءُ الشاشةَ التي سترتسم عليها. وتحتاج الصُّورة، كي تنتقل من الخارج إلى الداخل، إلى ثقب صغير في بيت مظلم.

هكذا انبثقت كامارا أوبسكورا، الغرفة المعتّمة كما سُمّيت في اللّاتينيّة. تُجمّع الكاميرا الضوءَ في بؤرة تمنع اختلال الأشعة. تتألّف من عدسات الزجاج المختلفة الشكل، المحدّبة، المقعّرة، والمسطّحة، كأنّها تجارب الإنسان وطبائعه المتفاوتة، تكسر الشعاعات التي تصلها من الخارج وتلحمها. وتتحوّل إلى علبة ضوء فريدة. والصُّورة التي تبثُّها، كما قال يوهانّيس كيبلير، تكون مقلوبة تمامًا كما هي الصور التي تتلقّفها شبكة العين على السطح، لكنّ الكاميرا تقلّد ما في الخارج ولا تقلّده، فحاملها يضيف ويختزل من معاني الصورة.

أُضيفَ وهجُ نجمة إلى صورة سارة، في ذلك اليوم الذي دخلت فيه القبو. ما عادت تبصر سوى الصُّورة المقلوبة ومعناها البسيط الأوّل. ما عادت ترى الرمّانة إلّا وتاجُها مُرتَمٍ تحت قدميها كأميرة تخلّت عن عرشها. لم تعد تقوى على أن تبحر في الظاهر، في متاهة. تريد أن ترسو على برّ الباطن. قالت إنّ روحها ابتدأت تتحدّث إلى نفسها بلا حُجب. حكت عن خالقها لخالقها.

• • •

في الصباح، حين جاء موعد الفطور وتحلّق أفراد عائلة كمال الدّين حول الطاولة، لم تُجِبْ سارة على نداءاتهم. وجدت أمُّها على سريرها ورقة عليها هذه الكلمات: «انتقلتُ إلى القبو في الحقل للعبادة التي اصطفاني ربّي لها. لديّ كلّ ما أحتاج إليه. لا تقطعوا عليّ خلوتي. أذا أردتم أن تطمئنّوا عليّ تستطيعون أن تُلقوا نظرة على القبو، وبعدها تبتعدون. لا تتكلّموا معي ولا تطرقوا الباب. إنّه مقفل».

خرجت، بعد انقضاء الشّهر من القبو، في أوّل المساء. كانت هزيلة

الجسم، منشرحة الأسارير، تنظر إلى الأشجار كأنَّ أوهام البصر قد أُزيلت عنها. أغمضت عينيها للنسائم ورفعت رأسها بعض الشيء نحو السماء كأنَّها قائد عاد منتصرًا من أرض المعركة. همهمت: «يا سبب الأسباب، ليس لك مقام في النورانيين، فأنت أعظم من أن تُوصَف أو تُدرَك. عليك أتَّكل وإليك أحتكِم».

رأت ضوءًا شحيحًا من نافذة الصالون آتيًا من قنديل لوكس. وحين أطلَّت من الباب، زال الظلام وبدأت السيول تتساقط. ابتلّت أضلاع شتلة العطر برذاذ الماء وفاحت رائحتها. أخبرتهم عن العهد الذي قطعته على نفسها بالتفرُّغ لعبادة ربِّها. بكوا وتوسَّموا فيها الخير لأنَّها عادت في ليلة الجمعة وأنارت البيت بالأضواء. كان عمَّال الباطون في الحيّ قد قطعوا أحد كابلات الكهرباء سهوًا قبل يومين. أقسمت أمّها إنَّ رائحة المسك كانت تفوح منها، وإنَّها كانت ناصعة كطفلة اغتسلت بماء الغار. ووقف أبوها ساهمًا ينظر إلى السماء ويفكِّر في الأحراج التي امتلأت بالماء بعد هطول مفاجئ وتوقُّف مفاجئ.

• • •

عزم بدري على الزواج بسلوى، في الشهر الذي قضته سارة في القبو. وسلوى فتاة من عائلة متواضعة من دار شمس، جاء بها ليعرِّفها إلى أخته. كان غريبًا أن يُظهِرَ رجل في السادسة والعشرين من عمره مثل هذا الاحترام تجاه أخته الصغيرة، آخرِ عنقود العائلة. والأغرب أن يكون ممَّن تلافوا الخوض في أيّ قضيَّة دينيَّة ولم يستهوِهم مسلكُ أهل العرفان ولا حياة الأجاويد. كان على علاقة وثيقة بالقوميّين العرب، قبل أن يزاول مهنته كمحام، ثمَّ بمجموعة يساريَّة في صيدا. واندفع في تنظيم المظاهرات الطلَّابيَّة والاعتصامات ضدّ الحكومة وهو على مقاعد الدراسة في الجامعة اللبنانيَّة. أثارت نشاطاته سخط أخيه عاطف الذي ما برح يلومه بكلام مبطَّن على هدر وقته وماله في قضايا لا تفيده في شيء. ويعلِّق بشفقة قائلًا إنَّ بدري «لاحِق عاطفته»، والعاطفة هي صنوٌ للضعف بل لانعدام الذكاء.

نشأت بين بدري وسارة علاقة فريدة. تعلَّق بها بعد وفاة أختهما أمَلي عن عمر يناهز العاشرة من جرَّاء إصابتها بالمننجيت. وشكَّل رحيل أمَلي، التي كانت تتدفَّق حيويَّة وبشاشة، صدمةً قاسية لأمّها أدَّى إلى انطوائها وازدياد قلقها على أولادها. ولم ينفض عنها حزنَها سوى التجليَّات التي أحاطت بسارة واعتناقها المسلك العرفاني. وغمرها شعور بالطمأنينة،

خلال الشهر الذي قبعت فيه في القبو، وشعرت بأنَّ أمَلي عادت إليها مع سارة في تلك اللَّيلة المباركة من تفوز.

زادت سارة على وجباتها الزيتونَ والزَّبيب والجوز، لكنَّها لم تعد تتناول اللحوم والمأكولات الدسمة والحلويات، وحتَّى الفواكه الطازجة. وتأكل في يوم الجمعة، كسراتٍ من الخبز اليابس. وبقيت على هذا المنوال حتَّى توقَّف الحيض كليًا. وقال أهالي دار شمس إنَّها أصبحت طاهرة في السريرة وفي الجسد. ورجعت طفلة لم تأثم. لم تعد تشارك في الزيارات أو المناسبات الاجتماعيَّة أيًا تكن. ورحلت بعد انقضاء السنة إلى حاصبيا، حيث تتلمذت على يد الشيخة سَعدى، ابنةِ عالم معروف يدعى باني العلوم. وكانت الأصوات الشابَة، في مجلس الشيخة، يُقلِّد بعضُها بعضًا، وتتبع حركة الأجساد إشارات جسد الشيخة، فتنكمش، وتتهذَّب، وترقّ.

اشتهر باني العلوم بمزجه الفريد بين العلوم الطبيعيَّة والعلوم العرفانيَّة، فتسلَّلت أخباره إلى أذني غوستاف كورتِن، وهو عالم ألمانيّ شُغف بنشر أفكار التنوير في بلاد الشام. كان يحلو له أن يحدِّث باني العلوم عن مزايا أوروبا الفريدة كأنَّه يمثِّلها بكلّ ناسها، وكأنَّ الغرب واحد لا اختلاف فيه. مع أنَّ رسّامي الخرائط كانوا، حتَّى بداية القرن الثامن عشر، يقدِّمون صورًا مشوَّشة عمَّا يمكن أن يعنيه الغرب، ورسومًا متفاوتة عن بلدان أوروبا. وأخذت صور الغرب بعدها، شكلًا موحَّدًا متناسقًا كأنَّها تنقّح الواقع، فعظمت رقعته على الخارطة، على نحو ساعد الأوروبيِّين على الاعتقاد بتشابههم وبأهمِّيَّتهم المتزايدة للعالم.

قال كورتِن، في حديث طويل له مع باني العلوم، إنَّ المجتمعات الأوروبيَّة الحديثة لا يحكمها إلّا العقل. فالعاطفة تهدر الطّاقات، وكثيرًا ما تكون مدمِّرة، لأنَّها تأتي من عمق الغرائز والأهواء. «إموشينز، إموشينز، تخرّب كلّ شيء!»، علَّق بانفعال. ثمَّ انتقد ميل تلاميذ باني العلوم إلى التشبُّه به، بسبب ما رآه في مجلسه ونتيجة اقتفاء أثره. ومثل هذا التشبُّه يقتل مزايا التلميذ الخاصَّة؛ يخنق الابتكار. تحدَّث عن الابتكار كأنَّه بترول مطمور في قعر الإنسان لا يعرف الشرقيُّون كيف يستخرجونه. وقال بالفصحى: «الغرب مهووس بالابتكار والشرق غارقٌ في التقليد!». وأجابه باني العلوم باسمًا: «أنت لا ترى سوى الأضداد. لم يصل علماء الغرب إلى الجديد إلّا بكثير من التقليد واقتفاء أثر أصحاب المعارف المتراكمة، فغرفوا ممَّا تركوه وزادوا عليه. التقليد والابتكار يأتيان دائمًا معًا، ولكن بِنِسَب متفاوتة. أمَّا مطلق الابتكار الذي تتحدَّث أنت عنه فهو الضياع. قد

يأخذك العقل بذاته إلى الفراغ». وكان كورتِن يرى في هذه الكلمات ضربًا من المجاز، كما ذكر في كتابه «المعرفة في الشرق».

تشرَّبت الستّ سارة، في حلقات الدَّرس التي نظَّمتها الشيخة سعدى، العلومَ الطبيعيَّة، ودرست أصول الدِّين. وبنى لها والدها، نزولًا عند طلبها، خلوةً في الحقل قريبًا من البيت، وشقّ طريق قدم إلى مقام جدّها عبد اللَّطيف. اتَّصلت بشيوخ في سوريا لتتلقّى علم التفسير الصوفي، ثمَّ استقرَّت في دار شمس. ورغبت، بعد عقد من الزمن، في أن تتفقَّد الشيخة سعدى، معلِّمتها الأولى، وتطمئنّ على أحوالها، فذهبت مع بعض تلميذاتها إلى حاصبيا. وبعد انتهاء الزيارة، والتلميذات متحلِّقات حول سيارة الأجرة التي أوصلت الستّ سارة إلى دار شمس، همست الشيخة: «أعطيتها نهرًا، فحوَّلَته إلى بحر».

• • •

كانت الستّ سارة صارمة في الحفاظ على مواعيد القراءات. حين تعلن عن رغبتها في الذهاب إلى الحجرة، كان الجميع يفهم ويترك الخلوة. وكانت نور، ابنة بدري، استثناءً، فقد دبدبت وأخذت خطواتها الأولى في الخلوة. تأتي بها أمّها لقضاء بعض الوقت معها هي والستّ مهيبة، بعد عودتها من المدرسة، فتستلقي على إحدى الفرشات المبسوطة في المجلس، وتشدّ تنُّورتها مثل تلميذات عمَّتها لعلَّها تصل إلى أسفل قدميها. تنتظر انتهاءهن من التلاوة كما كانت أمّها توصيها. وتروي للستّ مهيبة التي تناديها «خالتي»، أخبارَ أولاد صفِّها. تتفرَّج على الجويدات حين يحضرن إلى الخلوة ومناديلهنّ تغطّي أفواههنّ. تراقب عراكهنّ الودّيّ على تقبيل اليد لحظةَ اللِّقاء. فتسحب كلّ واحدة يدها بسرعة كيلا تطبع عليها زميلتها قبلة التواضع؛ كيلا تسرق منها حسناتها.

قويت صلة نور بالخلوة على الرَّغم من أنَّ خطّ حياتها بدا متوازيًا لا متقاطعًا مع خطّ حياة عمَّتها. لم تكن تدرك كُنهَ الكلمات التي قالتها لها حتَّى دخلت عوالم جديدة مبهمة في بيروت وبرانفورد ونيويورك. هُيِّئ إليها أنَّ تنسُّك عمَّتها لا علاقة له بظاهر العفَّة التي يزفّ الآخرون بُشراها. تبدو لها كأنَّها استردَّت الطفولة إلى الأبد. تمسَّكت باللَّحظة التي تسبق تحوُّل الإنسان إلى أنثى أو ذكر. تراقب حركاتها وهي تقرأ وتصلِّي، لكنَّها لا تعرف كيف تجيب عن أسئلتها. سألتها، يوم أتت إليها حاملة هزَّتها الميِّتة: «البسَينة إلك شي؟»، صرخت باكية: «إي، إلي! هيدي بسَينتي!» قالت: «اللّه اللّي بيعطي وهوّي اللّي بياخد يا نور. نحنا ما إلنا شي. امسحي

دموعك». تنضتت إلى نغمة الاستطاعة في صوتها، ورأت سهولة التسليم، لكنّها لم تفهمه.

تراكمت الشكوك والحيرة في نفسها، مع مرور الأيّام. استنتجت في سنّ مبكرة أنّ لا شأن لها في علم القضاء والقَدَر. والأفضل أن تضع جهودها في القضايا الملموسة وتترك حديث المسيِّر والمخيِّر لزوّار الخلوة. ومع ذلك، حين رأت الغضب متأجّجًا في عينَي مها عزّام، زميلتها الفلسطينيّة، عادت إليها الأسئلة المقلقة. وألقى رجال الأمن الإسرائيليون يومها، القبض على أخيها بتهمة التجسّس لحزب اللّه. وحين مثل أمام محكمة العدل في حيفا، أصدرت القاضية القرار بسجنه مدّة عشر سنوات. «درزيّة وحبّت تأدّي واجبها مع هدول العرصات!»، قالت، ونظرت إلى عينيها. وُلدت وترعرعت مثلها في شفا عمرو. مثلها تتكلّم العربيّة لكنّها تقدّم ولاءً لإسرائيل لا تعرفه مَن وُلدت من بطن مستوطنة يهوديّة. آلاف مثلها يعتقلون الفلسطينيّين. ينكّلون بهم ويعذّبونهم من دون أن يرفّ لهم جفن. يقولون إنّهم أوّلًا وآخرًا دروز، لا يشبهون أحدًا ولا أحد يفهمهم. قالت مها إنّها سمعت شيخًا درزيًّا طاعنًا في السنّ يقول إنّ العين لا تقاوم مخرزًا، وإنّ المسلمين في فترة الحكم العثماني لم يرحموهم ولم يسمحوا لهم بممارسة طقوسهم الدّينيّة. وقال آخرون إنّ حكم الإسرائيلي قَدَرٌ من اللّه يبغضه الدروز، ولكنّ عليهم قبولَه والاستتار بالمألوف.

«الاستتار بالمألوف؟» تساءلت نور وهي تُجهد عقلها في فهم معنى الستر ومعنى المألوف. أجابت عمّتها بأنّهما يعنيان التقيّة الواجبة لحفظ الرُّوح حين يكون الحاكم ظالمًا. هل سلّم الدروز لقدرهم فتركوا للّه مهمّةَ تجريم الإسرائيليّين؟ بل منهم من يعرف أنّ الاستيطان من صنع البشر، علّقت عمّتها. وسألتها من جديد: «والتقيّة؟» أجابت بأن ليس لأحد أن يقتل ليتّقي شرّ الحكومة الإسرائيليّة. فعند سفك الدّماء تبطل التقيّة.

• • •

استيقظت عايدة باكرًا يوم الأحد لتقوم بتحضير أطباق الطعام والحلوى للعشاء احتفالًا بعودة ابنها أكرم بالسّلامة. تناولت أختها سلوى فطورها على عَجَل. استمعت إلى نشرة الأخبار، ثمّ ذهبت لتساعدها. يبعد بيتها مسافة خمس دقائق مشيًا على الأقدام.

حمل بعض نساء العائلة إليها الأطباق التي صنعنها اللّيلةَ الفائتة. شكرتهن وقامت لتحضُر القهوة، فاعترضت سلوى قائلة: «مثة أختي، بدنا

مثة»، فأجابت: «طيّب، رح أعمل من التنين».

جلسن يشربن المتة والقهوة ويأكلن الكعك بالسمسم وهنّ متحلّقات حول طبق من البقدونس ينقّينه ويقطّعنه استعدادًا لصنع التبّولة. وقفت رباب سلفة سلوى، عند الشبّاك، تنظر إلى أكرم وهو جالس في الحديقة، فنادتها عايدة:

ـ قرّبي اشربي فنجان قهوة.

ـ انشاللّه بيرجعلنا أكرم من أميركا مهندس قدّ الدّني.

ـ يخلّي ولادك. عم يدرس كومبيوتر. غيّر عن الهندسة.

ـ ياللّه عروسته جاهزة، ما بدُّو يطرق باب حدا أو يروح لمحل!

ـ شو قصدك يتجوّز؟ لا، بعد بكّير.

ـ وِك بعرف، بعرف! إسّا قاعدتيلي على تفّي؟

ـ شو لكن؟

ـ أنا عم قول العروس جاهزة.

ـ كيف؟

ـ مش رح يلاقي أحلى من نور.

بحلقت سلوى فيها وعلّقت: «شو هالحكي يا رباب! أنا ما بدّي جوّزها لنور قبل ما تكبر وتتعلّم وتشوف الدّني. لاحقة على الزواج»، فأجابت عايدة، بين المزاح والجد: «شو كأنّه مش عاجبك أكرم، إختي؟» فقالت سلوى، وهي تنظر إلى رباب بغيظ لأنّها أقحمتها في هذا الحديث المحرج: «لا يا إختي. أكرم ما في منّه، بس نور صغيرة، وأنا ما بحب زواج القرايب!». امتعضت رباب قائلة: «هيدا أنا تجوّزت ابن عمّي وما أحلاني!». لم تَختَج سلوى إلى مثل هذا البيان لتتذكّر كيف تحوّلت من ابنة عمّ بلخاء إلى سلفة كالبليّة. تأفّفت مجيبة: «يا عمّي إنت اعملي متل ما بدّك! أنا ما بحب زواج القرايب. عَرأي المتل: «بِعِدوا لَجِنكُن وِقْرَبوا لَسِنكن»».

عادت النساء بعد الظهر إلى بيوتهنّ للاستراحة حتّى يحين موعد السهرة. أخذت عايدة قيلولتها على الكنبة في المطبخ، وجلست سلوى في الصالون تتفرّج على التلفزيون. وأطفأته حين أطلّ أكرم، ودعته ليجلس إلى جانبها. كان يعرف مدى محبّتها له واهتمامها بمعرفة أخباره وطبيعة حياته في أميركا. تمنّى والداه أن يبقى قربهما ويدرس الهندسة في الجامعة الأميركيّة في بيروت، لكنّه قرّر الالتحاق ببرنامج علوم الكومبيوتر

في جامعة جنوب كاليفورنيا، طالبًا من سلوى إقناعهما بضرورة سفره إلى أميركا.

تحدّثا طويلًا. سألها عن محمّد وإذا كانت عصبيّته قد خفّت. تردّدت في الإجابة، ثمّ قالت: «لا، صار أنضج». ابتسمت رغمًا عنها، وهي تتذكّر تحذيراته حين رمى محمّد صحن السحلب في وجه سعيد الغَوش. كان الجميع مسمّرًا أمام التلفزيون يتابع مباراة كأس الاتّحاد الأوروبيّ حين سخر سعيد بفريق كرة القدم الألمانيّ. «خالتي، اللّه يخلّيكي، خفّفيله الدّبس والطحينة لابنك شوي! خيّه يقظان الغَوش قد المحدلة. إي إيده قد كفّ الدّب! بيفرفصنا كلنا»، قال لها يومها. لم يتغيّر أكرم. بقي مسالمًا، لا يعرف كيف يُري أحدًا «العين الحمرا». يستشيط ضحكًا. يقلب إهانات خصومه إلى صور كاريكاتوريّة تجبرهم على القهقهة.

• • •

أخرج أبو أكرم في المساء عشرين كرسيًّا بلاستيكيًّا من تلك الفسحة المثلّثة تحت الأدراج. صفّها في الحديقة على طول مساكب الورد والياسمين والمردكوش، ثمّ مدّ طاولتين كبيرتين في الوسط. أوراق العريشة التي فاضت على أعمدة الحديد الرفيعة حملت الفيء وعناقيد الحصرم.

كان بدري، على بعد أمتار، يستعدّ للذهاب إلى السهرة. ضاق ذرعًا من انتظار ابنته نور فقال بضيق: «أكيد بتكون عمّ تصوّر فيديو! أنا بعرفا لنور، لمّن بتمسك الكاميرا ما بتعود تتذكّر حدا. كاميليا، محمد، يالله لحقونا على بيت خالتك لمّن ترجع». كانت نور تلهو على ضفاف النهر. تجلس تحت سنديانة هرمة ومعها كاميرا الفيديو. تفكّر كيف تضع النّهر والحصى ووجوه صديقاتها في مشاهد متقلّبة.

طالع نورَ وجها كاميليا ومحمّد الساخطان لحظة دخولها البيت. رمتهما بسيل من الاعتذارات وهرعت إلى الحمّام. استحمّت، ثمّ لبست على عَجَل. خرجوا من البيت وأطراف شعرها ما زالت مبلّلة. قطعوا طريقًا ضيّقًا مرصوفًا بالحجارة، ونزلوا درجًا عريضًا ثمّ نحوا يسارًا. فتحوا بوّابة الحديد ودخلوا الحديقة. كان الجميع قد تحلّق حول طاولة الطعام. همدت الأحاديث وبكاء الأطفال وعلت رنّة الأكواب.

حيّتهم نور بصوت عال. هَمهَم بعضهم وردّ التحيّةَ البعضُ الآخر. لم تَرَ أكرم بينهم. دخلت البيت فرأته يعطي ناجي، أخاه الأصغر، كرسيًّا

ليأخذه للضيوف. وما إن ابتعد ناجي حتّى أمسك بذراع نور قائلًا:

ـ شو ستّ نور، شو هالحلاوة؟ كنتِ عالبحر؟

ـ لا، كنّا عالنّهر.

ـ قدّيش صار عمرك؟ خمستعش؟

- إي.

ـ يُو لُوك سيكسي! يُو سمِل غرايت.

ـ هههههه، خلص أكرم! بعدك مثل ما إنت بتحبّ الولدنة.

حاولت أن تخفي خجلها. عطر خفيف من الشاي الأخضر ورمل البحر فاح منه. ألقت شمس كاليفورنيا بظلالها على بشرته. نظرت إلى عنقه المصقول وشعر صدره الكثيف من فتحة قميصه. بدا لها مغريًا. لا يشبه ابن خالتها الذي غادر دار شمس منذ سنتين. أدرك ما دار في رأسها فشدّها إليه برقّة، ثمّ ضغط بشفتيه على حافّة شفتيها. تسمّرت في مكانها. لم تُبعده عنها. شعرت برائحة رضابه ترفرف حول فمها. نظر إليها وقهقه كأنّه يحتفي بعفويّته. بدا مستمتعًا برؤية انفعالاتها. قالت:

ـ شو باك عم تمدمد إيديك. هيك بيصير فيه اللّي بيروح على أميركا؟

ـ شو أميركا ما أميركا؟ ما أنا بالخِلقة هيك، بس أميركا أنعشتني! حسّستني بحلاوة هالإشيا.

ـ أنا رايحة آكل يا بايخ!

غيّرت بهذه الجملة الحديث. مشت إلى الحديقة بتؤدة كأنّ جسمها يتعثّر بالهواء، بينما امتدّ الرّشح من كوّة إبطيها إلى قماش فستانها.

• • •

بدت ردّة فعلها على تلك القبلة جليّةً لها ولأكرم. وظلّت تتذكّرها، لعدة أيّام بعد تلك الأمسية، فتغمض عينيها. تلمس نهديها وتدس أصابعها بين فخذيها. ومع ذلك، كانت لا تزال تحمل لأكرم نوعًا من المحبّة الأخويّة التي جمعتهما منذ الصغر. يبدو لها تارةً طفلًا وتارةً رجلًا. تستشفّ في صوته غبطة ذلك الصبيّ الذي دلّها على مخبئه في بيت الدرج وعلّمها كيف تطفئ أعواد الكبريت داخل فمها. تملّكتها أحاسيس متناقضة. حامت أفكارها حول هيثكليف، بطل «مرتفعات وذرينغ»؛ الرواية التي تدرسها في حصّة اللُّغة الإنكليزيّة. عاش مع كاثرين في بيت واحد كما لو كانا أخوين.

ومع هذا لم يكونا أخوين. لم يعيشا كزوجين بعد حبّهما العاصف ربّما لأنّهما كانا قريبين مثل أخوين، وليس لأنّ كاثرين كانت تخجل به.

كلّ ما تعرفه أنّها تمنّت أن تلتصق بأكرم، أن تلوك رائحةَ جلده وتخزّنها داخل رئتيها. لماذا أثار فيها هذه الأحاسيس بعد أن عاد من لوس انجلس؟ أهي تعابيره الأميركيّة التي لم يعتد عليها أهل دار شمس؟ أم هيئته الجديدة التي أوحت إليها بشبّان لوس أنجلس في مشاهد تلفزيونيّة وهم يتزحلقون على الماء؟ لهم بسمة ساحرة وهم يركبون الموج؛ يتحدّون البحر؛ يعودون إلى الطبيعة كأنّهم يروّضونها. لم تكن نور لتفرّق بين لوس أنجلس وأيّ مدينة أميركيّة أخرى، بل هي لا تعرف شيئًا عنها. لكنّ الغموض يدرّ الأدرينالين، وفكرة لوس أنجلس تساعدها على اشتهائه.

أرسل أكرم، في الشهور الأولى لوصوله إلى لوس أنجلس، عدّةَ بطاقات وصور له أمام أستوديوهات هوليوود. لم تكن الصُورة التي علقت في ذهنها للوس أنجلس، بل لمارلين مونرو وهي تقف على زاوية شارع ليكسينغتون وشارع ٥٢ في نيويورك. قدماها فوق شبّاك حديديّ في الأرض يشهق ويزفر منه مترو الأنفاق، يكسر هواؤه أطراف فستانها المسكيّ ويتقاسمه. يداها بين فخذيها وفخذاها تساومان. تضحك كطفلة. تنظر كغانية. ألسنة الهواء تمتدّ من الفتحات في الأسفلت إلى محطّات جسمها الأخيرة. شعرت نور بأنّ أكرم يشبه مارلين مونرو. فيه الشّبق وفيه البراءة. قادر على ارتكاب المحرّمات من دون أن يأثم. عايدة، وهي تُري الصّورة لأمّها سلوى، قالت: «ليكي شو بَعَتلي من لوس أنجلس. هالصّبي قليل حيا!». ضحكت الاثنتان. ووقفت نور وراءهما ووجهها مُنحنٍ فوق الصُورة. تراءى لها أنّ هذه هي لوس أنجلس.

أخبرت نور صديقتها شادية بما حدث لها مع أكرم ذلك المساء وما تدفّق به جسدها من أحاسيس. لم ترَ شادية بدًّا من أن تحوك في خيالها زواجًا وشيكًا، خاتمةً مألوفة لهذه القبلة. قالت نور بتأفُّف:

ـ له شو خبَ! يعني ما فيّي انبسط معه وبس؟

ـ شو فَلَتوا عقلاتك! عم تحكي كأنّك شي رجّال. هنّي هيك، بس نحنا لأ.

شعرت نور بالضّيق من تشبيهها لها بالرّجال. تذكّرت رباب وهي تقول إنّ الستّ سارة لم تعد مثل سائر النساء. صارت واحدة من الرّجال. قالتها بفخر كأنّ عمّتها تخطّت الطّبيعة أو تحايلت على هرموناتها وقدَرها

الجيني. شرحت سلوى لابنتها أنّ عمّتها لم تعد تحيض. لذا، فإنّها، بحسب الشريعة، تخلّصت من دَنَس الدّم. سألت نور نفسها إن كان يجب على عمّتها سارة أن تتحوّل إلى رجل كي تصل إلى مدارك روحيّة عالية؟ هل الطريق إلى اللّـه يحتّم التّشبّه بالرّجال؟ هل الرجل أقرب إلى اللّـه؟ تذكّرت حكاية السّت شعوانة. أمضت حياتها في زمن بني يعقوب وهي متنكّرة في زيّ رجل. هكذا قالوا. ألم تصبح رجلًا؟ شاركت الزهّاد السّبعة في العبادة ليل نهار من دون أن يدركوا أنّها أنثى إلى أن وافتها المنيّة. وحين شعروا بنهدين تعجّبوا، وقبل أن يلتفتوا إلى فخذيها خشعت عيونهم. قيل إنّ اللّـه أوكل إلى الملائكة دفنها كرامةً لها.

• • •

جاء أكرم بضعَ مرّات لتناول الفطور، لكنّ نور لم تستطع أن تختلي به لحظة. كانا محاطين بالأهل والأصدقاء. وبعد أسبوعين، حين بدأ والداها ووالدا أكرم يستعدّون للذهاب إلى مأتم في دار الطائفة في بيروت، علمت بأنّ فرصتها للانفراد به قد حانت. قالت لمحمّد وكاميليا، بكلّ مواربة، إنّ أكرم جاء هبة من السماء. سيساعدها على كتابة بحثها عن «مرتفعات وِذرينغ» وأفكار برونتي. حاول محمّد أن يرافقها فأوهمته بأنّ عمّال مكافحة الحشرات سيأتون لرش المبيدات في البالوعات وعليه أن ينتظرهم. وقبل أن تسمع إجابته خرجت من الباب، وقطعت المسافة إلى بيت أكرم ركضًا.

فتح ناجي الباب. سألته عن أكرم لاهثةً، فناداه واختفى. أطلّ باسمًا وهمس: «كنت رايح لعندكن». أخذها إلى الغرفة الصغيرة وراء المطبخ. جلسا ملتصقين أمام طاولة عالية، وُضع عليها حاسوب وبعض الكتب والأقلام. فتحت نور الدفتر لتُريه ما كتبته عن «مرتفعات وِذرينغ»، فأجابها: «مش مشكل، لعيونك ستّ نور. حطّيلي الدفتر هلّق واطّلعي فيّي». حضنها وابتدأ بتقبيلها. قالت وهي تراوغ: «لا، لا». أجاب: «فهمان... رُوقي». مرّ بيده فوق تنّورتها ثمّ رفعها، وأكملت أصابعه الانحدار حتّى علقت. همس: «هون بيت النار. هيدا الوجاق اللّي عم تهدر فيه النّار، النار اللّي ما في طعم للحياة بِدونا».

أغمضت عينيها. حاولت أن تُخرج يده من تحت التنّورة فضغط بأصابعه بين فخذيها وقال: «انبسطي وبس». عصرت المقلمة بيدها. ارتجف جسدها سريعًا وهدأ سريعًا. وقرّرت، بعد دقائق، أن تعود إلى البيت. قبّل رأسها وضحك.

لم تشعر بالخجل أو الخوف، لكنّ جسدها المخدّر كان يتفرّج على برميل الفراغ الذي ظهر فجأة داخل صدرها يمحو الفراغ كلّ ما سبقه. له طعم الموت. فهمت أنّ هذه اللّحظة لن تتكرّر. أهي روابط الأخوّة التي أخذت تتنفّس بينهما أم رؤية نفسها تخترق المحرّم؟ ما زال جسدها غريبًا عنها. يبدو كأنّه عقل آخر يشكّك في العادات، يعاندها. يقوى عليها بحججه وعاطفته؛ هذه العاطفة التي يستهتر بها الآخرون، يصمونها بالعمياء. عاد أكرم إلى البراءة كما توقّعت، وهي نسيت كلّ شيء ما عدا إشارته إلى بيت النّار؛ إلى دفئه وعظمته. وحين زار دار شمس في الصيف التالي رأى نظرتها الأخويّة من جديد وابتسم قائلًا: «واللّه ما عملنا شي يا نور، كِلّا ولدنة بولدنة! هههههه».

• • •

كانت الست مهيبة تقول إنّها ستعيش طاهرة لتنال الجنّة، وإنّ غضب اللّه على عباده الآثمين عظيم. هؤلاء مصيرهم بيت النار، جهنّم. وكانت الست سارة تصحّح لها أفكارها، وتقول إنّ جهنّم ليست سوى حالة الابتعاد عن اللّه، فأرواحنا تنزع نحو التواضع الكامل؛ نحو اليقين. النّار والنور هما مادّة واحدة مصدرها اللّه. نحن الذين نقلب النّار نورًا بالتسليم.

لم تكن نور تفهم كلّ ما تقولانه. ومع ذلك، تطبّعت على حبّ هاتين المرأتين والشعور بأنّهما تحملان الخير والبركة. تنظر في مجلس الخلوة إلى رِكاز الكتب وأغلفتها العتيقة والحروف المرصوصة بلا نقاط في دوائر عند حواشي المخطوطات. تتابع بعينيها نقاط الالتقاء بين مقاطع السقف الحجريّ المقوّس. تتمدّد على الحصير وتأكل من صحن الزبيب والجوز. تلعب بأوراق الحبق المتدليّة من فتحات الشبّاك الحديديّة وتبحث عن أكياس الخزامى التي وضعتها خالتها مهيبة بين المساند لطرد العثة. لم تفكّر يومًا في أن تحمل كاميرتها إلى الخلوة. لم تلتقط صورًا لعمّتها سارة أو خالتها مهيبة أبدًا. لم تكن معارضتهما هي التي منعتها من ذلك، بل عدم ورود مثل هذه الفكرة في رأسها. لم تكن الخلوة خارجة عن ذاتها، وهي كانت تريد أن تصوّر غيرها.

في سنّ المراهقة، عندما حلمت بأن تصبح مخرجة سينمائيّة وقال بعضهم إنّها متقمّصة، بدت لها الكاميرا علبة ساحرة. كيمياء ضوء وعتمة عجيبة. لم تكن تدرك أنّ الصّورة حين تقلّد الواقع تضيف شيئًا آخر؛ مفاجأة لم تكن ضمن ذلك الواقع. كانت لا تزال مولعة بتصوير الناس وهم يقومون بأعمالهم اليوميّة. تحتفظ بعنائهم. تطلب من الكاميرا أن تقلّدهم. لم تكن

تعرف بعدُ أنَّ الصُورة ليست مرآة تمتصّ الوقت في الغرفة المظلمة وتبدّله وقد تحمل وقتًا آخر؛ وقتًا ليس عدائيًا يسمُونه الزمن الجميل. تتحايل الصُورة على المكان وتمدُّه بأبعاد أخرى.

صوَّرت عمّال مصلحة الماء والبنّائين وفلّاحات دار شمس وهنّ يفرطن شجر الزيتون ويقطفن التين ويصنعن المكدوس، ثمَّ انتقلت إلى نوع آخر من الصور. حاولت أن تلتقط ما هو جميل وقبيح في جسد واحد، كأنَّها تقلّب الظاهر والباطن. ألم تقل لها عمّتها إنَّ الجمال والقبح ينبعان من المكان ذاته؛ من الحالة نفسها؟

انتقلت إلى التَّصوير بكاميرا الفيديو التي أهداها إيَّاها والدها في عيد ميلادها الخامس عشر. حضَّرت مشاهد قصيرة مؤطَّرة بمقطوعات موسيقيَّة. بعضها منسجم مع ما تراه العين، وبعضها غريب عنها. لم تعد تريد من الكاميرا أن تقلّد الحياة أو تكرّها على ورقة كربون، بل أن تخلق حياة أخرى مرادفة لها، تستطيع فيها أن تمحو وتزيد وتكبّر وتصغّر. تستطيع أن تبيّض وتسوّد على مزاجها.

كانت تصوّر أحيانًا بطريقة عفويَّة، كما فعلت حين زارهم أصدقاء لوالدها من بيروت. لقّم بدري قرعة المتة حتَّى امتلأت، ثمَّ سكب الماء الساخن مع الهال والسكّر. زرع البامبيجة داخلها حين علت رغوتها ورشفها دفعة واحدة. فرك رأسها بقشرة الحامض وأعطاها لأحد زائريه الذي جلس يستفسر عن كرامات الست سارة التي سمعوا عنها. لم يفهم كيف نبذت الحياة الدُنيويَّة في تلك السنّ المبكرة. قالت سلوى، وهي تلفّ إيشاربها حول رقبتها، إنَّ الأمر له تفسير علميّ، إذ إنَّها تنسّكت ردَّةَ فعل على الصدمة النفسيَّة التي تلقَّتها من جرَّاء وفاة أختها أمَلي وانكفاء أمِّها وإهمالها لها. ربَّما شعرت بحاجتها إلى أن تعوّض بأمر ما.

اعترض بدري على رأي زوجته، معلّقًا بأنَّ أخته كانت تميل إلى الوحدة والزهد قبل وفاة أمَلي. وعزّزت ظروف عائلته بعض ميولها، ثمَّ إنَّ جدَّه عبد اللَّطيف كان صوفيًا. رمقت سلوى زوجها بنظرة دلال، وقالت: «في كلّ حال يا جماعة، أنا وبدري دايمًا منرجع لهيدي النقطة، وما منتّفق». واستدارت فرأت نور تقف قبالتهم على البلكون حاملة كاميرا الفيديو. سألتها باسمة: «شو نور عم تصورينا؟» نظر الزائرون إلى نور بين مشجّع ومتسائل، فحاولت أن تستحثّهم على المضيّ في نقاشهم. قال بدري: «بابا، ما بقا عندي شي قوله». ونظر محمّد إليها باشمئزاز قائلًا: «ما أكرهِك صحيح يا نور، وأكره هالعادة فيكِ! حاملة هالكاميرا ونازلي تصوير.

قلّة عقل. بتجي هيك تصَوّرينا لا شوْر ولا دَستور!».

جفلت نور من تطاول أخيها عليها بالكلام، لكنّها لم تُجب. أكملت التصوير لدقائق ثمّ غادرت البلكون. اعتادت على وقاحة محمّد وكلماته النابية. اعتادت أيضًا على إخفاء شعورها بالإهانة لتستبدله باللّا مبالاة والاستخفاف. كان ذلك يزيده حنقًا. تهرب أحيانًا إلى الخلوة لتنسى مشاحناتها معه، ولتتألّم بصمت.

رأت سلوى في انتقادات ابنها اللّاذعة وقسوته نوعًا من الغيرة الأخويّة. تقول لبدري إنّه يريد أن يثبت رجولته تجاه أخته الكبرى لأنّه صغير العائلة. وحاولت أن تستند في ذلك إلى قراءاتها في علم النّفس وخبرتها الطويلة في التّعليم الثانويّ. وكانت تشجّعه، وتمدّه بالثقة، وتثني عليه إذا قام بمبادرة جيّدة نحو الآخرين لعلّه يلين.

تقلّصت فورات محمّد العصبيّة وهو في التاسعة من عمره، فهنّأت نفسها على أسلوبها في التعامل معه. فلماذا حلّت الآن كلماتُه الجارحة ونبرته الذّيكيّة مكان عصبيّته؟ عاد القلق ينتابها. لم يجد بدري تفسيرًا لطباع ابنه سوى انعكاس لمراهقة أخيه نادر. لا بدّ من أنّه ورث من صناديق العائلة بعض هذه الجينات. يلمس أحيانًا شيئًا من محبّة محمد لكاميليا، فيضع بعض اللّوم على نور. ويردّد أنّ استهتارها بأخيها فاقم غيرته وأجّج غضبه. وتعترض وتذكّره بأنّ لسان محمد السّليط وطبعه الثاريّ سبّبا له ولأمّها مواجهات شبه يوميّة مع أهالي الحيّ وعائلات رفاقه في الصفّ.

لم تجد كاميليا ضيرًا في تنفيذ طلبات أخيها كي توفّر على نفسها المشاحنات. تسكت حين يعلن عن مُلكيّته للتلفزيون، أو يستأثر بغرفة السطح وألعاب الفيديو. تصنع له الشاي والبوشار وسندويشاته المفضّلة أيّام السبت. تُحضرها إلى الصالون بعد أن يأوي بدري وسلوى إلى فراشهما. يقفل الباب كي لا تدخل هي أو نور للجلوس معه. تنظّف أحذيته التي كان مهووسًا بها. ويوم شدّ شعرها ورماها أرضًا لأنّها ركبت دراجته، عادت وصالحته خلال نصف ساعة. تعلّمت أنّ مواجهته أصعب كثيرًا من مجاراته، فحين يغضب يُهينها أمام الجميع. يخطّط للانتقام منها. ألم يقتلع نباتات الفاصوليا الصغيرة التي زرعتها في وعاء قرب شبّاك المطبخ؟ «أخدتِ صفر مكعّب على الفرض! بتستاهلي لأنّه أنا بُغلطش!»، قالها بكلّ غِلّ.

رفضت نور أن تجاريه. تعاطف أمّها معه ورضوخ كاميليا له كانا

يحزّان في نفسها. تبدو هي في نظر الجميع الأقوى، لأنَّها الأخت الكبرى التي تستطيع أن تتخطَّى إهاناته. ربَّما لذلك تغيَّرت ردَّة فعلها. لم تعد تواجهه أو تحاسبه على ما يقول ويفعل. واستبدلت مساجلاتها معه بالبرودة السامَّة والاستهتار المبطَّن.

ـ ٢ ـ

تصغر الست مهيبة ابنةَ عمّها سارة بخمس سنوات. أصبحت في مطلع شبابها رفيقتَها في المجاهدة الروحيّة. تُقاسمها الخلوة وتحيط بها كخيالها. ومع ذلك، لم يكن طريقها إلى التنسُّك مشابهًا لطريقها. لم تمت وتولد مثلما ماتت سارة ووُلدت. ولم تذق العذاب الذي دفع بسارة إلى نبذ حياة الجهّال والانسلاخ عن العلائق الدنيويّة. ولم تفهم كيف تتخلّى امرأة عن أنوثتها في مثل هذه السنّ، فتتخلّص من دم الحيض، وتقول إنّها صنعت لنفسها جسدًا خفيفًا طيّعًا.

لم تكن مهيبة تدرك أنّ جمالها طُبع ببراءة نادرة قرّبتها إلى عالم الست سارة. «مِن وين جايبة هالعيون الزرق؟» سألتها بائعة القماش، ممازحة يومًا وهي تداعب جديلتها الذهبيّة. وأجابتها بثقة طفلة في السادسة: «إجو من اللّـه. بيقول بيّي هُوّي مخبّي كلّ الخرزات. أنا طلعلي الخرزات الزرق». جاءت بعد خمسة صبيان، وملأت حياة أبيها نعيم بهجة وحماسة كأنّها مولوده الأول. وتوافد عليه الأقرباء وهي ما زالت صغيرة ليعدهم بالمصاهرة، فيجيبهم بعصبيّة بأنّه لن يزوّجها قبل أن تبلغ العشرين.

لكنّ العهد الذّي قطعه على نفسه لم يَصدُق. انكشف له بعد سنة هوى ابنته بشاب عجيب رأته في ظروف ماكرة. خلبها كعصفور العندليب الذّكَر في موسم التكاثر. وقفت صامتة كأنثاه وهو يرفع صوته بالغناء. تسمَّرت كأنّها شعرت بألوان لَزِجة وحروف مرتجفة تخرج من صوته. لم يكن العندليب خجولًا. كان صوته القاهر يقول: «أنا الأجمل هنا». هو عصفور نادر الرَّغبات. يتغلّب على ضجة الضعفاء، فيبتدع أصواتًا عالية، أكثر فتنة. ويملأ في المساء أنثاه بالشوق.

• • •

التقت هذا الشّاب يوم ذهبت إلى صالون كارلو استعدادًا لعرس قريبة لها. لم تنتظر طويلًا حتّى جاء دورها. غسل المزيّن شعرها وصفّفه في خلال نصف ساعة. اتّصلت بأمّها وقالت لها إنّها ستمضي بعض الوقت عند أمل، صديقتها التي تقيم بالمبنى المطلّ على الصالون.

كانت أمل أكبر منها سنًّا وتتمتّع بحرّيّة لم تعرفها بنات دار شمس، عزّتها مهيبة إلى مكوث عائلتها في وطى المصيطبة وتشرُّبها عادات أهل المدن. حملت قطعةُ أرضٍ العائلةَ من الشقاء إلى الراحة، وقد حصل عليها

والدها في خضمّ الحرب، بداية الثمانينيّات، فتقاعد من عمله في المطار وانتقل إلى دار شمس. كانت الأرض هذه جزءًا من تركة عمّه الذي توفّي في الأرجنتين من دون خَلَف له. بقي ابنه توفيق في بيروت. يغيب شهورًا ثمّ يظهر أمام عتبة البيت بعد منتصف اللّيل. ينام يومًا ويغادر هو والكلاشن دار شمس من جديد. «ابنِك منيح. كنت مبارح معه بعيون السيمان، لا تخافي»، يقول أحد رفاقه لأمّه التي أتعبها القلق والخوف عليه. ويعدها بأن يحمل إليه رسائلها الشفهيّة.

هلّ وجه الخادمة ظمياء حين رأت مهيبة على الباب. عانقتها فأعطتها مهيبة بِكَلّ الشعر التي اشترتها لها من صالون كارلو. غارت غمّازتها في الخد الأيسر قائلة: «يسلّم إيديكِ». مشت مهيبة بضع خطوات وفتحت باب الصالون قبل أن تهمس في أذنها: «أمل عِندا عريس عاد». لم تستطع التراجع. رفع الجميع رؤوسهم نحوها. نظرت إلى أمل بارتباك قائلة: «يمكن جيت بوقت مش مناسب». ارتسمت علامات الضِّيق على وجه أم توفيق، لكنّ أمل رحّبت بها وأجلستها قربها.

نظر العريس إلى مهيبة بمزيج من الدّهشة والاهتمام. ارتبكت. لم تسمع السؤال الذي وجّهه أبو توفيق إليه ولا بماذا أجابه. شعرت بصوته يتردّد في الصالون قويًا ضاحكًا كأنّه يُفلي على الآخرين انفعالاتهم. أسرتها إشارات جسمه ويديه، أمّا كلماته فلم تفقه منها شيئًا. اجتاحها شعور بالغيرة من أمل، فخجلت من نفسها، واستأذنت الحاضرين، وخرجت إلى البلكون.

مشت حتّى زاوية البلكون. اختفت عن عيون الضيوف. قرّرت ألّا تعود إلى الداخل حتّى يرحلوا، وأن تطرد من رأسها صورة ذلك الشاب. نظرت إلى وراء حدود دار شمس حيث ارتمت بلدة دير القمر بسوقها وأسقف بيوتها الحمر المتّقدة وطرقاتها المبلّطة. امتدّت كنيسة سيّدة التلّة بحجارتها الذهبيّة وأعمدة القبّة الصغيرة. أغمضت عينيها للنسمات التي لفحتها كأنّها ترتشف دفئها. تذكّرت رائحة الشمع الذائب في كنيسة الورديّة والرّاهبة جورجيت. لكم تبدو القيصريّة قريبة من هنا. أصوات مستلزمات الصانعين وأدوات الحرفيّين والباعة فيها كانت تصل إلى سرايا دار شمس أيّام حكم الأمراء المعنيّين. وكان جهجاه المخفن، جدّ أمّها الأعلى، يجلس في تلك السوق المسقوفة قرب بالات الحرير. يشمّ الأسعار والأنواع ويُستدعى ليقدّر أحمال جلول التوت في قرى الشوف. كانت حروب حرق حقول التوت وأكواخ تربية دود القز رائجة بين سعيد جنبلاط وبني حمادة

حين وقع في حبّ فتاة ديريّة، ولم تحمل معها سوى نول الحرير، يومَ هربت معه إلى عين دارة. أرادت بعد زواجهما أن تتحوّل عن المسيحيّة إلى الدرزيّة، فقهقه قائلًا: «تقلّليش عقلك! فيكيش تحوّلي لشي». أقفلت الدّعوة. وأضاف، «تزعليش، ما أنا كمان مقفلين الباب عليّي، لا فوتة ولا طلعة!».

• • •

كان وحيد القنطار، بعد أسبوع، يزور عائلة مهيبة مع والدته. فبعد أن خرج من بيت أمل، أعلن أنّه لن يتزوّج إلّا من صديقتها؛ الفتاة التي دخلت الصالون بغتة. البنت الشقراء هي الفتاة التي يبحث عنها. غضب أبوه وشعر بالخجل حيال أبي توفيق. أنّبه قائلًا: «شو البنت صخّارة بندورة؟ نحنا جبناك على بيت أوادم وعيلة مسموعياتها ممتازة. وين بدنا نْوَدّي وِجنا لمّن يعرفوا إنّك رايد صاحبتا!». قال وحيد لوالده ببرودة إنّه لم يكن متحمّسًا لزيارة أمل من الأساس، وإن صدفة رائعة وضعت مهيبة أمامه. وأضاف وهو ينظر إلى أمّه: «أمل كانت ناعمة بأوّل طلعتا. بس هلّق لمّا شفت وجا وجسما ما عجبتني. خلص ما عجبتني!». ضربت أمّه كفًّا بكفّ قائلة لأبيه: «إسا زِهِذ بأمل، تعا دبّرنا!».

على الرغم من امتعاضها من قرار ابنها، فإنّ قلبها رقّ له بعد أيّام. نصحت زوجها بألّا يضغط عليه. «الزواج قسمة ونصيب،» كرّرت قائلة. المهم أنّه لم يَعِد أمل بشيء. لكنّها تقصّت أخبار مهيبة وعلمت بأنّها تصغر ابنها بعشر سنوات، فحاولت أن تثنيه عن الارتباط بها. علّق: «أحلى. أنا بدّي ياها صغيرة لحتّى ربّيها متل ما بدّي». نفض والده يديه في الهواء قائلًا: «إنت وإمّك اتدبّروا. أنا بستحي روح معكن». ونظر وحيد إلى والده باستخفاف كأنّه يرى في عناده الأخلاقيّ بساطةً لا تليق بمن كان ابنه رجل أعمال باهرًا، وعلى بعد خطوات من حياة خياليّة لم يسمع بها أهالي دار شمس، ووالده يريده أن يتخلّى عن مصلحته وفاءً لأناس بسطاء. أجابه:

ـ وين إنت عايش يا بيّي؟ وين؟ روح شوف العالم كيف عايشين.

ـ مش كلّ شي بينحسب هيك يا ابني.

ـ كيف بينحسب؟

ـ الزلمي وقّف معي بأصعب الأوقات!

ـ مش مختلفين، وبكرا منرذله جميله!

ـ المعنى؟

ـ إنسالي أبو توفيق. شوف عالم الفوق، عالم اللّي بيطلّعوا وبينزّلوا أسعار السوق كل يوم. عالم الحاكمين بأمرُن.

وافقت مهيبة على الزواج منه بلا تردُّد. ذُهل أبوها حين سمعها تقول إنَّها لن تقبل برجل غيره. أمَّا زوجته سامية، فقد داهمها، على عكسه، سرورٌ عارم. لا بدَّ من أنَّ اللّـه استجاب لدعائها، قالت له. وأضافت أنَّ زواج مهيبة من وحيد وسفرها إلى البرازيل فرصة لا تعوَّض. عليه ألّا ينسى أنَّ مستقبل البلاد بات على كفّ عفريت، وخصوصًا بعد حصار الإسرائيليّين لبيروت.

أدار وحيد في البرازيل عددًا من مشاريع جو نهرا، ابن رجل الأعمال المشهور، كامل نهرا، مؤسّس أوّل بنك في بيروت في زمن الإمبراطوريَّة العثمانيَّة. ونظَّم البنك جزءًا أساسيًّا من تجارة القوافل بين حلب والإسكندرية وإسطنبول. انتقلت عائلة نهرا، بعد زوال الحكم العثمانيّ، إلى البرازيل، فأسّس الابن، جو، عدَّة شركات أهمُّها «بنكو نهرا». وشاءت الظروف أن يصبح خال وحيد صديقًا مقرَّبًا من هذه العائلة الثريَّة في ريو دي جنيرو، فكسب ثقتها بعد نجاحه في إجراء واحدة من أدقّ وأخطر عمليّات القلب لابنة جو البالغة من العمر ستّ سنوات. بعدها، عمل وحيد في إحدى شركات جو بتوصية خاصَّة من خاله. واكتسب خبرة واسعة في فترة قصيرة، فطلب منه جو إدارة «نهرا ريسورت»، وهو مشروع سياحيّ وصفه بالصغير مقارنة بمشاريعه العملاقة الأخرى. وجنى المشروع أرباحًا طائلة وعزَّز موقع وحيد في عالم الاستثمارات والمقاولات.

• • •

أراد وحيد أن تتمَّ حفلة الخطوبة في قصرٍ أثريّ في السمقانيَّة كان قد أعجبه، وقرَّر أن يستأجره لليلة واحدة. لكنَّ نعيمًا اعترض قائلًا إنَّ الخطوبات تقام في بيت الفتاة، بحسب التقاليد. «إنتَ مش مقدّر خطورة الأوضاع! الجوّ مكهرب هون وبالسمقانيَّة وبِبيت الدّين»، أردف قائلًا. المناورات العسكريَّة على قدم وساق في الجبل، وهذا لا يسمح بإقامة الحفلات. أجاب بغيظ: «ما السمقانيَّة فشخة من هون! ما تخاف عمّي، أنا عندي علاقاتي. بعدين ما في شي. الإشتراكيَّة أخدولن الثكنة للقوّات، وليك ويلن هربوا على دير القمر. هون ما بيصير شي». اقترب منه سليمان ونظر إلى عينيه معلّقًا بعصبيَّة بأنَّ عائلة كمال الدّين لا تحب البهرجة والأضواء. فابتسم وحيد كأنَّه يتحدَّث إلى طفلين، وهزّ رأسه متظاهرًا بالاستسلام.

أقام وحيد بعد الخطوبة حفلة كبيرة في القصر. استطاع أن يأتي ببعض مدراء البنوك والنوَّاب ورؤساء الشركات التي يتعامل معها، في سيَّارات حزبيَّة آمنة، ليحضروا الحفلة. ووَكَّل موظَّفيه بالاتِّصال بأهمّ المجلَّات لنشر النبأ وعرضِ صُوره هو وخطيبته. وقف في الحفلة إلى جانب مهيبة بلهفة كأنَّه حاز جائزة. لم يكن المصوِّر الذي استأجره قد وصل حين وضع على وجهه تعابيره الفاترة: ظلال ابتسامة خفيفة نفت عنه أيَّ صفة استعراضيَّة. رأى نفسه في صورة تقول إنَّه يستحقّ جمال مهيبة الأخَّاذ وبراءتها. يستحقّ بياضها وزرقة عينيها. القوَّة والنَّجاح اللَّذان يمتلكهما يحتاجان إلى صورة امرأة جميلة تكلِّلهما؛ يحتاجان إلى ظاهر يطغى على كلّ شيء. يوحي بأنَّه هو الباطن وأنَّ لا حقيقة بعده. كيف أتى بهذه الابتسامة، بطيفها المريب على شفتيه؟ تخيفُ مَن يعرف مصدرها، وتُؤنس مَن يظنّ أنَّ كلّ الأقوياء يريدون مثلها.

لكلّ إنسان حياة وللصُّورة حياتان، إيجابيَّة وسلبيَّة. وتصبح هي الشَّاهدة الأهمّ، بعد ولادتها من الغرفة المظلمة. ولكنْ، علامَ تشهد؟ على ما تجلّى حقًّا أمامها، أم على قدرتها على صنع الناس والأشياء المحاطين بأقلّ نسبة من الضَّوء؟ هل تشهد على قدرتها على الخلق والاختزال؟ ألا تستطيع الصُّورة أن تُكذِّب الإنسان المؤطَّر فيها، فتقول له إنَّها هي الأصل وهو الانعكاس. هذا ما كان يتمنَّاه وحيد: أن تُجمِّد الصُّورةُ لحظةً وهميَّة وتجعلها حقيقة. اختار لمهيبة فستانها ولون حذائها والمجوهرات التي لبستها. وأتى بمصفِّف شعر من بيروت وأمره بخلق تسريحة لها تليق بالأميرات، لا تشبه تسريحات دار شمس. كان يريد لمهيبة، في الصور التي سينتقيها للمجلَّات، أن تعرض جمالها ولا تعطيه، أن تضخّمه كالفائدة المتراكمة في حساب بنك، ولا تسمح لأحد غيره بأن يتصرَّف به. ولولا معارضتها لكان سيشتري لها فستانًا يزيد في قيمة نهديها. التقط المصوِّر لهما لحظات مدروسة. خضخضها في كاميرته ووجَّه تعليماته: «يالله عطوني ابتسامة... إي... الرَّاس لفوق... شوي على اليمين. إي... إي... خلّيكن هيك، ما تتحرَّكوا!». انتهى وحيد باختيار صورتين فقط لتُعرَضا في المجلَّات. تجلس في الأولى مهيبة في كرسيّ فخم، وهو وراءها، يداه على كتفيها كأنَّهما تطوِّقان عنقها. وتشدّ يدُه في الثانية على خصرها كزنَّار، وتمسك الأخرى بمعصمها. بدا في الأولى كأنَّه ابن باكنغهام پالاس، وفي الثانية ظهر كرجل أعمال ولجَ وول ستريت بخفَّة بعد أن كان يُعيَّرُ بأنَّه زبالة بيضاء.

• • •

تعالت مهيبة على ارتباكها، بعد الخطوبة بأسبوع، واتَّصلت بأمل. كانت خائفة أن ترد عليها أم توفيق. جاءها صوت ظمياء فتنفَّست الصُعداء. تمتمت بأنَّها أرادت أن تعتذر عن أيّ إساءة تسبَّبت بها لأمل عن غير قصد، ثمَّ سارعت إلى القول إنَّ أمل ووحيدًا لم يتقابلا سوى مرَّة واحدة. وشاءت الأقدار أن تلتقيه هي في اليوم ذاته. وأضافت:

ـ وحيد هوّ إجا لعندي.

ـ وإنت دغري قلتِ إي!

ـ خلص ظميا، خلص! قوليلي أمل زعلانة منّي؟

كانت أمل قد أخذت سمَّاعة التليفون قبل أن تجيبها. لم تعاتبها ولم تكن ساخطة لأنَّ وحيدًا فضَّلها هي. لكنَّها نصحتها بالتريُّث قبل الإقدام على الزواج منه. قالت إنَّ أخاها توفيقًا يعرف الكثير عنه. صفقاته مشبوهة ويستغلّ العاملين لديه بأبشع الطرائق. كانت مهيبة معتادة على صراحة أمل، لكنَّها وجدت في كلماتها هذه ما جرحها وأغاظها. أجابتها بأنَّ وحيدًا رجل أعمال طموح، ويظنّ توفيق كلّ رجال الأعمال مشبوهين. ألا يُعقل أن يكون قد تجنَّى عليه بهذه الأوصاف؟

كلّ ما في مهيبة، نبرة صوتها، جرأتها، حزمها، كان يؤكِّد لأمل مدى تعلُّقها به. أخذت به كما يُؤخذ الفلَّاحون باخضرار نبات اللّوف السَّاطع ولبّه السامّ. ومع هذا، حذَّرتها منه، وقالت إنَّ عالمه سيخنقها. همَّه اقتناص الفرص الاستثماريَّة للوصول إلى السُلطة. لم تُعِر مهيبة كلماتها أيّ أهمّيَّة. وعزتها إلى التسرُّع والكبرياء. صارت حياتها الآن ملكًا لوحيد.

لم يستطع وحيد، بعد الخطوبة، أن يختلي بها ولو دقيقةً واحدة. وحين دعاها إلى تناول البيتزا في مطعم قريب، أتت متأبِّطة ذراع أمّها. ولمَّا ذهبا لشراء الثياب، كانت عمَّتها تثرثر من دون هوادة. ضاق ذرعًا بهذا الوضع، وأعلن أمام أبيها: «ما بدي مرافقين بقا! لازم نكون وحدنا»، فاقترحت أمُّها أن يعقدا قرانهما وأن يتمّ تأجيل العرس. لم يتدخَّل إخوتها في الأمر، ما عدا سليمان الذي نصح مهيبة بالتريُّث حتَّى تتعرَّف إليه عن كثب، ولم يَرَ حرجًا في خروجها معه وحدها إلى الأماكن العامَّة. جفلت حينها أمّه معلِّقة بأنَّه سيجعل سمعة أخته لُقمة سائغة في أفواه الناس. واستدارت نحو زوجها قائلة بحزم: «تسمعش لسليمان. لازم يكتبوا الكتاب، يعني لازم يكتبوه! هيك أريح للكلّ».

عقد الشيخ قرانهما يوم الخميس، وسُجِّل بعده زواجهما في المحكمة الدرزيَّة في بعقلين. صارا يمضيان الوقت وحيدين بعيدًا عن الأهل، يتحاشيان حتَّى رفقة الأصحاب. يغمرها بزنديه وتلقي برأسها على صدره. وما إن يهمّ بتقبيلها حتَّى تبتعد عنه. تنهره بدلال. يطمئنّ. يريدها هكذا. يفكِّر في أنَّ حياته تسير بثبات نحو الصُّورة المرسومة في رأسه. يشرح لها تفاصيل تلك الصُّورة بلا ملل، بدءًا بالبيوت التي سيشتريها في باريس وبيروت ومارِبيا، وانتهاءً بالنفوذ الاجتماعيّ الذي سيحصل عليه من خلال وظيفته كمدير لواحدة من أهمّ شركات المقاولات في لبنان. ستصبح سيِّدة صالون من الطراز الأوَّل. ستتعلَّم كيف تتعاطى مع ضيوفه من رجال الأعمال المعروفين وسيِّداتهم، وكيف تحضِّر الحفلات، وأيّ نوع من الوجبات تقدِّم لكلّ مناسبة.

على الرَّغم من تفاؤله بالزواج منها، فإنَّه كان يحاول أن يُخفي ضِيقه من تواضعها وانعدام طموحها. لا يعجبه أن ترفع الكلفة بينها وبين البستانيّ. تتحدَّث مع خادمة مثل ظمياء كأنَّها أختها أو صديقتها. يقول لها بانزعاج: «إنت طيِّبة زيادة عن اللُّزوم». ويذكِّرها بأنَّها تحمل اسمه الآن. عليها أن تحافظ على مستواه الاجتماعيّ. لا يتساوى الناس في قاموسه. بالمساواة، تعمّ الفوضى وتقلّ البركة. تدعم أمُّها آراءه، وتعيد على مسمعها انتقادات أبي توفيق لابنته حين تأخذ ظمياء إلى السوق للتفسُّح أو تُعفيها من العمل يوم الأحد، وكيف يتجهَّم قائلًا: «شو هيِّي الملكة إليزابيت؟ قاعدين هيِّي وتوفيق يعبُّوا براسن للصانعات. شو مش عم تاخد معاشا؟» وتنصحها بألَّا تنزل إلى مستوى الخادمة، كما تفعل أمل.

تُؤثِر مهيبة الصمت خوفًا من أن يعتبرها وحيد غبيَّة. ليس لديها علمه وتجاربه. قد يكون على حقّ. ومع ذلك، يتسلَّل الخوف إلى قلبها حين يرسم لها تفاصيل تحرُّكاتها ويخاطبها كما لو كانت طفلة. هذا ما حدث لها لحظة استدار إليها قائلًا بلؤم: «عمهلك، لَيش كلّ هالعواطف!» وكان يشير إلى دموعها التي ترقرقت في عينيها وهي ترى عشرات الأطفال والنساء والشباب جثثًا معروضة على شاشة التلفزيون. منها المخضَّبة بالدَّم ومنها المكفَّنة بغطاء. كانت الأجساد ممدَّدة على تراب مخيمَي صبرا وشاتيلا. قال لها: «يا مهيبة، ما في حدا بيستاهل هالدموع. إنتِ اهتمّي بحالك وببيتك واتركيهن يقبَعوا شوكُن بإيدَيُن!». وراحت تلعن إسرائيل وأعوانها، فَعَلا صوته باستياء، قائلًا إنَّ المرونة في المواقف واجبة. البرودة صفة المتعمِّقين في أمور السياسة. والترفُّع يجب أن يطعّم تعابيرها، فلا

تتعصّب لرأي أو تدافع عن قضية. وأخبرها بأنّ بيته في ريو دي جنيرو ملتقًى للجميع. يستمع إلى كلّ الجهات، ويهيّئ جوًّا مريحًا لضيوفه من رجال الأعمال المتضاربين في مواقفهم السياسيّة. فعليه أن يسهّل لهم استثمار الأموال. ولو ناقش آراءهم السياسيّة لَما صارت شركته تنافس أقدم الشركات في البرازيل وأهمّها.

لم تَنَم جيّدًا تلك اللّيلة. مزيج الاستخفاف والقسوة في كلماته كان كافيًا لإيقاظ حيرتها. حين خابرها بالتليفون في اليوم التالي، قالت له إنّها متعبة ولن تذهب معه إلى عيد ميلاد صديقه. ففهم أنّها ممتعضة من ملاحظاته لها أمس. لام نفسه لأنّه نسي كم هي صغيرة وعاطفيّة، واستقلّ سيّارته وذهب فورًا إلى بيتها. دلّه سليمان على مكانها ونظرة الاشمئزاز بادية على وجهه. وجدها على السّطح تصفُّ حبّات التين الأسود، المقسومة نصفين، على قماش أبيض. انحنى وقبّل يدها، وهمس قائلًا: «بعرف إنّك زعلانة منّي. كان كلامي مش بمحلّه. حقّك عليّي. يالله فرجيني سنانك». ضحكت. انغرزت نظرتها في شعره الكستنائيّ المتماوج وشفتيه العذبتين. بدا لها أشدّ حلاوة من الألباب الحمراء والبذور الشقراء في عمق حبّة التّين.

• • •

كانت تنتظر، في أيّار، رجوع وحيد من البرازيل بفارغ الصّبر كي يتزوّجا. كانت مليئة بالأحلام، لكن كثيرًا ما تغيّر الأحلام سيرَها أو تخلع قشرتها الأولى لتُظهر لُبًّا أكثر بهاءً وقوّة. وقد تجرف الخيبة هذه الأحلام، هي وبذورها، وتطمرها، عندها تختنق المادّة الأولى التي صُنعت منها، ولا يعود سهلًا الإتيان بأحلام أخرى.

كان أهالي دار شمس يستقبلون نيسان حين ذاع خبر موت وحيد القنطار غرقًا في ساحل العاج. كان في زيارة لصديق له، جرفهما التيّار في منطقة أسيني وهما يسبحان. نجا صديقه ومات هو. لحظة تلقّت مهيبة الخبر قالت: «غرِق»، وسقطت أرضًا. بدأت ترتجف بشدّة بعد استعادة وعيها، وتولول مردّدة: «لاء». خاف عليها سليمان وأتى إليها بالطبيب فأعطاها مهدّئًا للأعصاب. ولم يترك غرفتها حتّى توقّفت عن الصُّراخ ونامت.

فتحت عينيها عند السّاعة الحادية عشرة ليلًا. سحبت نَفسها من تحت الغطاء واستدارت لتشرب الماء من كأس موضوعة على الطاولة إلى

جانب سريرها. رأت قربها منديلًا من الحرير الأبيض. لا بدَّ من أنَّ أمَّها أتت به لتلبسه غدًا حدادًا على وحيد. هكذا هي أمّها، دائمًا جاهزة لكلّ طقس، لا تستحوذ المصائب على تفكيرها ولا تَحوُّل الفرح إلى ترح. مرَّت بأصابعها على المنديل فتذكَّرت حلمها الغريب اللَّيلة الفائتة. رأت نفسها في دير القمر تمشي في القيصريَّة لابسةً رداءً من الحرير الأبيض البرَّاق. كانت تشعر به يزداد ثقلًا على جسمها، وضيقًا ولمَّاعًا. لم تعد تَرَ سوى خيوطه الباهرة المترقرقة كالماء تضمّها. كلّ خيط كان يشدّ على جلدها. شعرت بنفسها تجمد. حتَّى المشي تعذَّر عليها، فاستيقظت من نومها مرتعبة.

حامت أفكارها حول جهجاه المخمَّن، بل تسمَّر خيالها أمام دود القزّ التي كانت زوجته الديريَّة تعتني بها. تحتضن في صدرها بذورها الكهرمانيَّة اللَّون. تضعها في كيس صغير يرتفع ويهبط مع أنفاسها. تنبثق أمام ناظريها صغارُ الدّود وتتحرَّك. يهدهدها دفء جسمها. تولد الديدان لا تبصر، ولا تعرف سوى صوتها. تأكل بنهم أوراق التوت التي تفرمها لها. يتضاعف جسم الدُّودة، وتكبر بسرعة. تتقشَّف بعدها وتصوم. تنفض عنها جسمها القديم. تنسج خيوطها البرَّاقة من لعابها الشفّاف. يلتفّ ما في داخلها جدارًا بيضاويًا حول نفسها. تتصلَّب خيوطها الواهية في الهواء. إن أرادت الدودة العذراء أن تقدّم أقصى ما عندها من جمال، فلن تخرج من شرنقتها. لن تصبح فراشة. ستترك يد الشمس تخنقها قبل أن يمسَّها ذَكَر. ستموت لتعيش بطريقة أخرى. ستصل خيوطها إلى الكمال، متَّحدة ناصعة كوردة البرقوق البيضاء.

• • •

كان الجميع ينتظر وصول جثمان وحيد ليرقد في مدافن العائلة في رأس الجاموس. أمضى نعيم وسامية معظم اللَّيل يواسيان أسرة وحيد ويفكّران في المحنة التي ألمَّت بابنتهما. سمعا طَرْقًا خفيفًا على الباب عند السَّاعة الخامسة صباحًا، قبل أن يخلدا إلى النوم. تلافى الطارق استعمال جرس الكهرباء كيلا يوقظ النائمين. وجد نعيم ظمياء عند الباب. سُرَّ لرؤيتها وطلب منها أن تخفِّف عن ابنته.

جلست على حافَّة سرير مهيبة ومرَّرت يدَها على رأسها فاستيقظت، وانهمرت دموعها بصمت حين رأتها. بدت قسمات وجهها المنتفخة مغسولة بالألم. حضنتها ظمياء قائلة: «ابكي يا سَنَدي بترتاحي». سيترك موت أوَّل رجل أحبَّته جروحًا عميقة في نفسها، همست بحزن، وحضور مأتمه بعد ساعات سيكون قاسيًا. خلعت عقدها الفضّي من حول

عنقها. تدلّت منه أيقونة عليها رسم مريم العذراء، تتّشح بغطاء أسود مرصّع بنطع ذهبيّة اللّون. مدّت العقد وقالت: «إيني ما خلقتش نصرانيّة عاد لكن صاير معي شغلات خلّتني استعقد فيها. هاذي أم الرّحمة، رح توقّف معك بمحنتك». فوجئت مهيبة بكلماتها وأخذته.

أجلست سامية ابنتها بعيدًا عن جثمانه في الفيلّا التي اشتراها وحيد لوالديه قبيل وفاته. نظرت إحدى قريباته إليها بغيظ، وأخذت مهيبة من يدها وأجلستها قربه فلحقت بها. كان وجهه محاطًا بالورود البيضاء والبنفسجيّة. بدا لمهيبة كأنّه شاخ فجأة، واختصر مراحل الحياة وصار كهلًا. أرادت أن تسترجع محيّاه الجذّاب وصوته القاهر فلم تستطع. ابتدأت ترتجف وتشعر بالغثيان. أخرجت الأيقونة من جيب سترتها ووضعتها في قبضة يدها، وتركت السلسلة الفضّيّة تلتفّ على أصابعها. قالت بصوت مخنوق: «ساعديني يا مريم، يا سيّدة الأحزان، صلّي لأجلي ولأجل وحيد الذي أصبح بين يدَي الربّ». اعتقد الجميع أنّ السلسلة هدية من وحيد، ولم يتأكّد أحد ممّا تمتمت به سوى أمّها الجالسة قربها. كانت تنتظر انقضاء السّاعة بفارغ الصّبر لتطلب من سليمان أن يُرجعها إلى البيت قبل أن تتفوّه بأيّ صلاة مسيحيّة أخرى.

جاءت أمل بعد يومين إلى بيتها لتتفقّد أحوالها. رأتها تنظر إلى الفراغ وسط المعزيات. أمسكت بمعصمها وقالت: «لازم تفكّري بحالك لأنّ الحيّ أبقى من الميّت. إنتِ بأوّل شبابك والحياة قدّامك». لم يكن لهذه النصيحة وقعٌ جيّد في نفسها، هي التي ستعشق وحيدًا حتّى بعد أن أصبحت شفتاه بطعم الملح، وضمّ البحرُ أنفاسَه الأخيرة. أشاحت بوجهها عنها، ونظرت نحو ابنة خالها التي دفعت بفنجان قهوة في يد أمل.

أتى وفد من النساء من غريفة للقيام بواجب العزاء. سألت النسوةُ سامية عن ظروف وفاته، فعرضت ما تعرف من تفاصيل. سمعتها كلّها مهيبة عشرات المرّات. غرق وحيد وسبح صديقه شوقي إلى اليابسة، فنجا من التيّار وعاش. رفعت امرأة رأسها وقالت بصوت جهوريّ:

ـ رحمتك يا رب! هوّ بيغرق وهيداك بيخلّص!

ـ متل ما عم قلّك.

ـ سبحانه بملكه ربّنا!

ـ الشّيخ فوزي هوّ اللّي خبرنا شو صار.

ـ شو عرّفه الشّيخ فوزي؟

ـ ابن خيّه عايش بأبيدجان. كان قبل بليلة سهران مع وحيد وشوقي. كان عم يحاجُه.

ـ مين ومين عمَ يتحاجج؟

ـ ابن خيّه للشيخ فوزي كان زعلان من شوقي.

ـ على شو؟

ـ هيدا شيوعي. قاعد يتمقلس عالدّين. قال أفهش اللّـه. قال اللّـه قلّة عقل!

ـ إي هيك!

ـ صار يجرّب يقنعه بوجود اللّـه بس ما قدرش!

ـ إي خود!

ـ غرِق وحيد وعاش هيدا الكافر!

همهمت النساء، وعلّقت أمل باستياء، موجّهة حديثها إلى سامية:

ـ لو كان الشّيخ فوزي رجل تقي عن جد كان بيقول هيدي حكمة ربّنا.

ـ الشّيخ ما بيألّف من عنده! هيدا اللّي صار.

ـ ما كنّا مغن لنعرف شو صار.

ـ ما لازم تزعلي من كلمة الحقّ يا أمل.

ـ كلمة الحقّ؟ إي صحيح. الحقّ إنّه الشّيخ فوزي ما نفع حدا بإيمانه!

ـ شو هالحكي يا أمل؟

ـ يعني لازم يموت صاحبه للمرحوم لحتّى ينبسط؟

شعرت بنظرات سامية الغاضبة تقفز من وجهها. نظرت إلى ساعتها، ثمّ ودّعت مهيبة وخرجت. قالت سامية لابنتها بصوت خافت: «البلي يسترا ستر على هالوقاحة! بتقطش وبتشلح. اسمعوا هالحكيات».

تحدّث الناس طويلًا عن وفاة وحيد وحكمة اللّـه في إماتته غرقًا وإبقاء رفيقه الكافر حيًا. تضاربت الآراء وتقلّبت بين الباعة في السوق وسائقي سيّارات الأجرة في السرايا. وحده النهر احتفى بنيسان غير آبه بالشكوك، جارفًا في حلقات مياهه تساؤلاتِ الناس وتأويلاتهم. وبدا القندول الأصفر المترامي حوله مأخوذًا بنفسه. مَن يذهبْ إلى النهر يَرَه ماضيًا بوقار نحو بقاع أخرى، يلتمس رذاذ الشمس، ومنبسطًا أمام النساء اللّواتي خرجن إلى الأحراج مع سكاكينهنّ الحادّة بحثًا عن العكّوب

والهندباء والقرصعنة.

• • •

كان الحنين إلى دير القمر، في الشهور الأولى التي تلت وفاة وحيد، ينمو داخل مهيبة كالعشب البرّيّ تحت سماء نديّة. أمضت عشر سنوات كاملة هناك منذ أن كانت في الخامسة من عمرها. آلاف الأيّام خبرتها وهي في مدرسة مار يوسف للظهور. ومئات السّاعات أمضتها في أحراجها ونواديها وكنائسها. لم يكن أهالي دار شمس ليستغنوا عن دير القمر، فهي على مرمى حجر منهم، وبَناتهم يكتسبن على أيدي راهباتها أفضل علم وأحسن أدب. حتّى الحرب الأهليّة التي اندلعت سنة ١٩٧٥، لم تكن سببًا كافيًا لإخراج مهيبة من مدرسة الراهبات، ربّما لأنّ العلاقات بين البلدتين، الأولى درزيّة والثانية مسيحيّة، لم تكن قد تدهورت بعدُ. ولم تُجبَر التلميذات الدرزيّات على المشاركة في الحصص المخصصة للصلاة ودراسة الإنجيل. وعلى الرّغم من ذلك، فإنّ سلوك الكثيرات منهنّ انطبع بالتعاليم المسيحيّة.

بادرت مهيبة، البالغة من العمر خمسة عشر عامًا، أفراد عائلتها وهي تتناول العشاء معهم، في إحدى الأمسيات، قائلة: «أوّل شي بدّي صلّي». وأغمضت عينيها وأكملت: «أبانا الذي في السّماوات ليتقدّس اسمك. يأكل البائسون ويشبعون ويسبّحون الربّ الذي يلتمسونه وتحيا قلوبهم إلى الأبد». وصلّبت وبدأت تأكل بينما عيون أبيها وأمها وإخوتها شاخصة إليها. سألتها سامية: «مين علّمك تصلّي؟» أجابت: «ما حدا. هيك بتصلّي ماسير جورجيت وصاحباتي. بيقولوا هالكلمات قبل ما ياكلوا. هيك لازم نصلّي ليبارك المسيح أكلنا. المسيح هو ربّنا».

لم تُجب سامية بكلمة، وأومأت إلى نعيم بعد العشاء كي يأتي إلى الغرفة لتتكلّم معه بعيدًا عن الأولاد. ناشدته أن ينقل مهيبة فورًا من مدرسة الراهبات إلى مدرسة في دار شمس أو بعقلين، فأجاب:

ـ يا مرا، طوّلي بالك.

ـ كيف بدّي طوّل بالي؟

ـ البنت بسنة البريفيه، وهيدي المرحلة صعبة.

ـ يقطع البريفيه! ما بدّي إخسر البنت.

ـ ما بيجوز تغيّريلها المدرسة بنص السّنة!

ـ لا، لازم ننقلا!

ـ انطري شوي لحتّى تصير بصفّ الخامس تكميلي. لشو العجلة؟

ـ قلتلك هلّق لازم تنقلا، وإلّا البنت رح تعمل مسيحيّة!

ـ لَه!

ـ ما سمعتاش شو عم تقول؟ شو بدّك؟ ندير دَينة الطرشة أو نقعد أنا وإنت نصلّب متلها!

هكذا تركت مهيبة دير القمر بلا تمهيدات. تركتها بعد أربع سنوات من اندلاع الحرب الأهليّة. كانت سامية خائفة على ابنتها وعلى نفسها من لوم الناس. سيقولون إنّها رأت ابنتها تميل إلى المسيحيّة ولم تفعل شيئًا لتنهيها عن ذلك. وحالما علمت بأنّ مدرسة الشوف الوطنيّة ستستقبل مهيبة، لم تسمح لها بقضاء يوم واحد في دير القمر. لم تدعها تودّع زميلاتها أو الراهبة جورجيت التي كانت شديدة التعلّق بها. ولم تشأ أن تسألها أيُّ واحدة منهنّ عن سبب خروجها المفاجئ من المدرسة. ذهب نعيم بنفسه وطلب نسخة عن علاماتها، وأتى بالدفاتر التي كانت في طبقتها. وحدها الرّاهبة جورجيت أدركت سبب انقطاع مهيبة عن المدرسة. فلا بدّ من أنّ أفراد عائلتها انتبهوا لمدى تأثُّرها بالتعاليم المسيحيّة. كانت مهيبة فضلى تلميذاتها وأكثرهن رغبة في التقرُّب إلى اللّه. ودفعتها علاقتها الحميمة بها إلى تخطّي المحظورات فيما يتعلّق بإعطائها دروسًا في الإنجيل.

انسلخت مهيبة عن دير القمر بأسًى عميق. بكت وتوسّلت إلى أمّها أن تدعها تتكلّم بالتليفون، مع الراهبة جورجيت، ومع نايلة وماري صديقتَي طفولتها. تظاهرت سامية بالقبول. وقالت إنّها ستنزل عند طلبها بعد أن تراها تأقلمت مع جوّ مدرستها الجديدة، فتوقّفت عن البكاء والتحسُّر على تركها ديرَ القمر. حاولت أن تشغلها بتزيين مظهرها وحضور پارتيات ابنة جارتها المتفرنجة بعد أن كانت تمنعها من التحدُّث إليها.

كان انقطاعها عن دير القمر منعطفًا أساسيًّا في حياتها. تبعثرت ذكرياتها على حين غرّة. أُبعدت عن صديقاتها وأُوقفت عن صلاتها المسيحيّة. لم تعد تصطحب أباها إلى سوق البلدة لشراء الزّمان أو خبز القربان، أو حتّى تناول البوظة. وفي المرّات القليلة التي يعبر طرقاتها بسيّارته، كانت تُلصق رأسها بالشبّاك لعلّها تلمح أحدًا تعرفه. تنظر إلى الصُّور الخاطفة لأهاليها وحجارة بيوتها. تحزن على نفسها وتتساءل إذا كان أحد منهم قد شعر بغيابها. تتذكّر حكايا الكواكب وآلهة الوثنيّين التي كان والد نايلة يرويها. وتتراءى لها صورة قمر منقوش على حجر وفوقه

صليب.

• • •

سيطرت الرَّغبة على مهيبة في الذهاب إلى كنيسة سيِّدة التلّة في دير القمر وزيارة المدرسة بعد بضعة شهور على وفاة وحيد. ومع ذلك، كانت خائفة من رؤية الرَّاهبة جورجيت. راحت تتساءل إذا كانت عاتبة عليها لأنَّها لم تَثُر على رغبة أهلها ولم تحاول الاتِّصال بها. والآن، بعد اشتعال الحرب الأهليَّة، كيف ستجدِّد أواصر المحبَّة بينهما؟ ستدخل في صراع طويل مع عائلتها، وستقف لها أمُّها بالمرصاد. تركها موت وحيد مكسورة لا تقوى على مثل هذه المواجهات.

وكان لها ما أرادت يوم أتت نجوى، إحدى قريباتها، لتأخذها إلى نبعة عين حزَور، فأحسَّت بأنَّ الفرصة قد حانت لتحقيق ما تصبو إليه. جلست قربها وهي تقود سيَّارتها في اتِّجاه بعقلين، وأعلنت من دون مقدِّمات:

ـ ما بدّي روح على عين حزَور.

ـ كيف؟

ـ خديني على دير القمر!

ـ دير القمر؟ دخيلك لأ. ما تعلّقيني مع إمّك!

ـ لازم روح يا نجوى.

ـ ما قلناش لحدا. الأحوال مش نضيفة، والمسيحيَّة فايعين!

ـ إذا ما أخدتيني رح وقِّف تاكسي بآخر الضيعة وروح وحدي.

ـ شو صرلك يا عمّي؟

ـ الكلّ عم بيروح وبيجي على دير القمر.

ـ انسِيا لدير القمر!

ـ عم تعملي من الحبَّة قبَّة.

وصلتا إلى سوق دير القمر، فأشارت مهيبة إليها كي تخفِّف سيرها لتسلك طريقًا فرعيًا إلى اليمين. سارت السيَّارة صعودًا في اتِّجاه مدرسة مار يوسف للظهور. وولجت بعد دقائق حيًا صغيرًا اختلطت فيه البيوت الحديثة بمنازل الحجر القديمة ذات الأباجورات الحمراء والزرقاء. وانحدرت نزولًا حتَّى آخر الحي الذي انتهى بباحة المدرسة.

كانت الباحة خالية إلَّا من كلبة مُرضعة استدارت لتنظر إلى السيَّارة

وهي تقترب، فانبطحت أرضًا وأغمضت عينيها. خفضت مهيبة شبّاك السيّارة وتسمّرت في مكانها. حدّقت في أثداء الكلبة الزهريّة النّافرة وفكّرت في صغارها، لكنّها لم تجد لها أثرًا. نقلت نظرها إلى بوّابة المدرسة الموصَدة. حثّتها نجوى على الخروج من السيّارة كي تُنهي زيارتها بسرعة. مشت بخطوات بطيئة ونجوى وراءها، ونقرت بيدها على الزُّجاج المحجّر للبوّابة. بدت كمن طغى تردُّدها على حنينها.

فتحت الباب بعد دقائق راهبةٌ فتيّة. تأهلّت بهما وسألتهما عن غايتهما. قالت مهيبة إنّها تريد رؤية معلّمتها، ماسير جورجيت فغالي. ابتسمت ودعتها إلى الدُّخول. أرادت نجوى أن تختصر الزيارة فقالت: «لا. معليش. نحنا مستعجلين. وإنتو بعطلة كمان. حبّت مهيبة تشوف المدام جور... قصدي تانت جورجي... ات. هيْي هون؟» وعلى الرّغم من توتُّرها أو بسببه، فإنّ مهيبة لم تتمالك نفسها من الضحك لسماع «تانت جورجي»، وشاركتها الرّاهبة في الضّحك، وقالت:

ـ الأخت جورجيت تركت المدرسة من سنتين. التحقت بمدرسة راهبات دير الأحمر.

ـ عندك نمرة تلفون لإلها وللمدرسة؟ بدّي...

ـ يا بنتي، شو اسمك؟

ـ مهيبة كمال الدين.

ـ تشرّفنا. الأخت جورجيت راحت على روما.

ـ روما؟

ـ إي. بدا تتخصّص بالعلوم اللّاهوتيّة والرُّوحيّة. رح تشارك كمان بمؤتمر الفاتيكان.

ـ قدّيش رح تبقى؟

ـ شي ثلاث أو أربع سنين.

دارت ابتسامة حزينة على تقاسيم وجه مهيبة. لم تستطع نجوى أن تُخفي ارتياحها، وأومأت برأسها في اتّجاه المدخل، وهي تخطو نحو السيّارة.كانت مهيبة والكلبة تنظران الواحدة إلى الأخرى. بدتا محتارتين ومتعبتين. هل ما شعرث به كان خيبةً أم تسليمًا؟ تعذّر عليها لقاء الراهبة جورجيت، وباتت الاستجارة بها، وهي في روما، مستحيلةً. لماذا اعتراها، إذن، بعض الارتياح كأنّ الأقدار حسمت لها أمرها؟ التحوُّل عن دين عائلتها سيقتلع آخر جذور السّلام في نفسها، الآن والبلاد بين فكّي الاحتلال

الإسرائيلي والتقاتل الطائفي. لو كانت الرّاهبة جورجيت هنا لساعدتها على تحمُّل القطيعة بينها وبين دار شمس بعد أن تعتنق المسيحيَّة. كانت ستحميها من التصاغر أمام مفردات المعصية والارتداد وتحرّرها من الشعور بالذّنب تجاه مشاعر الذلّ والغضب والعذاب التي ستتحمّلها أمّها وأبوها وإخوتها. لكن في غيابها، بات انتقالها إلى المجتمع المسيحي صعبًا. إلّا أنَّ حياة أخرى، مشابهة لتلك التي تريدها، لاحت من بعيد. بدت أكثر ملاءَمةً لظروفها.

حين وصلت السيّارة إلى سوق دير القمر كان الضباب قد ابتدأ يتوالد ويرتفع من الأودية. طلبت من نجوى أن تتركها على مقربة من ساحة الميدان، فاستدارت نجوى ممتعضة وسألت:

ـ وهلّق شو في؟

ـ إنتِ اقعدي هون بهيدي القهوة واتركيني روح على كنيسة سيّدة التلّة. ما بطوّل.

ـ كنيسة شو؟ ليك هالعلقة إسا!

ـ قلتلك رايحة على الكنيسة. يعني رايحة!

تَصلَّب صوتها وعلا. لم تَرَ نجوى فيها هذه القوَّة من قبل. علَّقت قائلة: «أنا فعلًا حابّة أشرب عصير. نشّفتيلي ريقي!».

كانت الشمس قد رقّت تاركة ظلالًا زهريَّة على بلاط الكنيسة المقصوب. سَعَف النخيل لم يهتزّ كأنَّ الهواء المثقل بالنّدى كبّله. اشتدَّ الضَّباب، فبانت التلال خطوطًا متعرّجة. لم تجد أحدًا في الكنيسة. الحيطان المثبّتة بحجر الصخر المعقود تقاذفت وقع مشيتها. وارتفع الصّليب أمام منصَّة رخاميَّة بيضاء. واحتجبت النوافذ الجانبيَّة العالية بغطاء فضّيّ، كأنَّ الضَّباب والنور يتصارعان للدُّخول إلى قلب المكان. نَحَتْ يسارًا نحو غرفة معتمة. اقتربت من المذبح حيث جلست صورة العذراء وطفلها يسوع. ركعت وتضرَّعت بصوت متهدّج: «السَّلام عليك يا مريم، يا ممتلئة نعمة. الرَّب معك. مباركة أنت في النساء ومباركة ثمرة بطنك يسوع. يا مريم القديسة، صلّي لأجلنا نحن الخَطأة، الآن وفي ساعة موتنا، آمين». ومسحت دمعتها وهمست لنفسها بأنَّ الرَّب واحد ولو اختلفت أسماؤه، وكلّ خلوة وقِبلة ستودي إلى مريم، سرّ هذا الكون.

انبثقت نجواها كأنَّها تعبير عفويّ عن حنينها إلى الرَّاهبة جورجيت، وحنقها على أمّها التي سلختها عن دير القمر، ووفائها لوحيد. سيطرت

عليها رغبتها في التنسُّك. مَن رآها منذ تسعة أشهر لوجدها سعيدة بالحبّ وراضية بالزواج وبكلّ ما في الدُّنيا من رغبات وأمنيات. لكنَّ الأمور انقلبت رأسًا على عقب.

نظرت نحو المقاعد الخشبيَّة، فرأت شابًّا يرميها بنظرة متمعِّنة. مشت إلى البهو وأشعلت شمعة لروح وحيد. سمعت وقع قدمَي الشاب تبتعدان. بدت إلى يسارها صورة بالأسود والأبيض للقدّيسة رَفْقا تبدو كأنَّها انتُزعت من الصورة الأصليَّة ذاتها. لم تَرَ فيها ملامح امرأة. كانت تبدو كصبيّ وسيم غامض العينين، يتَّشح بالسَّواد. عيناه شبه مطبقتين كأنَّه يحاول أن ينام. في وجهه ألم مسالم ووحدة. فتيات كالصبيان وصبيان كالفتيات حملوا وحدتهم وآلامهم وأودعوها في الكنائس والخلوات والتكيَّات. نساء صرن رجالًا وهنَّ يقلِّدن أجساد الزهَّاد وينتظرن الشُّعيرات التي ستنبت في ذقونهنّ يومًا ما.

أخذت كتيِّبًا عن حياة القدّيسة رَفقا. ما إن همَّت بفتحه حتَّى سمعت رشقات أعيرة ناريَّة تأتي من الشارع العامّ. تسمَّرت في مكانها وأصغت. انطلقت أناشيد من مذياع والتهمت صدى الرَّصاص. فكَّرت في أنَّ نجوى ستكون الآن مرتعبة وستكيل لها الشتائم. تركت الكنيسة بسرعة وبدأت تركض حتَّى وصلت إلى الطريق العامّ، فرأت الناس محتشدين على جانبيه. موكب من المقاتلين رفع الكلاشينكوفات وهتف باسم لبنان ونمور الأحرار. سار خلفه شابَّان يحملان صورة شهيد مكلَّلة بالورود، تلتهما الجيباتُ العسكريَّة والسيَّارات. في الشعارات مطرقة، قلم، ريشة. دائرة، مثلَّثٌ لأرزة خرديَّة. الأرزة غارقة في بحيرة دماء. على أعلام أعدائهم ارتسم مثلَّث أبيض، مطرقة، ريشة. دائرة مخنوقة بحبل أحمر. على الرَّغم من الموت المتبادل بينهم، فقد احتفلوا بوحدة الرُّوح والجسد والعقل، بثالوث الوثنيِّين.

عبرت بين السيَّارات على عجل ورأسها مُنحنٍ، ثمَّ أكملت سيرها في اتِّجاه المقهى وقلبها يخفق بسرعة. رأت نجوى تدخل سيَّارتها فلحقت بها. انفجرت في وجهها:

ـ انبسطتْ ست مهيبة!

ـ خلص، روقي.

ـ الدّني قايمة قاعدة!

ـ إذا ضلّيتِ تصرخي هيك، رح تلفتي النَّظر.

ـ أنا؟ ما كنتيش تقبلي إلّا تروحي عكنيسة البطيخ!

ـ يا عمّي منشان اللّه سِدّيه لبوزك!

ابتدأ الرّصاص يلعلع من جديد. ضغطت نجوى بيديها على أذنيها، وهمست بوجل: «وِلِك حزب الأحرار رايحلن شهيد. قتلوه جماعتنا! يا ويلي!». تمالكت مهيبة نفسها وقالت: «كيف عرفتِ؟» أجابت بأنّها سمعت صاحب المقهى يقول لأحد الزبائن إنّ الشاب خُطفَ منذ شهر بالقرب من كفرشيما، وقتله مسؤولٌ في الحزب الاشتراكيّ في الشويفات.

انتظرت مهيبة مرور الموكب بقلق متزايد. خيّم استسلام مقيت على صدرها، كأنّ الحرب النائمة بين دار شمس ودير القمر استفاقت ولدغتها كحيّة سامّة. أدارت نجوى السيّارة بعد أن ابتعد الموكب وانطلقت مسرعة. نظرت مهيبة إلى الكتيّب الذي بين يديها بانكسار. تآمرت البلدتان عليها في هذه اللّحظة. اليوم أيضًا، خرجت من دير القمر هربًا. خرجت من دار طفولتها ودار إيمانها كمجرمة. انحدرت دمعة على خدّها.

نظرت إلى صورة القدّيسة رَفقا. يُحكى أنّها خلّصت صبيًا مسيحيًا من الموت في حوادث سنة ١٨٦٠, التي هجم فيها الدروز على دير القمر. اختبأ في طيّات ردائها. لم يَرَه أحد منهم. كانت الرّاهبة جورجيت تقول إنّ رَفقا تاقت إلى الرُّجوع بالزّمن إلى لحظة الصّلب، إلى صُورة المسيح معلّقًا على خشبة بإرادة من نفسه. تأخذ نسخًا لامتناهية عن تلك اللّحظة كأنّ قلبها كامارا أوبسكورا. تضرّعت كي يُشركها المسيح في آلامه الخلاصيّة. هل استجاب لدعائها حين استفحل المرض في عينها اليمنى؟ قالت للطبيب الذي تولّى معالجتها إنّها لن تأخذ مسكّنات أو بنجًا. وخلال العمليّة التي أجراها لها، ارتكب خطأ فادحًا أدّى إلى اقتلاعها. هلّلت للآلام ولامتداد الدّاء إلى العين اليسرى. استمرّت أوجاعها قرابة اثنتي عشرة سنة حتّى وافتها المنيّة.

• • •

اندلعت حرب الجبل بعد سنة من وفاة وحيد لتطال قرى درزيّة ومسيحيّة جديدة. اتّسعت رقعة الحرب لتشمل ضواحي بيروت. نجت دير القمر هذه المرّة من التهجير والتدمير، لكنّ الهوّة بينها وبين دار شمس كبرت. لم تعد مهيبة إلى الكنيسة ولا إلى دير القمر بعد ذلك اليوم. كانت هذه الرحلة أشبه بالوداع الأخير الذي لم يتسنّ لها أن تقوم به وهي في الخامسة عشرة من عمرها. أعلنت عن رغبتها في سلوك طريق أهل

العرفان. دعتها الست سارة إلى قراءة الرسائل التمهيديَّة في كتاب الحكمة. ومع ذلك، لم تسمح لها بأن تعلن عن جودتها. «ليش؟» سألتها مهيبة. أجابتها: «بعد بكُير. فكّري على مهل. يمكن تغيري رأيك».

كانت بعد سنة أكثر تمسُّكًا بقرارها. أضفى عليها خبرُ اعتناقها طريق أهل العرفان احترامًا كبيرًا بين الناس. كان احترامًا يختلف عمَّا يكنّه الناس للست سارة. رأوا بما فعلته تضحية كبيرة وسموًّا؛ السُموّ الذي يأتي من خدمة اللّـه وخدمة الست سارة. قالت نساء دار شمس إنَّها لم تتمتَّع بشبابها ولا تنعَّمت بجمالها وصيت عائلتها الرَّفيع. لاح لمهيبة أملٌ غريب بالمستقبل. ستسعى كي تنال مناها من رؤى إلهيَّة أو كرامات مثل الست سارة والقدّيسة رَفقا. ستبذل وسعها في العبادة والفقر وعمل الخير، وستُؤجَر على صبرها.

كانت نور تستعدّ، في حزيران، لحضور مأدبة غداء في پنتهاوس الرئيس نصوح المطلّ على الملعب البلدي في دار شمس، فقد اتّبع نصوح تقليدًا، منذ تعيينه رئيسًا لمدرسة الشوف العالية سنة ١٩٨٠، يقضي بإقامة حفل غداء كلّ سنة على شرف المتخرّجات والمتخرّجين من صفوف البكالوريا، القسم الثاني.

أنشأ المدرسة مستر واين ريبلي، وهو عالِم في مقتبل العمر قَدِم من بريطانيا حين كان الصراع على أشدّه بين الفرنسيّين والإنكليز بشأن النفوذ والموارد الاقتصاديّة في أراضي السلطنة العثمانيّة. وساهم في تحويل مبنى مقرّ الاستخبارات الإنكليزيّة إلى واحدة من أهمّ المدارس في المنطقة. كان ذلك في العقد الأوّل من القرن العشرين. ونشر مدراء المدرسة ومعلّماتها حكاياتٍ عن مستر ريبلي أشبه بكرامات الست سارة. وحدّث الفلّاحون أنّ رجلًا نافذًا حاول أن يغريه بالمال ليقنعهم بالعمل في مصنع حرير كان يلفظ أنفاسه الأخيرة أمام نبات التبغ. ردّه مستر ريبلي خائبًا بكلام لطيف وجريء في آن معًا. وأكّدَ له أنّ عمله في دار شمس هو إنساني وأخلاقيّ صرف، وأنّه سيشهّر به إن عرض عليه مثل هذا المال مرّة أخرى. وتناقل الجيل الذي تلا ريبلي من رجال العلم والأدب، أخبارَ سيرته الباهرة، مثل تصدّيه لمؤامرات قناصل فرنسا الدّاعمين لامتيازات الموارنة في جبل لبنان. وذكروا أيضًا سعيه لإقناع سفراء بلاده بضرورة استقبال الدروز في جامعات إنكلترا.

من المشهور عن مستر ريبلي أنّه زار شيخ العقل وعبّر عن رغبته في اعتناق العقيدة الدرزيّة والانضمام إلى العقّال. ، عقد شيخ العقل يومها اجتماعًا طارئًا ضمّ صفوة الأجاويد والشيوخ الكبار. واغتبط الكثير من الجهّال لسماع رغبة ريبلي هذه، وطالب بعضهم بفتح الدّعوة الدرزيّة حالًا لإدخاله إلى طائفتهم. وجزع، في الوقت نفسه، الكثير من العقّال وآثروا الحيطة والحذر، ودعوا مستر ريبلي إلى مجلسهم، فأثنى عليه شيخ العقل، وخاطبه بالفصحى التي كان ضليعًا فيها قائلًا: «إنّ الدّعوة قد أُقفلت يا سيّدي الفاضل الجليل ولا يستطيع المرء أن يصبح درزيًا حتّى لو كان إنسانًا نبيلًا محبًا للدروز، مثلك يا سيّد ريبلي». ورَدِفه الآخرون بالثناء متمتمين، «اللّه يمدّك قدّام الطايفة»، «اللّه يكثّر من أمثالك».

لم يمتعض مستر ريبلي من هذا القرار، بل أظهر احترامه لرأي شيخ

العقل فازداد إعجابهم به. وصارت بعدها الحكايات عنه أشبه بالخوارق، كوقوفه أمام أعضاء مجلس اللُّوردات في قصر وِست مينيستِر وهو يشيدُ على الملأ بمزايا الدُروز النَّادرة، وأوجه الشبه بينهم وبين البروتستانت في إنكلترا.

انصرف إلى تنظيم المواد التعليميَّة في مدرسة الشوف العالية، حين خابت آماله باعتناق مذهب الدروز. وأصدر قرارًا باستخدام اللُّغة الإنكليزيَّة في تدريس الكيمياء والفيزياء والجبر تمهيدًا لدخول خرِّيجيها جامعات بيروت. وباعتراف دانيال بِلس، المبشِّر البروتستانتي الذي أسَّس الجامعة الأميركيَّة، استطاعت مدرسة الشوف العالية أن تنافس أهمَّ المدارس البيروتيَّة. ودخلت بعض تلميذاتها كلِّيَّة بيروت الجامعيَّة للبنات التي أنشأتها سارة سميث، وهي مبشِّرة أميركيَّة تنتمي إلى البعثة المشيخيَّة. ثمَّ حضَّ زملاءه على ترجمة كتب في الطِّب والقانون والفلسفة من الإنكليزيَّة إلى العربيَّة ليستفيد منها أهالي الشَّوف. وعُرف أيضًا بإصراره على تعليم البنات وحفظه تقاليد عائلاتهن، فألبسهنَّ ثيابًا محتشمة، ووضع المناديل البيضاء على رؤوسهنَّ، ونهى عن اختلاطهنَّ بالصبيان في الصُّفوف والملعب. فجلست البنات في المقاعد الأخيرة من الصفِّ والصِّبيانُ أمامهنَّ.

رجع مستر ريبلي إلى بريطانيا في منتصف القرن العشرين وتوفِّي بعدها بقليل. وكان نصوح واحدًا من المعجبين به والمتناقلين لأخباره. وتحدَّث عنه طويلًا، في اليوم الذي احتفى بالمتخرِّجين في بيته، ثمَّ جال بزوَّاره في صالونه الكبير ليُريهم التماثيل الصَّغيرة واللَّوحات والكتب المعروضة، والتي جمعها مستر ريبلي خلال أسفاره، والتي صارت ملكًا للمدرسة. وقام بترداد الأمثال البارعة التي اشتهر بها بنبرة ضاحكة مليئة بالزهوِ. ولم تتغيَّر فقرات هذه المقدَّمة على مرِّ السنوات، ولم تَضِق ضحكة نصوح.

بدأ حديثه بزيارة مستر ريبلي الهند، فأشار إلى تمثال صغير لتاج محل يجلس على أحد رفوف المكتبة الزجاجيَّة. ورأت نور قرب التمثال كاميرا قديمة على شكل حقيبة صغيرة، بانت في أحد جوانبها عدسةُ التَّصوير. وقربها كتاب ذو لون مسكي وعلبة خشبيَّة لم تُغلَق جيِّدًا لكثرة الصُّور المحشورة فيها. استفسرت نور عنهما، فأخبرها نصوح بأنَّ الكتاب هو في الحقيقة مخطوط قديم يشتمل على ملاحظات ريبلي عن طبيعة الحياة في جبل لبنان، ومنطقة الشوف تحديدًا. أمَّا العلبة فتحتوي على

صور التقطها في أثناء إقامته في دار شمس. وانتقل بسرعة بعدها إلى موضوع آخر.

بدأ الطلّاب يغادرون بيت نصوح بعد تناول الغداء شاكرين له حفاوتَه، أمّا نور، فكانت تسترق النَّظر إلى الكاميرا، وتفكّر في المخطوط والعلبة. وتقدّمت منه قائلة: «بقدر شوف الكاميرا، والكتاب القديم؟ شو في بالعلبة؟» ارتبك وأجاب: «قلتلّك هيدا مخطوط قديم. بالعلبة في صور قديمة كمان. بخاف تتخزّق».

لم يشأ أن يُريها العلبة ولا المخطوط. ومع ذلك، كان يسمع على لسان الآخرين أنّ نور متقمّصة وأنّها شُغفت بالكاميرا والتّصوير مذ كانت طفلة، وأتت بهذا الشغف من حياة سابقة. رأى الخيبة تشدّ على أهدابها وتوقظ عينيها الناعستين، فقرّر أن يُخرج لها الكاميرا فقط. كانت ممّا يسمّى كاميرات العلبة كوداك التي توّجت سلسلة من التطوُّرات التقنيّة والكيميائيّة في عالم التّصوير. حقّق تشارلز بينيت تقدُّمًا فريدًا في التّصوير الضوئيّ سنة ١٨٧٨ أدّى إلى زيادة سرعة التّصوير بشكل قياسيّ. واستخدم ألواحًا زجاجيّة مغطّاة بالجيلاتين بدلًا من الكولوديون المبتلّ. وميزة هذه الألواح أنّها كانت جافّة تمامًا، فيجري التّصوير والتظهير في أيّ وقت يشاؤه المصوّر. وظهرت بعد ذلك في الأسواق كاميراتُ الصّندوق متوسّطة الحجم، والتي يسهل حملها باليد. وواحدة منها، كاميرا العلبة كوداك، كانت بحوزة مستر ريبلي.

أرجعت نور الكاميرا إلى الرّف الزجاجيّ، وسألت نصوحًا إذا كانت تستطيع أن تعود في وقت آخر لتتفرّج على الصُّور الموجودة في العلبة وتتصفّح المخطوط. اعتذر بأنّه سيترك دار شمس غدًا، لكنّ رغبتها العارمة في الوصول إلى تلك الصُّور جعلتها تقول إنّها تستطيع أن تأتي في أيّ وقت آخر، فأجاب بضيق: «تعي شوفيها بكرا قبل الضهر، لأنّ بعد الضهر نحنا مش بالبيت». كان همُّها التعرُّفَ إلى الصُّور التي أخذها مستر ريبلي بهذه الكاميرا القديمة المعروفة، واكتشافَ المناظر والأشخاص الذين اهتمّ بتصويرهم في الشوف. وتمنّت أن يكون المخطوط متعلّقًا بالصُّور. ألم تخبرهم مديرة المدرسة، في خطبة حماسيّة، بأنّ مستر ريبلي صحّح الأغلاط الشائعة عن الدروز؟ وقام بمناظرة مع أحد تلامذة المبشّر هنري جيسيب في الجامعة الأميركيّة أمام حشد كبير من الأساتذة والطلّاب ورجال السياسة، إذ وصف الأخير الدروز بالباطنيّة الخطيرة وتعجّب ممّا رآه بينهم في السويداء من كذب وتدليس. فنفى مستر ريبلي ذلك بشدّة،

وأكَّد أنَّ ادّعاءات جيسيب لا تستند إلى دلائل. وفنَّد الأقوال والأمثال الشعبيَّة التي سمعها جيسيب عن الدروز، مظهرًا أنَّه أساء فهمها لغويًّا، وبالتالي فإنَّ استنتاجاته خيال محضٌ.

لم تَدرِ أتضحك أم تغضب من نصوح حين تذكَّرت استعراضه مقتنيات مستر ريبلي في مكتبته الزجاجيَّة. لم يكن يعرف عن خلفيَّتها سوى القليل. تمسَّك بمخطوطه كأنَّه صيغة عروس لا تباع إلَّا في الشدَّة والعوز. لا يُريه لأحد، ولا يفكِّر في أن يعرضه على محقِّق أو ناشر ينشره. وخالت أنَّ ما دوَّنه مستر ريبلي في المخطوط هو بمثابة اكتشاف يفيد الإنسانيَّة. وحملتها حماسةُ عمرها الفتيّ وولعُها بالصور والأفلام، على أن ترى نفسها مكتشِفةً. ألم تدرس عن أهمِّيَّة عصر الاكتشاف؟ الاكتشاف هو ما ميَّز أوروبا عنَّا، قال لها أستاذ الفيزياء. وصار له قيمة، في حدّ ذاته، حتَّى لو غيَّر المكتَشِف ما اكتشفه، أو أدخل عليه رتوشًا، أو خنقه.

حين سألت نور عمَّتها سارة عن رأيها في اكتشافات أوروبا وأبواب المعرفة التي فتحتها الرُّوح العلميَّة الاستطلاعيَّة، لم تفهم ما قالته. بدا لها الاكتشاف فكرة غريبة كأنَّه اسم خيالي لمخلوق برأس إنسان وجسم حصان. كانت نور تسمع على لسانها كلمة كشف. لكنَّ الكشف هو إزالة الحُجب التي تغطِّي المعرفة. هو بحث داخل النَّفس، لا خارجها. ولكن، كيف سيُحدث الكشف تغييرًا في العالم والمجتمعات؟ أجابتها عمَّتها بسؤال آخر: هل سيبقى هذا العالم وما فيه كما هو بعد أن تتغيَّر هي من داخلها؟ هل ستبصر ما في الخارج بالطريقة نفسها؟ حين تتبدَّل معرفتها لذاتها وللحقائق الأولى سيتغيَّر كلُّ ما تسمعه وتراه. ستظنّ أنَّها اكتشفت أمورًا وحالات جديدة. إنَّما هي تكشف عمَّا كان موجودًا ولم تره من قبل.

• • •

عادت في اليوم التالي إلى بيت نصوح حاملةً في حقيبتها كاميرا كوداك دي. سي. ٤٠. اشترتها أمّها منذ بضعة شهور قبيل ذهابها مع والدها إلى إسطنبول للاستجمام. لم تكن متأكِّدة ممَّا إذا كانت هذه الكاميرا الرقميَّة تستطيع أن تلتقط تفاصيل صورة أخرى.

بدا نصوح، من شدَّة ضيقه بزيارتها، أكثرَ حفاوة بها وأشدَّ حرصًا على إتمام واجبات الضيافة. جلست قبالته في الصالون تتصفَّح المخطوط. وجلس هو على حافَّة الكنبة ليوحي لها بضرورة اختصار زيارتها وإلقاء نظرة خاطفة على صفحاته. لم يكن المخطوط كاملًا. وصل

عدد أوراقه إلى ثمانٍ وثلاثين صفحة، لكنّه كان في حالة جيّدة تسهّل قراءته. نظرت مباشرة إلى نصوح كأنّها تتمنّى أن يغادر الصالون كي تنصرف إلى القراءة بحرّيّة، لكنّه لم يتحرّك من مكانه. لم تجد بدًّا من قراءة مقتطفات من هنا وهناك لترى أين أتى على ذكر دار شمس. يتحدّث في الصفحة ١٧، عن دروز صفد، ويذكر مجزرة وقعت بينهم. ويذكر في الصفحة ٣٢، أحداثَ سنة ١٩٢٩، ويصف المهاجرين اليهود، ويأتي على ذكر فلسطين. لم تفهم بداية الأحداث ونهايتها. ما علاقة ريبلي بدروز فلسطين وباليهود؟ لم تستطع أن تصل بقراءتها المشتّتة هذه إلى ما تبحث عنه من وصف لدار شمس والقرى المجاورة لها.

أتت الخادمة بالعصير، فطلب نصوح منها أن تضع المخطوط جانبًا حتّى لا ينسكب عليه شيء من العصير. شكرته وقالت إنّها لا تريد أن تشرب شيئًا. عاتبها وحرّج عليها كي تأخذ كأس العصير من الخادمة التي تسمّرت أمامها ويداها ممدودتان بالصينيّة. وضعت المخطوط جانبًا لتأخذ الكوب، فما كان منه إلّا أن أرجعه إلى مكانه من دون أن يستأذنها، وأغلق باب المكتبة. ونظر إلى ساعته وتظاهر بالقلق. شُدهت نور من وقاحته، لكنّها لم تقل شيئًا.

أيُّ فتاة في مثل عمرها كانت ستغادر البيت، فمثل هذا التصرُّف في دار شمس، المعروفة بلغة أهلها الإيحائيّة المبطّنة، كان أقرب إلى الطَّرد. لكنّها لم تتراجع. اعتذرت عن التسبُّب بإزعاجه، وطلبت أن يأذن لها برؤية الصُّور. وبدا، لسبب ما، أكثرَ ارتياحًا إلى طلبها، كأنّه توقّع أن تسأله عنها. فتح لها العلبة الخشبيّة ووضعها أمامها. كان فيها نحو أربع عشرة أو خمس عشرة صورة متوسّطة الحجم، بعضها مأخوذ في دار شمس وبعضها في مناطق أخرى من جبل لبنان وحاصبيا، وتشمل الأسواق وبعض المزارات. قد لا تكون لهذه الصُّور صلة بالمخطوط ولا بكاميرا الكوداك التي رأتها، فكرّت نور. وبقيت هذه مجرّد احتمالات في رأسها.

أرجعت العلبة إلى نصوح. شكرته ثمّ غادرت الشقّة. وحين همّت باجتياز الملعب البلدي شاهدت ابنته ناي، سلّمت عليها، وخطرت لها فكرة تساعدها على قراءة المخطوط بحرّيّة. علمت منها بأنّ والدها لن يترك البلدة بعد الظهر كما ادّعى، لكنّه سيسافر مع أفراد عائلته إلى قطر لأسبوعين في بداية الشهر القادم. ولن تكون ناي بصحبتهم، بل سيأخذها خالها لقضاء العطلة مع عائلته في شاليه على البحر في خلدة.

حين رجعت إلى البيت، بدت خطّتها الهادفة إلى الذهاب إلى منزل

نصوح خلال فترة غيابه أكثر صعوبة. أخبرت والدها بحكاية المخطوط والعلبة، وطلبت منه أن يُقنع نصوح بإعارتهما لها ولو ليوم واحد. شكّ في قدرته على تغيير رأيه بعدما علم بتصرُّفه الفظّ حيالها، وقال: «بيجوز يكون المخطوط قديم وإله قيمة كبيرة ما بيريد يفرجيه لحدا»، فأجابت بتعجُّب: «إذا إله قيمة ما بيفرجيه لحدا؟ كيف يعني؟ مش راكبة بالعقل».

طلبت من أبيها في الصباح أن يصرف النَّظر عن الموضوع. كتمت عنه خطّتها للعودة إلى منزل نصوح خلال غيابه في قطر. إذا كانت ناي مخطئة وكان أبوها ما زال هو أو أمُّها في البيت فستتظاهر بأنَّها أضاعت سوارها وجاءت تبحث عنه. انتظرت شهرًا كاملًا. تأكَّدت من أنَّ بطّارية الكاميرا التي في حوزتها جديدة، وأنَّ المؤشِّر على نوعية الصورة قد وُضع على «هاي». أخبرتها الخادمة بأنَّ العائلة مسافرة وناي غائبة. تمتمت بمكر «راحت تشتري مايّو. بتضلّ بالسوق. بدّها جديد، كلّه جديد». قفز قلب نور قفزتين من الغبطة. جلست تنتظر ناي في الصالون، وتظاهرت بالتفرُّج على التماثيل إلى أن صارت وحدها.

نظرت إلى رفوف المكتبة الزجاجيَّة فلم تجد المخطوط ولا العلبة الخشبيَّة. نظرت مرَّة أخرى، لكن لا أثر للمخطوط! ولمحت بعد دقائق العلبة. كانت مغطّاة بقماش رقيق تحت تمثال فيل. أخذتها بسرعة وذهبت إلى الحمام قبالة الصالون. فتحتها فوجدت عددًا كبيرًا من الصُّور، نحو ثلاثين أو أكثر. همست لنفسها: «يا ملعون يا نصوح!». أدركت أنَّه خبَّأ في زيارتها السَّابقة قسمًا كبيرًا من الصُّور، فزاد ذلك في فضولها. وجدت خلف كلّ صورة رقمًا بالإنكليزيَّة واسمَ مكان، مثل، «نابلس ١»، «صفد ١٠»، «القدس ٦». لم يكن هناك قائمة تُعرِّف بمناسبة الصُّور ومضمونها. وتذكَّرت إشارات في المخطوط إلى أرقام مشابهة.

ابتدأت بالتَّصوير. سمعت الخادمة تناديها فأخبرتها بأنَّها في الحمام. التقطت ثماني صور. وضعت الواحدة تلو الأخرى على منشفة فرشتها فوق أرض الحمام. أسعفتها الإضاءة القويَّة. أكملت تصوير ستّ صور أخرى، وبعدها لم تستطع تخزين أيّ صورة إضافيَّة. سمعت صوت الخادمة من جديد. تظاهرت بأنَّها أصيبت بألم في معدتها، ورجتها أن تحضِّر لها بعض الشاي. وحين ابتعدت خطواتها خرجت من الحمام وأعادت العلبة إلى مكانها. لم تعثر على المخطوط في أيّ مكان من المكتبة، فهمست إلى نفسها بغيظ: «نصوح التّيس!».

حملت فنجان الشاي والتصقت بزجاج الشبّاك الواسع لتخفِّف من

شعورها بالتشنُّج. نظرت إلى الصبيان وهم يتقاذفون الطابة في الملعب. بدوا بحجم حجارة الشطرنج، ووصل صراخهم خافتًا إلى الپانتهاوس. بانت لها ناي في أوَّل الرَّصيف وفي يدها بعض الأكياس، فودَعت الخادمة على عجل وذهبت. لم تعد تأبه إذا عرف نصوح أنَّها أتت في غيابه أو لا، بل ليته يعرف. لن يستطيع أن يفعل شيئًا بعد أن تخرَّجت. لماذا يتكتَّم عمَّا في المخطوط والصُّور؟ لماذا لا ينشر فحواها؟ هل يعرف أهمِّيَّة هذه الكاميرا؟

«ما عليكِ سوى أن تضغطَ على الزِّناد ونحن نتولَّى الباقي». بهذه الكلمات، نشرت إيستمان كوداك الأميركيَّة دعايتها الفذَّة عن كاميرتها الجديدة. أضفت علبة الكوداك إيقاعًا ثوريًّا على مسار التَّصوير يوم قدَّم جورج إيستمان آلة تصوير تعتمد على لفائف الأفلام بدلًا من ألواح الزجاج. وشجَّعت شركته الأميركيِّين على أخذ لقطات غير محترفة. حرَّرتهم من استديوهات المصوِّرين. وحثَّتهم على التقاط الصور التي يريدون، ساعة يريدون وكيفما يريدون. أشعلت روح المغامرة فيهم. كان ذلك سنة ١٨٨٨.

ما همّ لو ظهرت الصور مهزوزة أو غير لائقة؟ هي مجرَّد لحظات عفويَّة. يجب أن تصبح الكاميرا في كلِّ بيت وفي متناول اليد لالتقاط «سناپشوت». تعبير مؤلَّف من كلمتين. الأولى هي «سناب»، أي طقَّةٌ؛ ذاك الصَّوتُ الذي يُحدثه شيء عند انكساره. والثانية كلمة «شوت»، أي لقطةٌ، أو في الأصل طلقة، رصاصة. والعلاقة بين اللَّقطة والطلقة لم تكن من باب المصادفة. تقاطعت الحالتان وتشابكتا داخل الكاميرا. عليك أن تصوِّب جيِّدًا وتصيب الهدف؛ أن تلتقط اللَّحظة التي ماتت وتضعها في غرفة معتمة، ثمَّ تضيف إليها شيئًا من الضَّوء. حفَّزت كوداك الناسَ على المجازفة. «اضغط على الزِّناد بعفويَّة. توقف واحتفظ بلحظات من حياتك في صورة. ابحث عن لحظة كوداك».

هنا في دارها، كانت شركة كوداك تشجِّع العفويَّة. أمَّا في الخارج، في دار الغرابة والرحلة والاكتشاف، فلم يكن ثمَّة عفويَّة. كانت اللَّقطات غير المدروسة في الشرق الأوسط، في الهند، في أفريقيا، تُمزِّق، تُمحى، تزول. احتفظ المستطلعون والمكتشفون الغربيُّون باللَّقطات التي خطَّطوا لها، والتي تطابق الفكرة التي كوَّنوها في أذهانهم عن شعوب الغرابة؛ الشعوبِ التي لم توفِّر دليلًا علميًّا للمصوِّر على وجودها. لحظة كوداك هي وقتٌ مجمَّد لسلسة لحظات عفويَّة فوضويَّة. هي الحلم الكاذب والحلم المدروس. هي رصاصة تنطلق من كامارا أبسكورا نحو الوجوه الغريبة التي

تقف أمامها.

• • •

نقلت نور الصور من الكاميرا إلى آلة الحاسوب. خزّنتها في ملفّ خاص واحتفظت بنسخة ثانية عنها على منفذ يو. أس. بي. جلست تنظر إلى كلّ واحدة من الصور الأربع عشرة. كبّرتها، فبدت تفاصيلها واضحة. على عكس الصُور التي شاهدتها في الزيارة السّابقة لنصوح، كانت هذه لأناس لا يمتُّون بصلة إلى دار شمس، ولا إلى الشوف، ولا إلى أيّ بقعة من لبنان. تحمل مشاهد من حيفا ونابلس والقدس وصفد. هل كان مستر ريبلي سابقًا في فلسطين، أم أنّه قام برحلات إلى هناك خلال فترة إقامته في دار شمس؟

تذكّرت مقتطفات ممّا قرأته في المخطوط. كان يتحدّث عن مجزرة ارتُكبت بحقّ اليهود القاطنين في صفد سنة ١٨٣٨، ويتّهم الدُروز بالتّخطيط لها. وكتب، على لسان أحدهم، أنّهم أحرقوا بيوت اليهود ومعابدهم. وفي مكان آخر، اتّهم محمّد علي، والي مصر، بتحريض الدروز واستخدام ثورة الفلّاحين ذريعة للتنكيل باليهود وتهجيرهم. ألهذا، أخفى نصوح المخطوط؟ ألأنّها المرّة الأولى التي يصدر عن مستر ريبلي مثلُ هذه الاتّهامات؟ ألأنّه حمّل الدروز الظلم الذي نزل باليهود؟ لكن، لا يبدو نصوح ممّن يكترثون لما حلّ باليهود. الأرجح أنّ هناك مسائل أخرى اكتشف حقيقتها ريبلي. هل يخاف نصوح أن يبدأ اللّغط بين أهالي دار شمس عن مدرسته؟ ألا تهمُّه الحقيقة؟

لم تكن المحرقة في ألمانيا الوحيدةَ التي أودت بحياة ملايين من اليهود. يبدو أنّ هناك من اضطهدهم قبل ذلك بكثير، فكّرت نور. الغريب في الأمر أنّ الدروز أنفسهم تحدّثوا عن الظلم الذي ذاقوه في القرون الماضية على أيدي العثمانيّين. إذًا، لماذا تناقلت العائلة قول القاضي عبد الصّمد إنّ والي صيدا أظهر للدروز المودّةَ والاحترام، وإنّهم كانوا معزّزين مكرّمين لدى محمّد علي؟ بل إنّ عائلة كمال الدين أبدت سخطها من قدرة قناصل الإفرنج على ابتلاع هيبة السّلطنة العثمانيّة وتحويل أمّة المسلمين إلى أضحوكة. قال الشيوخ إنّهم على المذهب الحنفي، وإنّ قوّة الباب العالي من قوّتهم. يبدو كلّ شيء معقّدًا ومتناقضًا. يذكرون أنّهم اضطروا إلى إخفاء عقائدهم خوفًا من القتل حتّى صارت مبهَمة لأكثر الجهّال، وطمسوا طقوسهم لعصور كاملة. ألهذا كانوا في الظاهر يتمتّعون بما يتمتّع به أيّ مسلم وهم في الباطن على عقيدة أخرى؟ يهمسون داخل حيطان

بيوتهم بأنَّ اللّـه حلَّ في شخص الحاكم بأمر اللّـه، الخليفةِ الفاطميّ، ويجاهرون بولائهم للخليفة. يخافون أن تشير ظاهر الآيات والشرائع إلى كفرهم. يستترون، ويمارسون التقيّة.

مهما يكن، قالت نور لنفسها، فلا بدَّ من أنَّ مخطوط مستر ريبلي يحمل في طيّاته حقائق مهمّة ومعلومات كُتبت بدقّة وموضوعيّة. لم تكن تعرف سوى القليل عن فلسطين والاستعمار البريطانيّ. لم تلتقِ في دار شمس وجوارها أيَّ فلسطينيّ. كان أبوها يتطرّق، في بعض الأحيان، إلى ثورة فلسطين الكبرى، وتحويل ملكيّة الأراضي العربيّة إلى اليهود. يقول إنَّ هموم الفلسطينيّين تصل فاترة إلى أهالي دار شمس، وإنَّ الصّراعات المحتدمة في المدن لا تلقى الصّدى ذاته هنا.

• • •

غرقت، بعد أسابيع، في التّحضير لموادّ دراستها في كلّيّة فنون الاتّصال في الجامعة اللبنانيّة ـ الأميركيّة. جرفتها مشاغل الحياة في بيروت ونسيت ما كان من أمر هذه الصُّور. ولم يبرز موضوع الفلسطينيّين في حياتها من جديد إلّا بعد أن توطّدت صلتها بمها عزّام.

تعرّفت إليها في صفّ الاقتصاد وبدأت تلتقيها بانتظام لتساعدها على التحضير للامتحانات. كانت مها قد انتظمت في كلّيّة الاقتصاد وأحاطت بالدروس التي تعذّر عليها استيعابها.

جلست نور، في عصر يوم الجمعة، تنتظرها تحت شجرة الغار الوارفة قبالة سايج هول. وبعد مرور نصف ساعة، وضعت أوراقها في حقيبتها وهمّت بالوقوف، فسمعتها تناديها. كانت بصحبة شاب أكبر منها. بادرتها وهي تلهث:

ـ انشغلت لا تآخذيني.

ـ اقعدي ارتاحي.

ـ إجا أخوي سمير من الأردن. راجع بعد شي أسبوعين. ما رح إقدر أساعدك بالدّرس اليوم.

ـ ما في مشكلة.

ـ كنّا بنشتري أواعي.

ـ وهلّق شو البرنامج؟

ـ تعالي نروح على شي مطعم.

انتقلت مها وسمير بعد وفاة أبيهما من شفا عمرو، المكان الذي وُلدت وترعرعت فيه، إلى عمّان مع أمّهما، ليعيشوا قرب خالها. لكن بعد انقضاء أربعة شهور كان سمير يحزم أمتعته عائدًا إلى شفا عمرو بحجّة أنّ عمله في ميكانيك السيّارات هناك أفضل.

بدت مها أكثر مرحًا خلال العشاء، أمّا نور، فكانت ساهمة تنظر إلى كورنيش الروشة والصخرتين المتلألئتين في عرض البحر. قالت: «هيدا البحر بتعرفوه. عندكن ياه». أجابت مها: «آ، نفس البحر، لكن مش نفس الحيتان!»، ثمّ وضعت لائحة الأطباق بين يدي سمير فقال: «الأوّل أعطوني صحن البو مليح وبعدين فيكو تطلبو اللّي بدكو ياه». سألته نور: «بو مليح؟» فأجاب: «آه، الفتوش. على اسم زلمي من عيلة فتّوش. بعرفش، هيك بتقول ستي». يوم نجا بعض المسيحيّين من مجزرة ١٨٦٢، نذروا الصّوم. كان ذلك قبل أيّام من عيد الفصح الكبير. أقام أحد الأغنياء من عائلة فتّوش وليمة احتفالًا بنجاتهم. ولشدّة جوعهم، باتوا يأكلون السَّلَطة مع الخبز كي لا يُفسدوا صومهم. وعلّقت مها قائلة: «يعني يا ست نور لوما تيجو تهجّروهم لَهدول المساكين، كيف كانوا رح يخترعوا هادي السَّلَطة اللّي لَنها سَلَطة ولَنها طبيخ! أصلًا مش عارفة إيش اللّي عاجبه لسمير فيها؟ أنا من زمرة الثبّولة». ابتسمت نور مجيبة: «يعني ما فيكِ حضرتِك إلّا ما تعلقي؟». لكزتها مها برقّة وسارعت إلى القول: «واللّهِ بمزح معاكِ يا نور. ليش في حدا مِنّنا كُلياتنا ما نكّل بحدا، إحنا الهبلان في بلاد الشام!».

امتدّت الأحاديث بينهم إلى ساعة متأخّرة من المساء. ذكرت مها أنّها ستأخذ سميرًا إلى صيدا وصور، واقترحت نور عليهما أن يرافقاها إلى دار شمس يوم الجمعة القادم لقضاء عطلة الأسبوع. تردّدت مها، فطمأنتهما إلى أنّ والدها سيؤمّن سيّارة أجرة تُقلّ سميرًا إلى المطار يوم الاثنين ليسافر إلى الأردن.

كانت نور تفكّر في سمير حين رجعت إلى غرفتها في أورمي غراي، المبنى السكنيّ للفتيات داخل الجامعة، . يضحك فتغرق عيناه العسليّتان في وجهه الصغير، لا يبدو منهما سوى رموشه الكثيفة المقلوبة. ولمّا سألته مها عن العداوة التي نشبت بين أقربائهما في شفا عمرو، هزّ برأسه وهمس: «انسي. بدأ كلّ شيء حين أخذ الإسرائيليّون من جذه دكّانين وأرضًا في القدس. قالوا إنّ الأسباب عمرانيّة. يسرقون في الحرب رغمًا عن أيّ قانون، ويسرق القانون نفسه الفلسطينيّين في السلم. القانون كيانٌ قائمٌ

بذاته. يتحرّك من دون إله». وأضاف ببرودة، كأنّه يُباعد بين كلماته وأحاسيسه: «إحنا اللّي حاملين جواز سفر إسرائيلي حياتنا أحسن من أهلنا بالصُفة وغزّة بكتير. بس هادا كلّه احتلال. عِنّا القرف من هدول الإسرائيليّة بييجي مَعاه مخدّر. بييجي هيك على دفعات صغيرة، ولمّا بيكبر بتشعري زي ما تكوني مرضانة، بس مش قادرة تعرفي من إيش. وأحيانًا ما فش إشي محدّد تغضبي منه. زَيّ ما يكون واحد ضاربك باللّيل وبتعيطي وإنت نايمة. لكن، لمّا بتصحي الصُبح بتشوفي ما فيكي إشي. لا وإيش؟ زيّ الحصان كمان».

• • •

كانت علاقة نور بمها رسميّة, لأسابيع خلت، يؤطّرها التحضير لدروس الاقتصاد. أمّا الآن، فشعرت بخيوط الصداقة تلفّهما. فكّرت في رقّة سمير تجاه أخته، وقدرته على التسلُّل إلى قلوب مَن حوله بخفّة. لكم هو مختلف عن أخيها محمّد الذي يبدو متخصّصًا بإبعادها عنه. يمقت نوع الثياب التي تلبسها، ويذمّ صديقاتها. يُعيبها على اهتمامها بالتّصوير، ويهزأ من التّعابير التي تستخدمها. لم تُعِر شتائمه أيّ اهتمام. استمرّت تلبس وتحكي وتصوّر كما تريد. وعزا والداها جلافته الزائدة إلى صحبته إياذا، الذي طلب منه أبوه مراقبة سلوك أخواته الثلاث، ففرضَ عليهنّ العمل بمشورته مع أنّ واحدة منهنّ كانت تكبره سنًّا.

بدا محمّد مشدودًا إليه وحَذِرًا منه في آن واحد. لم يمضِ وقت طويل حتّى صار الواحد منهما يحتاج إلى صحبة الآخر ونفوره. يرافقه ولا يركن إليه. ينافسه ولا يستطيع أن يعاديه. رآه محمّد يومًا في المعبر الضيّق خلف المدرسة يركل التراب ويصرخ بعينين جاحظتين: «واحد خروق!». أخذ حقيبة صبيّ ورمى بكلّ ما فيها على العشب. فتح سحّاب بنطاله وبوّل على كتبه ودفاتره لأنّه لم يدعه يستعير كتابه أو يرى وظائفه. نزلت دمعة على وجه الصبيّ وارتجفت شفتاه وهو يشتمّ رائحة كتبه النتنة. صرخ إياد قائلًا: «يلّا ابكي متل البنات! بدّي نيك إمّك تاني مرّة. لمّا بسألك عن الفرض دغري بتعطيني ياه. خنزير مقوّص!». كان محمّد الوحيد الذي رأى ما حدث. تفرّج عليهما بصمت. امتلأ صدره بالاشمئزاز من الصبيّ، وبالإعجاب الممزوج بالحذر من إياد.

مضت أيّام ومحمّد يقترب منه خطوة ويتراجع خطوة. حين وقف يتبوّل معه في مرحاض المدرسة، استدار إياد وأمعن النّظر في مؤخّرته. بدا عليه القلق والاستياء. وقبل أن يُقفل سحّاب بنطاله، رأى إياذا يمدّ كفّه

ويلقيها بقوّة على مؤخّرته العارية. لكمه محمّد بكلّ ما أوتي من قوّة وغرز أظافره في وجهه. شعر برعشة فرح حين رأى الدّم يسيل من أنفه والخدوش تخط خدّيه. قهقه إياد عاليًا. لم يدافع عن نفسه ولم يضربه، بل صرخ قائلًا: «عفاك، ما تخلّي حدا يركبك! أنا ما بصاحب بنات». وأضاف أنّه أراد أن يختبره، وتأكّد الآن من أنّه رجل. تراجع محمّد بضع خطوات وأصلح ثيابه. مدّ إياد يده مصالحًا ودعاه إلى الغداء في بيته يوم الأحد. بدا محمّد ضائعًا، عاجزًا عن مقاومته. شعر بالانتصار والهزيمة في آن معًا. وصار بعد ذلك اليوم يجلس في المقعد الملاصق لمقعده في الصفّ.

كان أبو إياد من حلفاء الشّيخ فوزي. هاجر وهو شاب إلى إحدى المدن الشرقيّة من فنزويلا. تنقّل بين بيع الثياب والأحذية قبل أن يخوض في صناعة أثاث المنازل وتدرّ عليه أرباحًا طائلة. كبر في عين الشّيخ حين ترك زوجته وأولاده في عهدة والديه في دار شمس. كان إياد قد بلغ من العمر تسع سنوات، وقال للشّيخ، بحميّة، إنّه خاف ألّا ينقادوا إليه إذا تشرّبوا عادات أهل فنزويلا. رجع بعد عدّة سنوات إلى لبنان واشترى حصّة كبيرة في مصنع للمشروبات الغازية. ودخل تدريجيًا في شبكة العلاقات الاجتماعيّة ساعيًا لنيل الزعامة المحلّيّة التي أصبح الشّيخ فوزي قطبًا من أقطابها. وبالرّغم من ثرائه، فإنّه كان يلهث وراء عائلات العلم العريقة. يحلم بمصاهرة عائلة كمال الدّين ويحثّ ابنه على التمسّك بمحمّد.

محمد، هو الآخر، تمنّى لو كان لأبيه مثلُ الفيلا التي يعيش فيها إياد، أو كان له أن يفرض كلمته على أختيه. حين يرتفع صوت إحداهما في وجهه ينهرها، وإذا تحدّته يضربها. متى سيذوق مثل هذه السُلطة ويحدّ من جرأة نور وكبريائها؟ يقول لوالديه إنّها غير متزّنة بدليل أنّها جعلت تصوير الأشياء الغريبة والقبيحة هوايةً لها. تريد أن تصبح مخرجة سينمائيّة، وهذا لا يليق بسمعة عائلتهم. تُصوّر مشاهد مخجلة. لا تشعر بالحياء أمام شتائمه أو بالخوف ممّا يقوله الآخرون. ويضيف بحنق: «مسترجلة. أنا مش توتو قدّاما! لو إجت ليّي كنتو شفتو شو بعمل فيا!».

ما لم يقله محمّد لأبيه وأمّه هو أنّ إيّادًا عيّره بأخته. قال له لو تمدّدت على الكنبة أمام التلفزيون أختٌ له هكذا، كما فعلت نور، لمسكها من شعرها ورماها أرضًا. كتم إياد بهذه الكلمات ما أثارته نور فيه من شهوة ممزوجة بالغضب. أعجبته وهي مستلقية على الكنبة وخصلة من شعرها الأسود الطويل ترتجف فوق صدرها. لم تكن تشعر بوجوده. كان مجرّد صبيّ صغير يسترق النّظر إلى بنات أكبر منه، بل طلبت منه ومن

محمد دخول الغرفة كي تركّز في فيلمها. تمنّى أن يصفعها، يمسك بفخذيها ويرمي بجسمه فوقها.

على الرّغم من تحذيرات أبيه ومحاولات أمه التي لا تملّ من أجل ترك نور وشأنها، فإنّ محمّدًا كان يكرّر أنّها تشبه الرجال بكتفيها العريضتين وصوتها العميق، صوت لا يخرج من أنثى. وهي، فقط حين ينعتها بالذكورة، تتخلّى عن نظرتها الهازئة وتصرخ في وجهه كالمجنونة. تلحق به. يضربها وتضربه إلى أن يفرّق بينهما أحد. ما كانت لتأبه لكلماته لو كان هو الوحيد الذي قال عنها إنّها تشبه الرّجال. فرباب تلمّح إلى ذلك بخبث، وكذلك هيثم زميلها في الصفّ. وزاد في حساسيّتها وقلقها ما قالته لها مس زاهية، مدرّسة الأدب العربي، يومًا. جاء دورها لتنوّه بأحد شعراء العصر العبّاسي، فسألتها عن الشاعر الذي اختارته. قالت:

ـ بشّار بن برد.

ـ لمَ اخترته؟

ـ أنا... لقيت شعره حلو.

ـ تحدّثي بالفصحى يا نور.

ـ طيّب... نعم.

ـ ماذا تعرفين عنه؟

ـ كان ضريرًا. نشأ في البصرة ومات في بغداد.

ـ كيف مات؟

ـ اتُّهمَ بالزّندقة، ثمّ قتله الخليفة العباسيّ، المهديّ.

ـ ما معنى زندقة؟

ـ هيك اتّهمه الخليفة.

ـ بالفصحى!

ـ نعم.

ـ ما معنى زندقة؟

ـ الزندقة، يعني... أظنّ أنّها الكفر.

ـ أحد معانيها هو الكفر، لكنّها مُشتَقّة من زَند؛ الكتابِ الدّينيّ للفرس قبل الإسلام. فمن أظهر الإسلام بعدها وبقي في سرّه مجوسيًا اعتُبر زنديقًا. هل هناك كلمات أخرى أو معانٍ ذُكرت مع الزندقة؟

ـ المُجون؟

ـ صحيح، وماذا أيضًا؟

ـ شرب الخمور والاستهزاء بالدِّين.

ـ والتخنّث.

ـ التخنُّث؟

قال هيثم متعمّدًا أن يجعل نور مادّة للسخريّة: «إذا كان التخنُّث زندقة، والترجُّل يا مس شو بيكون؟ بندقة؟» انفجر التلاميذ بالضَّحك، فأسكتتهم مس زاهية ونهرت هيثمًا. شعرت نور بأنَّ يديها غلظتا، ودقَّاتِ قلبها غاصت في صدرها. استدارت مس زاهية نحوها قائلة:

ـ نور، اقرئي بعض الأبيات من شعره.

ـ أنشدَ هذه الـ... الأبيات:

فحرَّكتْ عودَها ثم انثنَتْ طَـرَبًا

تشـدو بـه ثـمَّ لا تُخفيـه كتمـانـا

أصبحتُ أطوَعَ خلقِ اللّـه كُلِّهم

لَأكثرَ الخلقِ لي في الحُبّ عِصيانا

فقلتُ: أطربتِنا يا زينَ مجلِسِنـا

فـهـاتِ أنَّـكِ بـالإحسـانِ أولانـا

لو كنتُ أعلمُ أنّ الحبَّ يقتلُني

أعددتُ لي قبل أنْ ألقـاكِ أكـفانا

فغنَّتِ الشَّرَبَ صوتًا مُؤنِقًا رَمَلًا

يُذْكي السُّرورَ ويُبكي العينَ ألوانا

ابتسمت مس زاهية وقالت: «لو سمع صوتك بشار بن برد لقال عنه إنَّه مُؤنِقٌ خفيض، مشوب بصوت رجل!». لم تجب نور. شعرت بكرة هواء ثقيلة تهبط من حلقها وتستقرّ في معدتها. جلست في مقعدها وعيون التلاميذ تحدّق فيها. كانت تعلم بأنَّ مس زاهية غريبة الأطوار، لكنَّها لم تجرح أحدًا من قبلُ. تمنَّت لو لم تقل، أمام الجميع، إنَّ لها صوتَ رجل. وقفت في المساء أمام المرآة وسألت كاميليا إذا كان صحيحًا ما قالته، فأنكرت بتودُّد مجيبة: «عَمْ تتفلسف». لكنَّ كلمة رجل تكاثرت في رأسها لأسابيع. فكَّرت في هذه الصِّلة الجديدة التي صارت تربطها بعمَّتها. قالوا

إنَّها خلعت جسد أنثى وبدت في صورة رجل. تخيفها هذه الصِّلة وتُرهقها. تشعر بالتناقض بين جسدها وجسد عمَّتها؛ بين شهواتها وطهارة عمَّتها؛ بين إيمانها المطلق بتفوُّق الغرب وحاجتها العميقة إلى معارف الشَّرق التي اختزنتها عمَّتُها.

• • •

وصلت نور ومعها مها وسمير إلى دار شمس بعد ظهر يوم الجمعة. رحَّب بهم بدري ودعاهم إلى تناول الطعام معهم على البلكون. بدا محمد بشوشًا على غير عادته. نظرت مها إلى الطُّرقات الحجريَّة والبساتين التي سيَّجت الحي وقالت: «صحيح أنا بفضِّل المدينة. لكن ما توقَّعتش تكون قريتكم حلوة بهالشكل».

أتت نور بحاسوبها وعيناها تلمعان، في اليوم التالي بعد تناول الفطور. حكت لمها عن الصُّور التي التقطها مستر ريبلي في رحلة سياحيَّة إلى فلسطين، فاقترب سمير ليرى تلك الصور عن كثب، فلم يجد سوى أسماء أمكنة، مرقَّمة بالإنكليزيَّة، كُتبت خلفها: «نابلس ٧»، «صفد ٤»، «صفد ١٠»، «القدس ٦». قال لنور:

ـ تِسمعي رأيي؟

ـ إي.

ـ لساتك ما بتعرفيش عنه لريبلي إشي.

ـ كيف يعني؟

ـ يمكن رحلته لفلسطين مَلهاش علاقة بالسِّياحة.

ـ ليش لأ؟

ـ يعني كلّ هاي المحبَّة للدروز مش بلا إشي!

ابتسم بدري ابتسامة عريضة، وقال: «إنتَ محصَّن بالشَّك....هاها.. عفاك». فوجئت نور بتعليق سمير وردّ أبيها المشجِّع له. قالت لسمير:

ـ شو المشكلة باللّي قلته؟

ـ الإنكليز إجو استعمرونا الأول.

ـ بعرف.

ـ بعدين مانك شايفة كَم صورة آخد لليهود. ليش؟

ـ هيك ما بعرف. بس نحنا بدار شمس منعرف إشيا منيحة عن ريبلي. مش كلّ عالِم أوروبي لازم نعمله جاسوس!

ـ ما بقدر أحكم عليهِن كلهِن. لكن معظمهِن خرَب أكتر ما نفع.

ـ لأ. نسيت الدور إللّي لعبوه بنشر العلم؟

ـ ما حكيناش إشي.

ـ بعدين، وإذا كانت الصُور لليهود؟

ـ ما بينفعش إذا ما فهمناش إيش بيصوِّر.

ـ إذًا، لازم نشوف المخطوط.

ـ آ، صحيح هالكلام. لمَّا تصير المعلومات واضحة إحكيلنا إيش قصَّة هالصور.

لم تستسغ نور حكم سمير المسبق على مستر ريبلي. فكَّرت في الدَّور الذي أدّاه هو ونظراؤه البريطانيُون والفرنسيُون والأميركيُون في نشر العلم في لبنان وسوريا وفلسطين، وأهمّيَة إنجازاتهم العلميَة والفرص النادرة التي أتاحوها للشبّان والشابات من جميع الفئات. ألم تضع سارة سميث الحجر الأساس لمدرسة البنات في بيروت سنة ١٨٣٥، زمن العثمانيّين؟ ألم تأتِ بعدها فرانسيس إزوين مدرِّسةً من فرجينيا لتؤسِّس كلّيَة للبنات سنة ١٩٢٤؟ وتحوَّلت هذه الكلّيَة على مرّ العقود إلى الجامعة اللبنانيَة ـ الأميركيَة التي تدرس فيها الآن. ألم تأتِ السيّدات البروتستانتيّات من أميركا لتعليم النساء الحسابَ والكيمياء والعلوم الطبيعيَة، وحتَّى قواعدَ اللُّغة العربيَة؟ ألم تسمح بوجود جيل نسائيّ طليعيّ له فرص أفضل وآفاق أوسع؟

استيقظ سمير باكرًا في صباح اليوم التالي ليسير مع بدري إلى إحدى التلال القريبة. لم يشعر أحد متى وكيف اتَّفقا على هذه النزهة الصباحيَة. وحين رجعا، كان الجميع قد استفاق من النوم وجلس إلى طاولة الفطور. أكل سمير وبدري الفول المدمَّس بشهيَة. وكانت الأحاديث تقفز بينهما كطابة پينغ پونغ بين لاعبَين ماهرَين.

استعدَّ الجميع في المساء للذهاب إلى بيت الدّين لحضور عرض لفرقة راقصة ما عدا محمَّدًا. غمزت سلوى ابنها كي يغيّر رأيه، فأجاب بحدَّة: «قلّة عقل! ناس عم يتنطوطوا قدّامك!». فعلّقت مها: «بِكفّي يغيّرولك مزاجك». أجاب: «بس أنا بيزَهقولي حياتي!». اقترب سمير من محمّد وقال باسمًا: «يعني إجباري الناس كلّها تحبّ الرَّقص؟ شو القضية استبداد؟». ابتسم بدري، وزال التجهُّم عن وجه محمد. في اليوم التالي، عند باب سيّارة الأجرة، ربَّت بدري بحنان على كتف سمير، وقال: «كتير

انبسطت بمعرفتك يا قبضاي».

• • •

كانت نور تنتظر بعد أسبوع قدوم مها إلى غرفتها في أورمي غراي لتناول العشاء. أطلّت من الباب بوجه مأتميّ. شعرها مسترسل على وجهها وجذوره تلمع تحت طبقة من الزيت. قالت بصوت مخنوق:

ـ الإسرائيليّة مسكوا أخوي.

ـ كيف!

ـ بتهمة التجسّس لحزب اللّه. بتعرفي إيش رح يعملو فيه!

ـ لا، لا ما بصدّق!

ـ المحامي اللّي حاطّه عمّي حكالنا إنّه ما فيش إثباتات ضدّه.

ـ طيّب؟

ـ لكن لمّا وقّف قدّام القاضية طلعت درزيّة!

ـ شو يعني؟

ـ هدولي الدّروز اللّي عنّا ما بيرحموش! يا محلا القاضي اليهوديّ.

ـ وَلَو؟

ـ قانعين حالهن إنّهن كانوا مضطهَدين والإسرائيليّة حرّروهن.

ـ مش فاهمة شي... بس إنتِ خلّي عندك أمل.

ـ أمل؟

كانت الدُموع عالقة في مآقيها وكانت شفتاها مصرومتين كأنّها تقفل على الصراخ داخلها. تمالكت نور نفسها وضمّتها إليها، وهمست بحزن: «لازم يكون في باب ضو». شعرت بجسم مها يرتجف، فأتت إليها بكوب من الماء البارد. وحين هدأت، حاولت أن تقنعها بقضاء اللّيلة معها، لكنّها أصرّت على أن تعود إلى شقّتها لتتلقّى اتّصالًا من أمّها.

تخبّطت نور حزنًا على سمير وحيرة ممّا سمعته عن القاضية وعن الدروز. حكت لأهلها بالتليفون ما حدث، فهمس بدري كأنّه يحدّث نفسه، «دروز إسرائيل؟ بيخدموا بالجيش. فش أمل منهن». وتسلّحت سلوى بمعرفتها في علم النّفس، وقالت: الخائفون يلجأون إلى مواقف غريزيّة ويبرّرونها. فالذي نسمّيه خيانة يعتبرونه تقيّة للحفاظ على النّفس. «تقيّة؟» ما هذه الكلمة التي يُراد لها أن تفسّر كلّ شيء، قالت نور لنفسها. ألم يَثُر الدروز في هضبة الجولان على الاحتلال؟ ألم يرفضوا الهويّة

الإسرائيليّة؟ أنهى بدري المخابرة وهو يقول بعصبيّة: «يا بابا اتركينا من هالحديث! الموضوع معقّد وإسا مش وقتا. المهم تعرفي إنت من مها ليش اتّهموه بإنّه عم يساعد حزب اللّه. وين راح؟ وين إجا؟».

لم تنم نور تلك اللّيلة أبدًا. تطالعها عينا سمير. تغرق في وجهه كلّما ضحك. تأتيها نظرة الحقد في عينَي مها وكلمات والديها عن دروز إسرائيل، فتبدو الحقائق أكثر التباسًا. التاريخ، كما عرفته في دار شمس، صار احتمالًا. صار تربة رخوة في أعماق مفكّكة. لم تعد الصُور التي في رأسها تعكس الواقع. مخطوط مستر ريبلي الذي قرأت بعض صفحاته لأوّل مرّة في بيت نصوح، يُدين الدروز ويسخر منهم. يقول إنّهم أعداء اليهود. قتلوهم ظلمًا في صفد. واليوم، هم أكثر المواطنين العرب ولاءً لدولة إسرائيل. كلّ ما سمعته متناقض. في هذه الروايات خيوطٌ مفقودة وأحداث مبعثرة.

اتّصلت بمها بالتليفون لتطمئنّ عليها، في صباح اليوم التالي، وقبل بدء حصّة الإعلام المرئيّ والمسموع، فأجابتها بأنّ لديها أخبارًا مهمّة، واقترحت أن توافيها إلى مبنى نيكول عند السّاعة الواحدة ظهرًا. وصلت نور إلى الغرفة المحدّدة. كانت مها في انتظارها. وجهها منتفخٌ والاحمرار صبغ أجفانها. ضمّت شعرها إلى الخلف وعقصته، ثم قالت:

ـ نور، اسمعيني. أبوك كاين مع جورج حبش؟ مع الجبهة الشعبيّة؟

ـ شعبيّة؟ جورج شو؟

ـ لاااا؟ في حد مش سامع بجورج حبش؟

ـ هلّق رح تفهميني شو الموضوع؟

ـ آآ، شكلك مش عارفة إشي.

ـ انطقيا لهالجوهرة!

استرخت مها على الكرسي وأغمضت عينيها. بدت منهَكة. نظرت نور إليها بوَجَل. ما علاقة أبيها بالموضوع؟ مَن هو جورج هذا الذي تتحدّث عنه؟ الإسرائيليّون كانوا يتابعون كلّ تحرّكات سمير في لبنان، قالت لها. علموا بالرحلة التي قاما بها معًا إلى صور ومنطقة رأس الناقورة قريبًا من الحدود. أخذوا منه صور التلال والطرقات وحتّى السّماء. كانا برفقة عدد من السيّاح والتلاميذ. كان الجميع يحمل كاميرا ويلتقط الصُور. وحين رجع إلى شفا عمرو، ذهب إلى رأس الناقورة من الجهة الفلسطينيّة. التقط صورًا أخرى في تلك النقطة التي يسمّيها الإسرائيليّون روش

هانيكرا. اعتقلوه وساقوه إلى التحقيق. اتّهمه ضابط المخابرات بتصوير المنشآت الإسرائيليّة والمستعمرات كي يعطي حزب اللّه المعلومات. وكان حزب اللّه قد قام بعمليّة عسكريّة قبل أيّام ضدّ موقع لهم في تلك البقعة بالذات. قالت مها:

ـ ولاد الكلب دريانين بكل إشي!

ـ وبعدين؟

ـ سألوه ليش بيصوّر هناك، فجاوبهن: «أنا بصوّر بلدي. ممنوعة هاي؟» ضربوه وجر...».

مسحت دمعتها وأكملت: أحضر ضابط المخابرات ملفًا كبيرًا فيه أوراق ومقالات وصور. قال له إنّه ملفّ الإرهابي بدري كمال الدّين؛ عدوّ لإسرائيل كان في الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين. نفّذ عمليّات اختطاف لطائراتهم وتفجير لخطوط النفط والغاز. لكنّ سميرًا أنكر أن يكون على علم بشيء من هذا. لم يصدّقوه، واستمرّوا في تعذيبه واستجوابه عن سبب زيارته دار شمس.

شعرت نور برعشة هلع تسري في جسمها. حدّقت في اللّوح الأسود الممتدّ على طول حائط الغرفة، والذي يحدّ البصر ويقف دونه حاجزًا، لا يتوقّع الإنسان أن يتطلّع إلى ما وراءه. لم تكن عليه علامة بيضاء واحدة كأنّه مُكتفٍ بلونه فابتلع كلّ الألوان الأخرى. بدا صورةً سلبيّة لأشياء لم تتلقّ الضوء في كامارا أوبسكورا؛ لأشياء فشلت في صنع نسخة عن نفسها تستحقّ أن نحتفظ بها. في تلك اللّحظة، كانت إسرائيل هذا اللّوح.

لم تسمع من قبل بالجبهة الشعبيّة، أو بأيّ شيء يتعلّق بنشاط والدها الحزبي. هناك خطأ حتمًا. نظرت مها إلى عينيها قائلة إنّ في الملفّ معلوماتٍ مفصّلةً عن أبيها وصورًا له مع جورج حبش. سألتها:

ـ طيّب، شو علاقة حزب اللّه؟

ـ الإسرائيليّة مفكرين أبوك ابتدا يتعاون مع حزب اللّه، وسمير كذلك.

ـ مين خبّرك كلّ هالمعلومات؟

ـ مناضل من شفا عمرو، كان في السّجن مع سمير وطلع. خبّر عمّي كلّ اللّي حكاله ياه سمير.

تراكمت الأسئلة في رأس نور ولم تجد الإجابات. خرجت قبيل

المساء من مكتبة الجامعة وأخذت تتسكّع في الشوارع. كانت ساهمة تفكّر في كلّ ما عرفته في يوم واحد عن جورج حبش، ابن عائلة تجذّرت في اللّد؛ المدينة التي تكتظ مرّة كلّ كانون بوفود المصلّين. يأتون من جميع أنحاء فلسطين قاصدين كنيسة الخضر. قتل الصهاينة من أهلها المئات. «الإبادة»، قالوا للآخرين، «تنتظركم كما حلّ بأهل دير ياسين إن لم تُخلوا المدينة». ولم ينسوا أن يسرقوا الحليّ من أعناق النساء وأيديهن لحظة اغتُصبن ولحظة شُرّدن.

• • •

بدا بدري شاردًا حزينًا خلال عطلة آخر الأسبوع. تطلّعت نور إليه كأنّها تبحث عن مفتاح حياته الماضية، وسيطر عليها الإعياء، بعد الغداء، فذهبت إلى غرفتها لتستريح. استفاقت عند الساعة الخامسة مساءً. تسلّل إليها حِسّ خرير الماء المنساب من الحوض في الحديقة، وعلا مواء القطط ثمّ غاب. أخرجت من حقيبة يدها رواية «الموافِق» لألبرتو مورافيا. حاولت أن تكمل قراءة صفحاتها الأخيرة: سلسلة انفجارات في ذاكرة مارسيلّو وصلت إلى حدّ الفناء الروحيّ، والموافقون على الفاشية يعيشون إغراءاتها. يحصلون على مكافآت نفسيّة. لكنّ أفكارها كانت في عالم آخر. حامت حول سمير. يبدو كأنّه يصارع الضحايا والأشباح. تبكي دولته اليهوديّ كضحيّة أبديّة، كشبح هائم. من يمعنْ في عشق الضحايا يثابز في خلق جلّادين. هو مثل مهووس يلتقط صورة واحدة مكرّرة عن جثّته. يُقنع الآخرين بضرورة تكديس الجثث الفلسطينيّة كي يشفوا من الخوف.

فكّرت نور في وسيلة تساعدها على الانفراد بأبيها. تربّعت في المساء إلى جانبه على الفراش الأرضيّ في مجلس الخلوة. رأت الستّ مهيبة علامات التوتُّر على وجهها، فمسحت بيدها على رأسها قائلة: «صايرة صبيّة متل القمر يا نور. بس كأنّه في شي مكدّرك؟» ربّتت نور على يدها بحنان من دون أن تجيب. وأخبرت أباها بكلّ ما سمعته من مها. رأته يُطرق تارةً، ثمّ يشيح بنظره إلى البعيد تارةً أخرى. سألته:

ـ هالكلام صحيح؟

ـ إي صحيح. كنت بالجبهة الشعبيّة وتركت.

ـ ليش؟

ـ لأسباب كتيرة. بس بقيت إحترم الحكيم.

تذكّرت نور أنّ جورج حبش لُقّب بالحكيم لأنّه مارس طبّ الأطفال

بضعَ سنوات. قال بدري إنَّ سنة ١٩٨٩ كانت لحظة غير مسبوقة. خرج فيها من حالته كأنَّه رأى نفسه في صورة، وكان وحيدًا. في الصُّور الأخرى تمدَّدت الانتفاضة وأطفال قاتلوا بالحجارة. كانت الانتفاضة حدثًا مهمًّا وجميلًا، لكنَّه هو ورفاقه لم يساهموا في أيّ جزء منه. حلموا بهذا النوع من التَّحرير الشعبيّ من الدّاخل، لكنَّهم لم يفكّروا في جعل الدّاخل ساحةَ حرب. لم يجهّزوا لصراع طويل الأمد يُضعف روح المحتل.

لم يكن هذا ما أبعده عن الجبهة الشعبيَّة، قال لنور. كانت شكوكه لفترة طويلة تنمو نتيجة المهمَّات الموكلة إليه. مع ابتعاد الحكيم عن السياسة، لم يعد يتقبَّل العمليَّات التي تطال المدنيّين، وخصوصًا الأطفال. لم يعد يؤمن بأنَّها ضروريَّة أو فعَّالة. كانت السّت سارة تسأله كلَّما رجع إلى دار شمس: «قلّي ضميرك مرتاح؟» فيمتنع من الإجابة. انتقد بعدها عمليَّة مطار اللّد التي خطّطت لها الجبهة وشارك في تنفيذها حلفاؤها في الجيش الأحمر الياباني. لم يكن المطار عسكريًا. قُتل مدنيُّون ولم تهتزّ قاعدة العدو. قال إنَّ عليهم أن يوظّفوا جهودهم في عمليَّات شبيهة بتلك التي استهدفت خطوط النفط والغاز. واستدار نحو نور وأضاف:

ـ قلتلهم ما بدّي كمّل بهالمهمَّات.

ـ أيّ مهمَّات؟

ـ هلّق ما عدتِ طفلة. رح عاملك على هالأساس.

ـ احكيلي.

ـ هيدا الكلام ما بيروح لبرّا ولا لمها، فهمتِ؟

ـ فهمت. احكيلي!

صمت كأنَّه يسأل نفسه إذا كان من الضَّروري أن يُطلعها على مهمَّاته السّريَّة. شعرت السّت مهيبة بتردُّده، فقالت بلهجة محذِّرة: «أنا بغالطك بالّلي عم تحكيه لنور. اتركا خلص. غيِّر الحديث!». أجاب بهدوء: «بعرف قدّيش بتخافي عليها. بس ما عاد فيّي طمطم الموضوع». استدارت وقالت لنور: «انتبهي هالحكي مش لعبة. ما تنطقي بحرف لمخلوق!». وحكى بدري. قال لها إنَّه كان يحفظ للجبهة الشعبيَّة مبالغ مالية كبيرة في أماكن سرّيَّة وينقلها إلى الحكيم حين يحتاج إليها. سيَّارته الرَّاقدة تحت التينة في آخر الجلّ، والمنزوعة الدواليب، كانت مستودعًا لنصف مليون دولار. بهذه الأموال، كان قادة الجبهة يشترون الأسلحة والأجهزة التكنولوجيَّة، والأهمّ من ذلك كلّه المعلومات. سافر إلى كندا وألمانيا

ليدرس الإجراءات والتقنيّات المستخدمة في المطارات وداخل الطائرات تمهيدًا لعمليات الخطف.

لم تُبدِ عمّتها دهشة ولم تعلّق بكلمة. هذا يعني أنّها تعرف هذا الجزء من ماضي والدها أيضًا. لمعت عينا نور بالحيرة وشيء آخر كالإثارة. استولت عليها نزعةٌ غريبة. فكّرت في أنّها أمام سيناريو متكامل وأداء باهر، وما عليها سوى أن تُخرج الفيلم هنا في الخلوة، ووالدها غارق برذاذ من ضوء الكهرباء المنبعث من زجاجة صغيرة على الحائط. صورته تقول إنّه كلّما رأى شابًا مثل سمير يفرح، يحنّ إلى أيّام النضال، ثمّ يعود إلى حياته المسطّحة قانعًا بها. النّظرة التي أطلّت من عينيه تستحقّ دقائق طويلة من العدسة. حتّى حبّات الزّبيب في كفّ خالتها مهيبة، والتي تلاشت في فمها، كانت تستحقّ صورة.

علا مواء قطط في الحيّ، فنفضت عنها هذه الأفكار. ستفهم كلّ شيء يومًا ما. عندها ستحاكم شخصياتها، ولكن على الشّاشة. سألت والدها إذا كان قد انخرط في حزب آخر بعد أن ترك الجبهة الشعبيّة، فرفع يديه في الهواء، وأعلن أنّه ابتعد عن العمل الحزبيّ نهائيًا. وأضاف: «من البيت عالشغل، ومن الشغل عالبيت. هيك مرتاح!». ونظر إلى ساعته بعد عدّة دقائق قائلًا: «تعبت، بدّي روح نام. يلّا نور مشّي». وقبل أن يخرجا من الباب، شدّت الستّ سارة على يد نور، وأوصتها بالتكتُّم على ما سمعته بين حيطان الخلوة.

فكّرت نور، حين خلدت إلى النوم، كيف تحوّل أبوها في نظرها إلى إنسان آخر خلال أيّام. لم تدرِ إن كانت تشعر تجاهه بالفخر لأنّه لم يتشبّه بأخويه، أو لأنّه ترك حزبه حين شكّ في أخلاقيّة ما يقوم به وجدواه. ومع هذا، لم تفهم كيف أبعد نفسه عن هذا الماضي.

بقي سمير في السّجن على الرّغم من مساعي محاميه. الأسى الذي اكتنف حياة مها وأمّها في الشهور الأولى، لم يخفّفه سوى توقُّف الاستجوابات وما تخلّلها من تعذيب. لم يكن أمامهما سوى الانتظار. سألت نور مها كيف انقلبت الأوقات الجميلة التي أمضتاها معًا في بداية الفصل إلى تعاسة وهموم، فهمهمت: «فش أنقى من قمر تشرين، ولا أظلم من عتمة كانون».

كانت نور قد شرعت في دراسة السيناريو والإخراج في السنة التي تعرّفت فيها إلى مها. تعود إلى دار شمس مرّتين في الشهر. تذهب إلى موقف سيّارة الأجرة في شارع جان دارك، وتتقاسم أجرة السيّارة مع عدد من الذاهبين إلى دير القمر وبعقلين. يضطرُّها الأمر أحيانًا إلى أن تغيب شهرًا كاملًا عن البيت، فتأتي سلوى إليها حاملة التينَ المعقود واللّبنة السّردالي والزّيتون الأخضر. يخابرها أبوها فتسمع في صوته اللّهفة والعتاب. تحكي لها كاميليا عن اعتراضات محفد الدائمة على إقامتها وحدها ببيروت. تشتاق إلى حديث عمتها وخالتها مهيبة اللّتين لا تستعملان الهاتف إلّا لأمر طارئ.

لم يكن سهلًا أن تتعوّد على الحياة في بيروت. تجفل من ضجيج السيّارات والهواء الرماديّ السّاخن الذي تنفثه وترميه على جسمها. تُنهكها وتيرة اليوم السّريعة. تقطع الشوارع المكتظّة بالسيّارات بحذر. غرفتها في مبنى أورمي غراي تبدو بنصف حجم غرفة نومها في دار شمس. سقفها أكثر انخفاضًا. وحين تأخذ نَفَسًا عميقًا بين حيطانها في آخر النّهار، تشتمّ رائحة الكنبة الصغيرة التي كانت مغلّفة بالبلاستيك ومسحوق غسيل الصُحون. تغمض عينيها لتتذكّر رائحة الخزامى التي تهفُّ من أغطية الأسرّة في بيتها. لم تكن تظنّ أنّ غياب الهواء الرّقيق والأعشاب البرّيّة سيسبّب لها الضّيق حين تخرج من الجامعة لتمشي في شارعَي السّادات وعبد العزيز. تفرح خلال أيّام الرّبيع والخريف بالجلوس على مقاعد الجامعة المختبئة بين الأشجار الباسقة وقرب نوافير الماء. لكن، حين يأتي الشتاء، تلجأ إلى الكافيتيريا المغلقة المملّة في مبنى نيكول. تمضغ طعامها وهي ساهمة.

كان البحر خارج الجامعة هو العِوَض عن دار شمس. تسير إلى المنارة والروشة كلّما تسنّت لها الفرصة. تقول لنفسها: مكان ليس فيه بقعة ماء أو ما يوحي به، هو محطّة انتظار، وفاصلٌ قصير بين مشهدين. البحر في بيروت هو الأكثر إثارة وسطوة. هو الذي بقي حين انفجرت الحرب فارتحل أناس ومات أناس؛ هو الذي بقي حين تهدّمت أحياء وتعمّرت أحياء؛ هو الذي خلق الودّ بين الناس والأمكنة، كأنّ النوافذ صُمّمت لأجله. شريط الوقت يمشي مصوّرًا تقلّباته كفيلم صامت يُعرَض في الغرف وأروقة المباني الشاهقة.

كانت لهجة نور غريبة عن أهل بيروت. كانت قافها قافًا وعينها عينًا. تسمع بعضهم يلحن بالحروف العربيّة كأنّه وُلد في لوس أنجلس أو فرنسا. نادرًا ما كانت تستخدم الكلمات الإنكليزيّة مثلهم. تقول زنّار بدلًا من سِنتور، واعمل معروف بدلًا من پليز. ربّما لهذا كانت لهجة مها تريحها. تبدو منسجمة مع لهجتها. وعلى الرّغم من ذلك، فإنّها لم تستطع أن تقاوم المدينة، ولا طعمَ نهاراتها الشهيّ وجنونَها العذب. تغلغلت بيروت شيئًا فشيئًا إلى مزاجها، إلى ضحكتها وحزنها. تلاشت صداقتها لشادية. أواصر الزّمالة المدرسيّة التي كانت تجمعهما في دار شمس لم تعد مقنعة. تنهار العلاقات المتعبة بسرعة في بيروت، لكنّها تثابر وتمدّ نفسها بالمقويّات في دار شمس.

• • •

قدم الشتاء ببرودته الباهتة للمرّة الثانية في بيروت. لجأت نور إلى المقاهي لطرد وحشتها. تجلس أحيانًا في سيتي كافيه عند ناصية شارع السادات. تفرش مقلمتها ودفترها الكحليّ السّميك على الطاولة المربّعة. تقرأ وتدوّن ملاحظاتها، وتنظر من وقت إلى آخر إلى لوحة كولاج لرفيق شرف معلّقة على الحائط. قصاصات من صور فنّانات وممثّلين وكتّاب؛ خيالات من الفرح والحذر. كانوا في مقهى «الهورس شو» قبل الحرب التي لم تشهدها. وحملها رفيق شرف سنة ١٩٧٨ إلى مقهى المدينة كي لا تبقى غريبة.

تعرّفت في هذا المكان إلى إيلي. بدأت تسترق النّظر إلى طاولته التي تمتلئ بالأصدقاء والكتب والجاكيتات وفناجين القهوة. تنتظر طيف ابتسامته الخلّابة. قال لها يومًا من دون تمهيد: «هلّق رح تطلبي غلّاية قهوة. رح تنطريها شوي لتركد وبعدين رح تصبّيها بالفنجان وتخلطيها بالحليب. بعدين رح تطلبي كريم كراميل أو غاتو». ضحكت بخجل وقالت:

ـ شو عم تراقبني؟

ـ طبعًا! عم سجّل كلّ حركة.

ـ هههه. وإنتَ شو بتطلب عادة؟

ـ واضح إنّك مش منتبهتيلي. على فكرة، أنا إيلي.

- وأنا نور.

مدّ يده من وراء الطاولة من دون أن يقف. اقتربت خطوتين وتركت يدها تلتصق بكفّه وتمتصّ حرارتها. حبّات من اللّهفة انسكبت في عروقهما.

ضحكت بتشنج واستسلمت نظراته لشفتيها. بدا لها كأنَّ تسريحة شعره وألوان قميصه اختيرت باعتناء. همس قائلًا:

ـ حلوة لهجتِك، بتعرفي؟

ـ أنا من الشوف.

ـ عن جدّ؟ نحنا بالأصل من دير القمر. بس أنا عشت كلّ حياتي ببيروت، بمار إلياس.

ـ دير القمر ضربة حجر من عنّا.

همَّ بأن يقول شيئًا، لكنَّه سمع شخصًا يناديه. مدَّ يده تحت الطاولة وأخرج عكّازين، استند عليهما ووقف، ثمَّ راح يأخذ خطوات بطيئة في اتِّجاه نور. كانت إحدى رجليه قوِيَّة يتَّكئ عليها بسهولة ويقوم بجَرّ الأخرى. صُدمتْ من المفاجأة. حاولت أن تنظر في اتِّجاه آخر كي لا يرى ما تقوله عيناها. حين سألها: «بتحبّي نرجع نلتقي؟» وافقت بسرعة كأنَّها تحاول أن تُبعد عن نفسها أيّ شبهة. حوَّلته رؤيته مشلولًا لأوَّل وهلة إلى أقلّ من رجل. أشعرتها بالخجل والجمود كأنَّها تقف عارية في غرفة انتظار باردة. العدسة التي في داخلها، لم تلتقط من قبلُ خطوطَ الأجساد الخالية من السّيمتريّة.

توالت اللّقاءات بينهما بفعل جرأته وفضولها. يخدّرها الإحساس بلهفته، بشهوته إيَّاها. تتشوَّق إلى سماع أخباره. كان مكانهما المعتاد مقعدًا قرب مبنى سايج تحت شجرة اللبخ. تلتوي أغصانها وتفيض شمالًا ويمينًا لتتشابك مع جذوعها الجديدة. يفتنها حضورها وينفّرها في الوقت ذاته. تبدو لها مخلوقًا عظيم الشأن يوحي، مثل إيلي، بالتفرُّد والإعاقة معًا.

• • •

سجَّلت لصفّين إضافيّين في جامعة القديس يوسف، نزولًا عند رغبة الدكتور إليوت برنارد، المشرف على دراستها. كان يحاول في نيسان إقناعها بإكمال تخصُّصها في جامعة كولومبيا في نيويورك. نظر إليها بحماسة وقال: «يو هاڤ إكسيلينت غرايدس!». وشعرت حينها كأنَّ الغبطة حوَّلتها إلى عصفور.

تخلَّت في المساء عن تردُّدها نحو الانجراف في علاقة حميمة مع إيلي. كان يوم جمعة. اتَّصلت بأهلها لتخبرهم بأنَّها ستبقى في بيروت، ووافته إلى مقهى ويسكي مِست. حرَّرت ساقيها المنضويتين وراء

البنطلونات، ولبست فستانًا أسود ضيّقًا. عقدت خصلات قليلة من غرّتها بدبُوس برّاق وتركت شعرها يسترسل على كتفيها.

نظر إيلي إلى جسمها وقسمات وجهها، ثمَّ همس بشيء من الحزن لم تعهده فيه: «هيدي أوَّل مرّة بشوف جسمك كلّه هيك كيف مركّب. كأنّك صرتي مَرَة مرّة واحدة. واللّه خايف على حالي». احمرّ وجهها، وشعرت هي الأخرى بشوق مماثل. علّقت ضاحكة:

ـ ليش كان نُصني مَرَة؟

ـ لا، بس التياب الواسعة اللّي بتلبسيهن ما بيفرجوني شي.

ـ اللّيلة تفرّج قد ما بدّك.

ـ منيح اللّي سمحتيلنا يعني.

ـ لأن بكرا بالجامعة رح إرجع للتياب الواسعة، هههه.

ـ إي، اضحكي بعد. سَفعيني صوتك لأن بعد شوي ما رح نسمع شي بالضجّة. صوتك بيركّعني! صوتك مش صوت عادي... يعني منّو لَمَرة ولا لرجّال.

لاذت بالصّمت. شعرت بأنّ روحها انعكست في عيني إيلي وأنّ الصُورة التي التقطها مطابقة لها. إنّه يرى أنوثتها ويحسّ بها. لأوّل مرّة تفكّر في أنّ وجه الشّبه بينها وبين الرّجال لا يُخجلها. اقتربت منه وهمّت بتقبيله، لكنّ عودة أصدقائهما جعلتها تكتفي بتأبُط ذراعه.

تسلّلت إليها الموسيقى والأضواء الحارّة مع عطر إيلي، عبقِ خشبٍ ابتلّ بماء المندرين وجوز الطّيب. التصقت به واشتبكت أصابعهما. تحوّلت لمساته إلى قبلات خاطفة جعلتها ترتجف. ودّعا الشلّة قرابة السّاعة الحادية عشرة ليلًا، وخرجا من المقهى. انطلقت سيّارة الأجرة بهما إلى بيت صديق له في مار إلياس. كانت أصابعه ترتفع إلى ظهرها، تضغط على كتفيها وعنقها، ثمّ تنحدر إلى جانب ثديها الأيسر فتفور أحاسيسها.

لفحها هواء بارد، حين وصلا إلى المبنى الذي تقع فيه شقّة صديقه، فهدأت بعض الشّيء. كان المدخل معتمًا. أمسكت بيده فجأة وقالت إنّها لا تستطيع أن تنام في بيت صديقه. قرّرت أن تعود إلى أورمي غراي، فحثّها على الجلوس قربه على الأدراج. ساعدته ووضعت عكازيه جانبًا. تأبّط ذراعها فألقت برأسها على كتفه.

كان الحيّ هادئًا وضوء ضعيف يأتي من عمود كهرباء بعيد. استدار

وقبّلها قبلة محمومة. ضمّته وقبّلته بأجمل منها. مرّ بيده على خصرها ثمّ دسّها بين فخذيها. تركت نفسها تخوض هذا النعاس الذي يقذفها نحو موجة صغيرة، ثمّ يتركها تبتعد مع موجات أكبر إلى أن تنزل المنحدر ويتقهقر جسمها في الماء. يستسلم للّذة كما يستسلم الغريق للموت. شعرت بصوت أنفاسه يتصاعد أيضًا، وبيده تأخذ يدها إلى المخابئ التي تبرّد شهوته.

مرّت خمسة أعوام على قبلة أكرم لها. لم تكشف تلك القبلة لها عن مشاعر الحبّ، بل عن الشهوة، والعبء الذي تحمّله للعقل والعاطفة. كان ما حدث حماقة؛ حماقة ضروريّة. تتمدّد الآن الكآبة في صدرها على الرّغم من مشاعرها العميقة تجاه إيلي. تشعر بشيء من الخيانة له ولنفسها في كلّ مرّة تضجّ بالرّغبة. هذا الجسم، جسمها، يقف لها بالمرصاد. يبدو لها عدوانيًا. لماذا لا تصغي أعضاؤه إلى رغبتها؟ لم يتعدّ توقها إلى إيلي تلك اللّمساتِ المحمومةَ التي كانت تحدث بعفويّة بينهما من حين إلى آخر. يتحدّث عن حبّه لها، لكنّها تبقى متردّدة. تردّد لِمها أنّها تحبّه على طريقتها، لكنّها عاجزة عن أن تخطو خطوة واحدة في أيّ اتّجاه. وحين اقترح عليها استئجار غرفة في أحد الفنادق وقضاء عطلة آخر الأسبوع هناك، رفضت. أهي عذريّتها التي لا تُريها إلّا صورًا أثيريّة عن الأجساد؛ صورًا لا وجود لها؟ ألذلك تجفل حين تفكّر في ساقيها في اللّحظة التي ستلامسان ساقيه العاريتين المشلولتين؟ أم لأنّها نشأت بين أناس يتباهون بعفّة نسائهم ويهدّدون من يتهاون فيها؟ تعرف أنّها خائفة، وأنّ الشعور بالخطر يجعل الأجساد سمجة مضطربة.

• • •

كانت الأناقة طقسًا بالنسبة إلى إيلي. تتغيّر تسريحة شعره باستمرار. يتابع الموضة العالميّة كأنّه عارض أزياء. يُغدق أفراد عائلته الهدايا عليه. يشتري ما يحلو له. يمزج بين الألوان والأقمشة التي يراها الناس متنافرة. يمضي معظم أوقاته في وسط بيروت. تبدو بيروت للآخرين، من هذا الوسط، ناقصة، قال لنور يومًا. لا تمتّ إلى الكمال بصلة، كأن فيها عطبًا مثله، لكنّها على عكسه تعرف كيف تخفيه. تعرف كيف تُنسي الناس جسمها القديم الأوّل وتجعلهم ينشغلون بجسمها النظيف المُترَف. حين ثار بعضهم لبيروت الأولى، صار هو يحبّ أن يصبح مثل وسط بيروت، قادرًا على أن يضع أشياء باهرة على جسمه تجعله ينافس كلّ الرجال الذين عاشوا بساقين طبيعيّتين. ينفر بعضهم من وسط بيروت

أو يخاف مجاراتها، إلّا هو. يهذي بحنينه إلى بيروت التي كانت في نظره كاملة، بيروت التي ولّت. يمقت الحقيقيّة بعيوبها، وهو يمقت الذين لا يبحثون في بيروت إلّا عن الأصل والأصالة. ماذا يكون هو، إذًا؟ صورة مشوّهة؟ ممسوخة؟

كان، في البداية، يأتي على ذكر الحادث الذي تسبّب بإعاقته، كجملة ابتدائيّة في حديث. لا يرفُ له جفن. لا تفارق البسمة ثغره. قبل لقائها حسن لم تكن تعلم بالمعادلات التي يستخدمها إيلي ليتصالح مع رجليه. لم يرسم حياته لها من قبل بالأسود والأبيض. لم يشأ أن يخرّب الصُورةَ المشبَعة بالألوان التي قدّمها عن نفسه.

تواعدا على اللّقاء في ذلك الكافيه المستدير في شارع مدام كوري. تغيّر يومها كلّ شيء. رأت صبيًا يتحدّث إليه، يلبس جاكيتًا رماديّة ذات أكمام واسعة ويضع قلنسوة نبيذيّة. أخذ يُبعد شتلات المنثور التي دفعها الهواء البارد نحوه، يردّها عن وجهه كأنّه يكشح الذباب. صرخ بإيلي: «إي حاااج تقلّي عيب! شوف أبوك شو عمل فيك. إي أنا كنت دعوستو...بس إنت جبان!». جذبه إيلي من سترته حتّى انحنى فوقه. أوقع قلنسوته وكمش خصلات من شعره الذهبيّ الكثيف. صرخ من الوجع ثمّ لطم إيلي على رأسه وقهقه عاليًا، فصرخت به نور ليترك إيلي وشأنه. بان الغضب على محيا إيلي، وقال لها بانفعال: «ما تتدّخلي. ما بدّي محامي!». ارتبكت. تقدّم الضبي بضع خطوات نحوها وتمتم بتهكّم: «جي سوِي حسن. آيْ أمْ حسن. بيحكوا هيك ولاد الجامعات، يا إنكليزي يا فرنساوي. إنتِ من أيّاهم؟» رأت وجه طفل كبر بسرعة. كوت جلدَه الشمسُ وغطّى اصفرار كالح أسنانَه. استدارت لتغادر المقهى. لم ينظر إيلي نحوها ولم يحاول أن يقنعها بالبقاء.

خابرها في مساء اليوم التالي ليعتذر عمّا حصل. لم تجب فهمس: «ما بيهون عليّ زعلك حبيبتي. إنتِ ما بتعرفي شو عاملة فيني». سألته عن السّبب الذي يجعله يهتمّ بصبيّ أرعن لا يتوانى عن الهزء به وإهانته. قال بصوت متعَب إنّ حسن لا يمكن أن يشفق عليه لأنّه قليل العاطفة ولا يرى شلله أسوأ من تسوُّله وتشرُّده.

بدأت الذّكرى تجرّ ذكرى أكثر إيلامًا وهو ينحدر إلى أعماقه. كان يتوق إلى الكلام، وهي أرادت يومها أن تحتفظ بكلّ ما قاله. استيقظت من النوم بعد ساعات من إقفال خط التليفون وكتبت كلماته: «في الأسابيع الأولى التي تلت دخولي الجامعة، كان الغضب والألم يتناوبان على

إضعافي. أردتُ أن أتنقَّل من مكان إلى آخر من دون مساعدة أحد. كنت لا أزال أستخدم الكرسي وليس العكازين. ولسوء، حظّي، كان رجال الأمن قد تلقّوا رسالة من مجهول يهدّد بقتل عميد الطلبة إذا استمرّت «الجامعة بالتسامح مع اللواط وتجاهل فسقهم وانحرافهم داخل حرمها». أقفل عندها رجال الأمن البوّابتين، العلويّة في شارع طبّارة، والجانبيّة في شارع لامنس. كانت البوّابة العلويّة أكثر المنافذ اتّساعًا. والباحة التي تؤدي إليها مستوية الأرض، مفتوحة على أكثر من جهة، وليس فيها أدراج. كنت مستلقيًا في فراشي ليلًا أرسم في رأسي طريق سيري. جعلتني الإجراءات الأمنيّة في حاجة إلى شخص يحملني من البوّابة السفلى حتّى مبنى سايج، وهذا ما كنت أرفضه. سيطر عليّ كلّ هذا الإباء وهذا الوجل. كنت غاضبًا من نفسي ومن شللي ومن الجامعة. لم أحتمل دموع أمّي وشفقتها. كانت مشقّة التنقُّل في حرم الجامعة أسوأ ممّا توقّعت، فأُجبرت على قبول مساعدة رجال الأمن والمارّة. وبدأتُ أشفق على نفسي. لكم أكره الأدراج!

رأيت حسن في ذلك الوقت. جاء ليشحذ المال في حديقة كافيه درويش يومًا. نجيب وزميل آخر اسمه عصام أعطياه ما بقي في جيوبهما من الليرات. عدّها وهزّ برأسه ممتعضًا، ثمّ شكرهما باقتضاب. تصرّف كما لو كان له حقّ علينا جميعًا. تتساءلين لماذا لم نطرده؟ بالنسبة إلى نجيب وعصام، أعتقد أنّ الجواب واضح، وهو الشعور بالذنب من رغد العيش. كان حسن مصدر تسلية أيضًا. نعم تسلية، فهو مخلوق غريب من عالم غريب عنّا نحن، الطبقة الأكثر توسّطًا وهناءً في بيروت. أمّا أنا، فكنت مدفوعًا، على عكس رفاقي، إلى الاستماع إليه.

حاولت، يوم جاء يشحذ المال، أن أنظر إلى الناحية الأخرى لعله يتركني وشأني، لكنّه دار حولي، ونظر مباشرة إلى عينَي وقال: «أنا لا أبالي بمنظرك على هذا الكرسي! لو استطعت أن آكل في المطاعم مثلك وأدرس وأتفسّح، فسأستعيره منك!». منعتهم يومها من أن يضربوه. أمّا هو، فلست أدري ما الذي جعله يلازمني. قلت له: «تستطيع أن تشتغل لو أردت». طبعًا كانت هذه جملة يردّدها الكثيرون. جملة تبدو منطقية، لكن لا معنى لها في الواقع. أجاب: «وأنتَ، هل حصلت على هذا الكرسي من عملك، أو من بابا نويل؟» لكم صرت أنتظر قدومه ليُلهيني عن نفسي! بل كنت أبحث عنه. أصرخ عليه إذا أردت، ويصرخ عليّ. لم يكن أحد منّا يرحم الآخر!

كان حسن نزقًا ووقحًا، وبقي كذلك كما ترين. لا يتحدّث عمّا يضايقه، بل هو أشبه بإنسان لا يُحسن استخدام اللُّغة. لم يستطع المداومة

في أيّ عمل. ربّما كان أبلهَ. كيف لي أن أعرف. عمل مرّة حمّالًا في البور، لكنّ أوجاع ظهره أجبرته على التوقُّف. يعتقد أصحاب العمل أنّ أولاد الفقراء خُلقوا بعمودين فقريّين بدلًا من واحد، على حدّ قوله.

أُجريَت، بعد انتهاء الفصل الأوّل، عمليّةٌ في إحدى ساقيّ، ثمّ ابتدأتُ بالعلاج الفيزيائي. قويت هذه الساق فعلًا، وصرت أجرّ بها الأخرى، ولم تعد هذه مشلولة تمامًا عن الحركة. بكت أمّي كثيرًا حين أخذت خطواتي الأولى مستندًا إلى العكّازين. لثَمَتْ وجهي متضرّعة: «نشكر الرّب».

كان أبي قد غادر البيت إلى غير رجعة منذ سنوات. هو المسؤول عن كلّ ما حدث لي. كنت في الثالثة عشرة من عمري حين ركضتُ كالمجنون إلى ورشة البناء حيث كان يعمل أبي كمهندس مشرف. استبدّ بي الغضب بعد أن رأيت الكدمات على وجه أمّي من جرّاء ضربه لها. كبرتُ بسرعة في السنتين الماضيتين حتّى صرتُ أطولَ منه وأجسَم. هدّدته بكسر جمجمته إذا سوّلت له نفسه وضع يده عليها. قلت له إنّني أصبحت رجلًا. وحين همّ بضربي، أمسكت بذراعه ولويتها، قبل أن يأتي عامل سوريّ ليفصلنا، أحدنا عن الآخر. كان قد حمل رفشًا كبيرًا وأخذ يهدّدني به. ابتدأت أتقهقر حتّى وجدت نفسي أهبط من الطابق الأوّل للبناية، فوقعتُ على الباطون اللّزج المحاط بكومة من الرمل.

لم أمش بعدها سوى في الحلم. يقوم الحلم بتكرير التّعاسة، أو الأحرى بتدويرها، لأنّها كالجماد لا كالسوائل. كان جناحايَ يتساقطان عن جسمي حين أفتح عينيّ. أعرف أنّني لست عصفورًا. أبكي وأتمنّى أن أتحوّل إلى أرنب كالذي تربّيه أمّي، لا يعي شيئًا. ولو رأى صورته فلن يتعرّف إلى نفسه. جعل الخوري في كنيستنا حادثتي قضية، فاهتم بي وبأمّي كثيرًا. ذكّرني بأنّني مسيحيّ وعليّ أن أسامح والدي كما فعل المسيح حين أعلن محبّته لأعدائه وهو على الصليب. لم أعد أذهب إلى الكنيسة، لكنّني بدلًا من أن أتخيّل نفسي أقتل أبي، كما كنت أفعل، صرت أتخيّل نفسي أقتل الخوري وأتلذّذ بذلك.

لم ينتشلني من هذا الوضع سوى قيدا الخيّاطة، أو مصمّمة الأزياء كما كانت تصرّ على أن يسمّيها الجميع. أرملة تسكن في بنايتنا. تحرّرتُ معها من كلّ مشاعر الغضب والقهر. أحببتها وأحبّتني ومارست الجنس معها لأوّل مرّة. كانت تكبرني بسبع عشرة سنة. وصرتُ في حضنها فحلًا، كما كانت تقول لي ضاحكة. خاطت لي أجمل الثياب. المظهر الخارجيّ ليس تفصيلًا تافهًا، كما يظنّ البعض. فالظاهر منّا لم نحصل عليه بالصُّدفة،

هكذا كانت تقول. كنت أستغرب كلامها. تشتكي من أن الأسواق تطالبنا بجسم جميل لم نولد به. وتطلب من النّساء أن يتحوّلن إلى صبيان لم يبلغوا بعدُ. ألا ترى كيف يأتي أشهر المصمّمين بعارضات أزياء لهنّ أجسام صبيان صغار. لا يحسبون حساب ثديَي المرأة أو وركيها أو بطنها. يريدوننا أن نعيش في مجاعة. ألا يكفي كم نُجهد أنفسنا بالرّياضة والريجيم وعمليّات التّجميل؟ غالبًا ما يخذلنا هذا الجسم. لذا، يجب أن نداويه بالثياب.

هاجرت ڤيدا إلى كندا وأنا زاد وزني كثيرًا حتّى أصبح المشي عسيرًا عليّ ومؤلمًا. وصار الحفاظ على وزن خفيف هدفًا من أهداف الحياة. وباتت الهيئة الجميلة المغرية هاجسًا. أردت أن أحوّل بها انتباه الناس بعيدًا عن رجلَيّ العاجزتين. كان الاعتناء بمظهري يُشعرني برقّة ڤيدا وعطر شفتيها. ستتساءلين ما علاقة كلّ هذا بحسن الشحاذ؟ كان عليّ أن أتخلّص من ثلث ما آكل حاليًا وأقوم بالرياضة الأسبوعيّة في الماء. ما وفّرته من المال بسبب الانقطاع عن كثير من المطاعم الباهظة أعطيته لحسن. لا تسأليني لماذا أقوم بذلك. أعرف أنّنا مرتبطان بطريقة غريبة».

شعرت نور بالدُموع تغطّي وجهها، حين توقّف إيلي عن الكلام، وغاب صوته المتهدّج. لكن بعد أسابيع، حين أعادت قراءة ما كتبته عنه، ابتسمت وخفق قلبها كأنّ الكتابة أزهقت الحزن. «حتّى الوجوه لها صلة بالسّرائر»، هكذا قالت له ڤيدا. كانت عمّتها سارة وخالتها مهيبة ماثلتين أمامها. ضخت خالتها مهيبة بجمالها، بعد فقدانها وحيدًا، لم تعد تهتمّ بظاهرها الذي يُعجب الآخرين، سعيًا وراء جوهر روحيّ؛ شيء من السّعادة. نقلت عاطفتها من الرجل إلى اللّه، ولم تعد تمارس أنوثتها. أمّا إيلي فقد تعالى على إعاقته من خلال تجميل الظاهر. قالت له نور ممازحة إنّ حسن لن يقبع عن التسوُّل إذا عرف أنّه يخصّص له ميزانيّة أسبوعيّة. حاول أن يضحك، لكنّه لم يفلح. أجاب: «صدّقيني، إذا قلت لك يا نور إنّه لم يُبدِ تعجُّبًا ولا شكرانًا بعد أن عرف بقراري بشأن تخصيص هذا المال له. هو شامخ كالجَمَل، وهو أقسى طفل عرفته. لا تنطبق عليه أخلاق الشحّاذين ولا أفعالهم. أريد أنا أيضًا ألّا تنطبق عليّ أخلاق المُقعَدين وتصرُّفاتُهم. هل هذا صعب؟

• • •

قرّرت نور يوم الأحد حضور عيد ميلاد زميلة لها في ساقية الجنزير لتكون مع إيلي. وضّبت ثيابها وحملت كتبها على عجل. سألت كاميليا إن

كان لديها هدايا مختومة. «متل شو؟» سألتها، وجرّت كرسيًا ثمّ وقفت عليه ونظرت إلى بعض العلب المستّفة على سطح الخزانة. تمتمت: «عندي علبة... شامبو وكريمات للجسم و...». أجابت نور: «يللّا اعطيني ياها. صار لازم روح». اقترب محمّد منهما وقال مستنكرًا:

ـ لوين هلّق رايحة؟

ـ على عيد صاحبتي.

ـ يعني رح ترجعي على الجامعة باللّيل! البنات ما بيسوا...

ـ ليك، مش فاضيتلك!

ـ غصبن عنك! مين هاي البنت اللّي بتحضر حفلات باللّيل؟

تدخّلت سلوى لتقول له إنّه بات يقلّد إيادًا بطريقة عمياء. ووصل بدري فسمعه يردّ قائلًا: «إياد وبيت إياد بيعرفوا يرئوا البنات. مش متلكن!»، ثمّ غادر بهو البيت.

وضع بدري يده على معصم ابنته، عند موقف سيّارات الأجرة، ونصحها بألّا تتبع أهواءها، وأن تدرك جيّدًا إلى أيّ عائلة ومجتمع تنتمي. احمرّ وجهها من هيئته الفاحصة. لم تكن تحمل بين ضلوعها من الحبّ تجاه إيلي ما يدعها تهزّ كتفيها بشجاعة وتقول له: «مسيحيّ؟ وإذا؟» ارتسم أمامها إيلي ضاحكًا، مقلّدًا خالته وهي تقول: «ما لقيت تحب إلّا واحدة درزيّة! يا خالتي البنات أكتر من الهمّ عالقلب. نقّيلك شي واحدة تانية. بعود عن الشرّ وغنّيله». قالت له نور يومًا:

ـ دار شمس ودير القمر ما رح يلتقوا. ماشيين كلّ وحدة بفلك.

ـ لا. بيتقاطعوا.

ـ كيف؟

ـ في وقت بيطلع فيه القمر وبتكون الشمس بعدا بالفلك، مش هيك؟ بهاللّحظة بيصير كلّ شيء محتمل، حتّى حبنا أنا وإنتِ.

ـ الشمس بتحرق.

ـ وبتدفّي.

ـ والقمر شو وظيفته بالتحديد؟

ـ بيسبّبلنا الجنون؛ جنون الحبّ.

ـ أو جنون القتل.

ـ يمكن. كل شيء عنّا بيحتِمل الأضداد، متلك يا نور، متل وجّك

الأبيض وشعرك الأسود.

كانت تعرف، وهي صغيرة، أنَّ أواصر الألفة التي نمت بين دار شمس ودير القمر في عهد الأمراء المعنيِّين والشهابيِّين تقطَّعت على يد المتصرِّفيَّة. جرى تقسيم الجبل إلى مسيحيين ودروز. دعم الفرنسيُّون المسيحيِّين وصار الإنكليز حلفاء للدروز، مدافعين عنهم، إلى درجة أنَّ أحد سفراء إنكلترا في الأستانة أعلن، في موقف عاطفيّ غريب، أنَّ مسيحيِّي لبنان عشيرة همجيَّة بربريَّة! تمرَّغت بعدها دير القمر ودار شمس في الدِّماء. اعتدى بعض المسيحيِّين، في سنة ١٨٦٠، على رجل درزيّ، فخرجت من دار شمس والقرى المجاورة أفواجٌ من مقاتلي الدروز، حاصرت دير القمر مدَّة ثلاثة وعشرين يومًا. وحين اشتدَّ الجوع على أهلها، استسلموا، فنهبها وأحرقوا بيوتها. ثمَّ لم يمضِ وقت طويل حتَّى خرجت جماعة من المسيحيِّين، من جهة الغرب، وقتلت من الدروز ما يزيد على مئة شخص. يومها كان قناصل الإنكليز وممثِّلا المصالح العثمانيَّة، خورشيد وطاهر باشا، يؤلِّبون الطوائف والأفراد في لعبة القطّ والفأر، فساعةً يسعون للصلح وساعة يحرِّضون على الفِتَن.

اشتهر، على لسان الناس، أنَّ الشَّيخ سعيد جنبلاط كان غولًا على هيئة إنسان. خطب في المقاتلين حين تجمَّعوا عند مدخل دير القمر قائلًا: «إيَّاكم أن تُبقوا على ذَكَرٍ منهم!». ثمَّ وقف ثلاثة من رؤساء الدِّين أمام الجمع الغفير، فنطق كبيرهم قائلًا: «كلّ ما يقع في أيديكم من الأمتعة والأموال هو حلال لكم. هو مُباح لجميع العقَّال والجهَّال. إنَّ قوَّة أهل الجنَّة تغلب قوَّة أهل النار». لم يخطر في بال أحد أنَّ السَّعي نحو الجنَّة أصبح مثل الاقتراب من النار. وحين غابت الشمس، كانت طرقات دير القمر مرسومة بجثث القتلى. ارتفع صراخ الثكالى في كلّ حي. وأحرقت كنيسة سيِّدة التلّة، وقُتل مَن كان هناك من الرُّهبان. ومن سَلِم من الصبيان تاه مع النساء والبنات في الجبال والأودية. ركض بعضهم عاري الجسد ملطخًا بالدِّماء وبعضهم لم يقوَ على الهرب بسبب المرض والجوع.

حين سألت نور أمَّها عن المذابح التي وقعت خلال آخر هذه الحروب سنة ١٩٨٢، وعمَّن ارتكبها، علَّقت الأمّ: «همج! هيك ناس بلا عقل وبلا علم». قالت هذه الكلمات كأنَّها أُصيبت بالملل أو بكسل مفاجئ. كأنَّ الخوض في موضوع الحرب غير مُجدٍ. الهمج هم سَفَلة الناس، ونور كانت على يقين بأنَّ المجازر كانت كذلك من صنع عليَّة الناس. أهكذا يجتمع السَّفلة مع العلِّيَّة... في المجزرة؟

• • •

اقتربت نور من صاحبة العيد وهنَّأتها، ثمَّ قدَّمت إليها الهدية التي تبرَّعت بها كاميليا. لمحت عُكَّازي إيلي وسط الزحام والموسيقى الصاخبة فمشت نحوهما. رأته مستلقيًا على أريكة صغيرة، تجلس قربه فتاة بنظَّارة كبيرة. عرَّفها بها، قائلًا: «سالي. هي معي بصف السايكولوجي». اكتفت سالي برمي رأسها إلى الخلف بدلال، قائلة: «هاي، هَو آر يو؟» ثمَّ وقفت وأخلت مكانها لنور.

شدَ إيلي نور نحوه وقبَّل عنقها. مرَّرت أصابعها على شعره والتقت شفاههما للحظة. ابتعدت عنه فجأة، وقالت: «لازم نوقِّف، هلِّق بيشوفنا حدا». أجاب: «متل العادة. بدَّك وما بدَّك! مش هيك؟». لم تُجب. طالعتها أجساد المدعوِّين المتراصَّة. شعرت بالطمأنينة لأنَّها بعيدة عن دار شمس، وفي مأمن من أيِّ لوم.

لم تنم تلك اللَّيلة جيِّدًا وهي تفكِّر في جملة إيلي: «بدَّك وما بدَّك، مش هيك؟» فكَّرت أيضًا في مشاعرها تجاهه. هل هناك درجات في الحبّ؟ عالية؟ منخفضة؟ متوسِّطة؟ فتحت حاسوبها، فرأت رسالتين جديدتين في بريدها تتضمَّنان عددًا من صور الحفلة. خمس عشرة صورة تقريبًا انبثقت من كوداك ديجيتال كاميرا، وأُرسلت إلى بريد المدعوِّين الإلكتروني. أبهذه السُرعة أرسلتها صاحبة العيد؟

طالعتها صورتها هي وإيلي على الأريكة. كبَّرتها. يشعّ الفرح من عينيه. يهمّ بهمس شيء في أذنها. أمَّا هي فوجهها ممتقع ونظرتها باهتة. يداها مشدودتان فوق ركبتيها. عثرت على وجه سالي في الصُورة ذاتها. دفع الفضول نور كي تقرَب صورتها: تنظر بأسَى إليهما. في صورة أخرى تلتصق بإيلي. تأخذ من يده كأس النَّبيذ ووجهها يطفح بالهيام. إذا كان هذا هو الحبّ، قالت نور لنفسها، فهي لم تحبّ أحدًا في حياتها، لا إيلي ولا أيّ رجل آخر. شعرت بالفراغ والغثيان كأنَّها ضبطت نفسها بالجرم المشهود. لماذا لا تشعر بالغيرة من سالي؟ لماذا تحسدها على أحاسيسها؟

• • •

وصلتها، في آخر آذار، رسالة من أميركا تنبئها بأنَّها حازت القبول من جامعة كولومبيا للتخصُّص بكتابة السيناريو والإخراج. أصيب إيلي بخيبة أمل قاسية. استوقفه عدم تطرُّقها إلى الموضوع من قبل، وتجاهلها ما سيحدث لعلاقتهما حين تسافر. وعزت مها انكفاؤه إلى شعوره بالإهانة.

أدمعت عينا نور وقالت لها:

ـ مش قادرة ضلّ معه.

ـ ليش؟

ـ خلص مها! إنت عارفة. إنت قلتيلي إنّه في شي مش زابط. إي! ما بعرف إذا كنت بحبّه.

ـ كنت عارفة إنّو المسألة منهاش مسألة سفر ودراسة.

ـ لا.

ـ إذًا، إبعدي عنّه. بلاش تتركيه يتعذّب.

رأت في بريدها الإلكترونيّ، بعد يومين، رسالةً منه. أخبرها بأنّه ليس متوهّمًا. لا يعرف إذا كان يستطيع أن يتزوّج ويعيش حياة طبيعيّة. يعرف أيضًا أنّه مسيحيّ وهي درزيّة. لذا، يجب أن يُنهي هذه العلاقة المتأرجحة بين الصداقة والحبّ. شعرت بالحزن. كانت هذه المرّة الأولى التي يأتي فيها على ذكر الفارق الدّينيّ بينهما. الدّين عائق يشبه الشلل، بل يوازيه. لو تحقّق زواجهما لبدا للآخرين جسمًا معطوبًا يمزج من كلّ دين عضوًا يعيق الحركة. أصبح الآن هذا الاختلافُ شائبةً في عيونهما، وتعرُّجاتٍ في جسديهما، في المادة الأساسيّة التي لا يغيّرها الفوتوشوپ.

اتّصل بها بعد أسبوعين في ساعة متأخّرة من اللّيل. قال: «صعب إبعُد عنّك بس لازم!» سكت وعلت أنفاسه. وأضاف أنّ فشل حبّه لها حرّك كراهيّته لوالده من جديد. أرادت في تلك اللّحظة أن تحضنه وتسامح نفسها. سألته:

ـ بتحبّ نلتقي ونحكي؟

ـ لا، لا. منحكي بالتليفون. ما بدّي إرجع شوفِك!

ـ صاير معك شي؟

ـ لا. بس تعوّدتْ إشكيلك همومي... تعوّدت إسمع صوتك.

ـ وأنا كمان... بس... بس ما عاد فينا نرجع لورا.

ـ رح تنسيني؟

ـ معقول إنساك؟

ـ بس أنا حابب إنساكِ!

ـ إنت قويّ وأنا... بستاهل.

ـ شو النّفع؟

ـ عم لوم حالي.

ـ لا، أنا كنت شايفك محتارة، بس كان عندي أمل. هلّق خلص.

تمنّت لو ترجع عقارب السّاعة سنة إلى الوراء. تمنّت لو قالت لإيلي في سيتي كافيه، وهي تنظر إلى الحصان المسحور في اللّوحة تحت جسدَي عنترة وعبلة، إنّها لن تلتقيَه من جديد. كان ذلك أسهل. لم تستطع أن تواكب الصُّور التي التقطتها ذاكرتها عن تلك اللّحظة. خيارها الوحيد كان أن تعبر فيها. عندما يقفز الوقت فقزة عالية، يتم تحميض الصور فترتسم تفاصيلها الحلوة والمُرّة أمام ناظريها.

• • •

وصلت إلى دار شمس مساء يوم الجمعة. علمت بأنّ خالتها مهيبة طريحة الفراش تعاني توزُّمًا في ساقها اليسرى من جرّاء التهاب حادّ في الكليتين. التقت حين وصلت إلى باحة الخلوة بعضَ نساء العائلة. تهلّل وجه إحداهنّ وقالت: «إنت هون؟ كيفك يا سَنَدي؟ عم تتعبي بهالجامعة؟» ولم تنتظر أن تجيبها فسألتها امرأة أخرى: «ليش ضعفانة هيك؟ أبيسواش، لازم تاكلي!». ابتسمت وهزّت برأسها متمتمةً: «انشاللّه»، ثمّ دخلت الخلوة.

كانت السّتّ مهيبة تغطّ في نوم متقطّع. رأت قرب فراشها صينيّةً عليها أكواب عصير اللّيمون وماء الهندباء وبعض الأدوية. غطّت لها قدمَها السّتُّ سارة باللّحاف، ثمّ وضعت يدها على رأسها لتتأكّد من أنّ حرارتها قد انخفضت. ونظرت، بعد بضع دقائق، إلى نور فوجدتها ساهمة مستسلمة لهمٍّ دفين. سألتها:

ـ كأنّك مش مرتاحة؟

ـ لا يا عمّتي، بس هيك في شغلة محيّرتني.

ـ خير؟

تساءلت: كيف يمكن أن يتحوّل إعجاب امرأة برجل إلى فتور رغمًا عنها وعن صفاته الجميلة؟ لماذا لا يتحوّل إلى حبّ مثل الذي يكنّه هو لها؟ فهمت السّتّ سارة أنّها تتحدّث عن نفسها. وفتحت السّتّ مهيبة عينيها وقالت: «في فترة خفيّة بأوّل كلّ علاقة ما بيعرف فيها الواحد شو عم يشعر وليش». قبّلتها نور على رأسها وسألتها: «كيف صرتي؟» أجابت: أحسن يا بنتي»، ثمّ أكملت حديثها قائلة: «هيدا اللّي قاعد بين الضُّلوع سرّ. الحبّ ما إله قاعدة». ارتجف صوتها، وبدا عليها التأثُّر، فجفلت السّتّ

سارة وانحسرت ابتسامتها. سألت نور نفسها إذا كانت الستّ مهيبة تعبّر عن عشقها للّه أم لوحيد.

كسرت الستّ سارة الصّمت بقولها إنّ إعجاب المرأة برجل لا يعني الكثير ما دامت لم تتعرّف إلى نفسها، وهذا يحتاج إلى وقت غير الوقت الذي نعرفه ونتحدّث عنه. يدور القلب في فلك هذا الوقت الآخر. يجعلنا نترك المهم لنسير نحو الأهم. يَستطيع القلب أن يتعرّف إلى الأهمّ قبل أن يراه العقل. يأخذ أحيانًا مواقف لا تستند إلى إثباتات ملموسة.

لم يخفّف من كآبتها، في الأسابيع التي تلت انفصالها عن إيلي، سوى خبر خروج سمير من السجن. ضحكت من أعماقها ومها تقول لها: «طلع سمير، طلع! هدول الخنازير طلّعوه». أضافت:

ـ أمّي كانت بتعيّط على التليفون. ما فهمتش عليها إشي!

ـ رح تروحي تشوفيه؟

ـ آ، في عمّان. كم ساعة وبكون هناك. ما تتصوّريش إيش شاعرة. بضحك وحدي زيّ المجانين!

ـ واللّه فزّحتيني!

ـ بعرف حبيبتي.

ـ شو رح يعمل هلّق؟ رح يترك شفا عمرو؟

ـ أمّي أكيد بتكون جانّة وبِذها ياه ييجي يعيش فْعمّان. أنا عارفيته لسمير ما بيرتَحِش بعيد عن البلاد. السّجن ما بيأثّرش فيه. شو نعمل، هيك مْتمسِح!

• • •

أحاط جوّ من الحزن الممزوج بالأمل بعائلة نور في حزيران، الشهرِ الذي غادرت فيه دار شمس إلى برانفورد، وهي بلدة تبعد ساعتين بالسيّارة عن نيويورك. شجّعها الدكتور برنارد على قضاء شهري تموز وآب مع صديقته دانا آدمس وزوجها بِنسون كروز هناك. نصحها بأن تتعرّف إلى الحياة في أميركا قبل بدء الفصل الدراسي في جامعتها في نيويورك، وأن توسّع اطّلاعاتها عن السينما الأميركيّة بمساعدة دانا.

كثرَ الحديث عن سفرها، واستهجن بعض أقربائها أن تعيش في أميركا بعيدةً عن أهلها. لم يجدوا في اختصاصها ما يستدعي مثل هذه التضحيات. ونقَل عمّها عاطف نظراته في وجوه زوّاره حين سمع بالخبر،

قائلًا: «إسا لبنان بطوله وبعرضه ما عادش فيه شي تقدر تدرسه الست نور يعني!». فأجابت زوجته رباب: «حِكْم خيَّك رَخو. كيف بيبعث بنت صبيَّة لوحدا على الغربة؟ قال منشان تا تصير تفقّس صور بالكاميرا وتظهّرن. إي شو هالطّق الحنك!». لم تأبه سلوى لتعليقاتها، ولم يسمح بدري لأخيه بالتّدخل في الموضوع. وعلى الرّغم من تحفُّظاته على سفر نور، فإنَّه كان يعبّر عن فخره بها، معلّقًا: «خلّيها تطلع قدّ حالا».

واظبت نور في الأسابيع التي سبقت سفرها، على الذهاب إلى النّهر مع كاميليا. كانت تتمدّد على العشب قربها وتحدّق في عينيها الزرقاوين وشعرها العسليّ وجسمها الممتلئ. دخلت الجامعة هذه السّنة، ومع هذا فالطفولة تطلّ من ملامحها. كبُر محمّد أيضًا وأصبح في السّابعة عشرة من عمره. بدا متمسّكًا بالتقاليد والأعراف كأنّه جدّ العائلة أو مرشدها. يخاف أن يتخلّى عن المظهر الصارم الذي اتّخذه لنفسه. يحذَرُ الانفتاحَ على الآخرين كأنَّ في ذلك تبعاتٍ وخيمةً، مثل تقبُّل مزاحهم ونقدهم له، فكبرت الحواجز بينه وبين نور. ووجدت مشقّة في التحدُّث إليه، حتّى عن مواضيع عامّة. تنظر إلى صورته المعلّقة على حائط الصالون ولطخات من البوظة تحيط بفمه. تحاول استرجاع شعور الأخت تجاه أخيها الصغير، لكنّها تتلافى الاحتكاك به كي لا يجيبها بجملة مقتضبة أو مشوبة بالتهكُّم.

ظلَّ، لشهور خلت، يرافق إيادًا وأباه في رحلات للصيد. خاف بدري وسلوى عليه، وأصرّا على أن تكون رحلة هذا الأسبوع الأخيرة. ورضخا، في المقابل، لإلحاحه على الانضمام إلى مجموعة شبابيّة تقوم بنشاطات دينيّة. كان الشّيخ فوزي العمود الفقريّ لها ولأربع مجموعات أخرى في قرى الشوف، يبثّ من خلالها الدّعوة إلى تقريب الجهّال من الدّين. تلقّى محمّد على يديه دروسًا معلّبة في كتيّب صغير يحتوي على أسئلة وأجوبة مختصرة لا تفتح الباب على الاستفسار أو الجدل. وكان يكرّر على مسمع تلاميذه القول إنَّ أئمّة الدروز رفضوا كلّ التعاليم الإسلاميّة والمسيحيّة وكفّروا من يميل إليها، واختاروا طريق النجاة. وصبَّ تلاميذه جهودهم في تفنيد الحلال والحرام، وضحد المذاهب التي تتعارض مع عقيدتهم. ولم يروا فائدة في المسلك العرفانيّ الصّرف الذي تمثّل في الست سارة.

جذبت محمّدًا الزيارات للمقامات. كانت جزءًا أساسيًا من نشاطات مجموعته الترفيهيّة. شعر فجأة بتعاظم قيمته حين جلس الشّيخ فوزي إلى جانبه في البوسطة يحدّثه ويصغي إليه باهتمام خلال الرّحلة إلى مقام الست شعوانة. وصار يترقّب بشوق الرّحلات القادمة إلى خلوة

القطالب في عين قنية ومقام عين الزمان بالقرب من مدينة السويداء. لم يكن بين أتباع الشيخ فوزي أحدٌ من عائلات العلم والقضاء العريقة سواه. لذلك أحاطه بالعناية والتكريم. وكان يمنّي نفسه باليوم الذي سيخضع فيه محمّد لكلّ تعاليمه ويتفانى في تقليده، عندها يكون هو قد وثب على تعاليم عمّته الستّ سارة والتهمها. وسينتقي، في انتظار ذلك الحين، كلمات لها من هنا وهناك، ويستخدمها ليقنع اللّائمين بأنّه لا يفعل ما يسيء إلى توصياتها، بدليل أنّ محمّدًا ابن بدري، أكثرِ أخوتها حبًّا واحترامًا لها، انضمّ إلى مجموعته. هذا ما قاله لنفسه، وهو يمسّد شعرات شاربه الذي كبر وغطّى فمه بأكمله، قاطعًا الطريق على أيّ إغراء قد يسبّبه منظر شفتيه المتشقّقتين.

• • •

كان نفور محمّد من نور يزداد مع ازدياد إعجاب والديه وأصدقائهما بها. لم ينتبه أحد لِمَا كان يعتمل في نفسه إلّا حين غابت أمّها وكاميليا عن البيت ليمضيا يومين في بيروت. استيقظ عند السّاعة الخامسة صباحًا ليحضّر نفسه لرحلة الصيد الأخيرة. كان يتململ ساخطًا. يفكّر كيف سيسخر منه إياد. سيقهقه عاليًا حين يخبره بأنّه لن يرافقه في الرّحلات القادمة لأنّ والديه يخافان عليه. وسيتباهى أمام والده بالعصافير التي اصطادها. وستكون أمّه، حين يصلون إلى البيت، قد أعدّت له اللّزيقيّات مع سيروب الحلاوة التي يحبّها.

اعتادت كاميليا أن تحضّر لأخيها كلّ ما يحتاج إليه للرحلة. ذهب في غيابها إلى غرفة نور وحاول أن يوقظها، فتمتمت من دون أن تفتح عينيها: «اتركني نام». قال لها إنّ عليها أن تحضّر له زوّادة وتبحث عن جزمته. فتجاهلته ووضعت الغطاء على رأسها وخلدت إلى النوم من جديد. هزّها قائلًا بصوت عالٍ: «لازم تقومي هلّق! أنا مستعجل وإنت رح تأخّريني!». شعرت حينها بالضّيق، فنظرت إليه بعينين نصف مغمّضتين، ونصحته بأن يهدأ. يستطيع أن يحضّر كلّ شيء بنفسه، فهي لا تقوى حتّى على فتح عينيها. أمسك عندها بغطاء سريرها ورماه على الأرض، ثمّ شدّ الوسادة وخطفها من تحت رأسها. صرخت به:

ـ شو جنّيت؟

ـ يا حيوانة، هيدي آخر رحلة لإلي!

ـ لو فيك دم بتحضّر جزمتك وساندويشاتك من مبارح.

ـ غصبٍ عنّك رح تقومي!

ـ روح قبّع شوكك بإيديك!

ـ رح آخدك عالمطبخ بالقوّة يا كلبة!

ـ إنت واحد بلا عقل!

هجم عليها وشدّها من شعرها. جرحت ساعتُه خدّها تاركةً بقعتين من الدّماء، فصرخت من الألم، وحاولت أن تفك أصابعه عن خصلات شعرها لكنّها لم تفلح. رماها أرضًا، وبدأ يركلها من دون رحمة. دخل بدري غرفتها كالمجنون. صفعه بقوّة ودفعه بعيدًا عنها، فخرج وهو يكيل الشتائم للجميع. شعرت بموجات من الوجع آتية من جلدة رأسها وخاصرتها وركبتها اليمنى، ففمرت وجهها بيديها وبكت بصمت. لم تفهم من أين جاء بكلّ هذا الحقد. أمّا والده، فوضع كيس ثلج على خدّها وهو في حالة ذهول.

سقطت الحقيبة من يد سلوى حين رأت الجروح في خدّ نور والكدمات على جسمها. كانت عينا نور الدامعتان تلومانها. كثيرًا ما قالت لها إنّ في داخله بركانًا سيحوّل حياتهم إلى رماد، وكانت تجيبها بأنّها تعالج الموضوع على طريقتها. شعرت الأمّ بالفشل للمرّة الأولى. مات أملها في أن يتخلّص ابنها، فلذةُ كبدها، من الغضب الكامن في داخله. لم يعد صغيرًا ليتغيّر. بات المستقبل يخيفها. دخلت غرفتها وأقفلت على نفسها الباب. حاول محمّد أن يبرّر ما فعله. صرخت من وراء الباب: «ما بدّي شوفك! طلع على لساني شعر وأنا إحكيك. بس هيأتك لا عقل ولا هداية! وحش!». أتكون قد قست عليها؟ فكّرت نور. كانت تتّهمها بتشجيعه لأنّها تحاوره بدلًا من أن تعاقبه. وكانت أمّها تجيبها بأنّ العقوبات لن تنفع، وأنّ أخاها ضعيف، على الرّغم من قسوته. لكَمْ كانت تلجأ إلى عمّتها اعتقادًا منها أنّ حنان أمّها انصبّ عليه، واستحوذت مشكلاته على وقتها واهتمامها. والآن، وهي تقفل الباب على نفسها، نبشت نور شريط صور جديدًا لها؛ شريطًا مهملًا في درج ذاكرتها. رأت أمّها، تقنع أباها بضرورة شراء كاميرا الفيديو لها. وتابعت خطط التّصوير باهتمام، وشجبت انتقادات رباب وخالتها عايدة لها على ثيابها الصبيانيّة.

حملت نور بعد يومين لأمّها صحنَ شورباء وبعض الخبز. رأتها تجلس على الأريكة الصغيرة قرب الشبّاك وفي حضنها ألبوم صور. عانقتها، فابتسمت بعينين دامعتين، ومرّرت أصابعها على شعرها، قائلة إنّها عجزت

عن مساعدة محمد. وتفكّر الآن في استشارة صديق مختص، مع أنّ فكرة العلاج النّفسيّ هي بمثابة وصمة عار لمحمد وللمجموعة التي ينتمي إليها.

• • •

اتّصل بها أكرم قبل يومين من رحيلها عن دار شمس. أصرّ على مساعدتها في استئجار شقّة للسكن في نيويورك قبل بدء الفصل الدراسي في جامعة كولومبيا. «رح تجي من لوس أنجلس؟ لا ما تتعذّب»، قالت له. أجابها، «فش مشكلة. بدّي زور صاحبي بنيويورك. رح سَقّبا بنفس الوقت». واستمهلها، قبل أن تقفل الخط، وسألها إذا كان أحد من أهلها قريبًا منها. فهمت أنّه يودّ التّحدّث إليها في شأن خاص، فأوصدت باب غرفتها وقالت: «احكيلي، شو في؟» أخبرها بأنّه تزوّج من امرأة أميركيّة وأنّه يحبّها منذ سنتين. حاول أن يبتعد عنها وينساها لأجل خاطر والديه، لكنّه لم يفلح.

شعرت بالقلق وهي تتحسّب لردّة فعل خالتها عايدة. نصحته بأن يخبر أباه أوّلًا. قد يتقبّل الموضوع أكثر منها. نفى ذلك معلّقًا: «لا، مش رح يتقبّله. بس عالأكيد مش رح يفقعني موعظة من مواعظ الشيخ فوزي بأنّه هيدي واحدة من النّصارى الفَسقَة الأضداد!». بدأ يلوك الكلمات داخل شدقيه كالشيخ فوزي، ثمّ يستعيض عن الذال بالضاد، والضاد بالظاء، مقلّدًا مخارج حروفه. ضحكت نور رغمًا عنها، ونصحته من جديد بمصارحة أبيه بزواجه. وذكّرته بما كان يقوله لهم عن العلمانيّة وبأنّها الحلّ الوحيد لأزمات المجتمع وأساس لوحدته. فأجابها: «يا بنت خالتي أكيد ما كنش بيّي قاصد إنّو مرتي رح تكون الحلّ لمشكلة لبنان!». فوالده ووالدها عاشا في زمن آخر غير زمنهما. والتيّارات الدّينيّة المتشدّدة لم يكن لها صَوْلة وجَوْلة، كما هي حالها الآن. قالت له:

ـ هيدا ابن نعمان وأخته تزوّجوا مسيحيّة. كذا واحد من عايلة كمال الدين كمان تزوّجوا إسلام. الكلّ بيعترض بالأوّل، وبعدين بيمشي الحال.

ـ في ناس بيبقوا معارضين.

ـ ضيعتنا فيها زواجات مخلوطة.

ـ مخلوطة قلتيلي؟ بس بعد الحرب الأهليّة اللّي جينا على آخرا أنا وإنت، انقطعت المخلوطة... يعني صار كلّه قضامة بقضامة!

ـ ليش متشائم هيك؟

ـ نور وينك رايحة إنت؟ مش شايفة كيف هاجمين هاجوج وماجوج

من اللّي مش عارف راسه من دَيله.

ـ أنا عارفة قدَيش الموضوع صعب، بس إنت شَب مش بنت! يعني أسهل.

ـ بتفكّري هيك. الكلّ صار يحكي دِين، ويشرب دِين، وياكل دِين!

جلست قرب النافذة، بعد أن أقفلت الخط، تنظر إلى قرميد بيت أكرم وعريشة داره التي اخضرّت وتدلّى منها بعضُ العناقيد. قالت لنفسها إنَّ العاصفة سوف تهبّ وتموت، فقلّما يخسر الشّابّ أفراد عائلته حتّى حين يخرج عن مشورتهم ويتزوّج بامرأة من غير دينه. أما الفتاة فخسارتها دائمًا مضاعَفة. يرون فِعلتها هذه إذلالًا سافرًا لهم، هم أولياء أمرها. فعلةُ الشاب هي مجرّد ضعف في شخصيّته لأنّه سمح لامرأة بأن تسيطر على عقله. فالعقل، كما يردّد الجميع، هو المانع عن الخطأ. العقل يُركَنُ إليه، أمّا القلبُ فمصدر الهوى. الهوى يُذكّر بكلمات مثل: الهواء، الهوّة، اللّهو، الهواية!

وصلت نور إلى مطار نيويورك عند السّاعة السّابعة مساء، واستقلّت من هناك بوسطة اللّيموزين إلى برانفورد. بدت السيّارات من البعيد كحبّات مسبحة لامعة تتساقط متسارعة داخل أسلاك من الأوتوسترادات اللّولبيّة. ووصلت قرابة العاشرة ليلًا إلى بيت قديم محاط بحديقة واسعة.

كان بنسون في انتظارها. رحّب بها، ثمّ حمل حقيبتها إلى غرفة نوم قرب المطبخ، مضيفًا أنّ زوجته نائمة وستراها في الصّباح. استأذنها وصعد الأدراج إلى الطابق الثاني. تردّد صوت زعزعة الخشب المرافقة لخطواته. أمّا هي، فاستحمّت، ثمّ لبست البيجاما واندسّت في الفراش.

خرجت في الصّباح إلى الصالون، فوجدت فتاة نحيلة لم تتخطّ الرّابعة عشرة من العمر تحدّق فيها. لم يتغيّر تعبير وجهها. بين يديها سي دي پلاير وعلى أذنيها سمّاعة. وفي زاوية أخرى، كانت فتاة أصغر منها منحنية فوق الطاولة ترسم، ثمّ تقدّمت من نور امرأة في الثلاثين من عمرها، قائلة:

ـ مرحبًا. أنا دانا.

ـ أهلًا. أنا نور.

ـ أتمنّى أن تكوني قد استمتعتِ بنوم هادئ اللّيلة الفائتة.

ـ نعم. الهدوء المحيط بمنزلكم جعلني أستغرق في النوم. آسفة.

ـ لا عليك.

لم يكن هناك أثر لمسحوق تجميل على وجه دانا. شعرها الأسود الفاحم مشدود من الجانبين فوق أذنيها، عقصته على شكل كعكة صغيرة في أسفل رأسها. استدارت لتعرّفها إلى ابنتيها، سارة التي ركنت إلى الجمود، وإميلي التي كانت ترسم. قالت نور إنّ لديها عمّتين تحملان اسمي سارة وأمَلي. لم تشأ أن تضيف أنّ أمَلي توفيت، وهي في سنّ العاشرة، أي في عمر إميلي اليوم، وكان والدها يأتي على ذكرها كثيرًا. أمّا عمّتها سارة فكانت تكتفي بالقول: «اللّه يرحما، كانت شعلة ذكا. الكلّ كان مشغّل فيها».

أطلّ بنسون حاملًا فطيرة بالتفّاح. قالت له:

ـ أين كنت؟

ـ عدت لتوّي من يال.

ـ يال؟

ـ كان عليّ أن أتفقّد بريدي في الجامعة.

ـ اليوم أيضًا؟

ـ أنتظرُ وصول بعض المصادر.

نقلت دانا نظرها بين الفطيرة ووجهه، فابتعد قليلًا عنها وهو يمسّد لحيته. بدت عيناه الزرقاوان قاسيتين تحت النظّارة السّميكة المستديرة. أخذت منه الفطيرة ودخلت المطبخ. وسارت نور نحو شبّاك الصالون. وقفت تنظر إلى أشجار التفاح والتوت الأزرق في البستان وزهور الجيرانيوم اللّيلكيّة.

سكب بنسون خلال الغداء في صحنها قطعة لحم صغيرة وأربعة أصابع من الهليون وحبّة بطاطا لم يزد حجمها على حجم حبّة خوخ دار شمس الأبيض. وقبل أن تمدّ نور يدها لتأخذ قطعة الخبز الأخيرة في الطّبق، سألتها إميلي إذا كانت تريدها، فتلعثمت ثمّ قالت: «لا»، فاختطفتها إميلي وألقتها في صحنها بسرعة، فقال لها والدها: «كُلِي على مهل. لماذا لا تتقاسمين قطعة الخبز مع شخص آخر؟» هزّت بكتفيها معترضة وقالت: «لا، أنا جائعة! نو أعطتني إيّاها». علّقت دانا: «اسمها نووور»، وشدّت على حرف الرّاء. تأفّفت إميلي قائلة: «نووووور. فهمت. دعيني آكل!». أكلت بنهم، ونظرت حولها لعلّها تحصل على بقايا صحن سارة أو دانا. غمر نور شعور بالخجل وهي تمضغ اللُّقمات المعدودة، وحاولت أن تُخفي إحساسها بالجوع وتضايقها من هذا التقتير الوقح.

تطرّق بنسون بعد الغداء إلى الوضع في العراق وخوفه من بَلَه صدّام والخطر المحدق بالعالم من جرّاء اقتنائه سلاح الدمار الشامل. استدار نحو دانا وعيناه تتّسعان وشفتاه تلاعبان بسمة جشعة، ليقول إنّ أحد المتاحف في نيويورك حصل على بعض الألواح المسماريّة من الفترة البابليّة نُقش عليها معلومات في علم الفلك. فقاطعته دانا مجيبة بأنّ إحدى الصحف ذكرت أنّها مسروقة. احمرّ وجهه من الانفعال وبدأ يتأتئ، مشيدًا بسرقة الآثار العراقيّة كأنّ عاطفة بدائيّة تملّكته. فهمت نور، فيما بعد، أنّ الألواح البابليّة لم تكن مجرّد مصادر لبحوثه ومحاضراته، بل حملت له معاني عميقة كأنّها تعويذات إلهيّة تقيه من الضعف، وتجعله يمتلك روح العالَم القديم، أو تحميه من الفشل في عالمه المتفوّق.

حاولت دانا أن تغيّر الموضوع. استفسرت عن أحوال الدكتور برنارد وحياته في بيروت معلّقة: «إليوت صديق عزيز. ذهبنا إلى المدرسة ذاتها وكنّا نعيش في الحيّ ذاته في بوسطن». لم يكن صوتها وهي تلفظ هذه الكلمات، مختلفًا عن صوت ابنتها الصغرى إميلي. كانت كطفلة لم تبلغ بعدُ. لكنّها على عكس إميلي، كانت حيّية. يرتجف صوتها وتتلاشى فيه الحروف عند آخر الجمل، كأنّها تحاول أن تقدّر وقعها على الحاضرين. أمّا سارة فالملل لم يكن وصفًا مناسبًا للأحاسيس التي كست وجهها، كأنّها نصف نائمة بعينيها الصغيرتين ووجهها النحيل. لم تُبدِ أيّ تعجُّب أو اهتمام حين قالت إميلي فجأة: «نوورا، هل تعلمين بأنّ الذي يعيش معنا لا يحقّ له أن يفتح البرّاد من دون إذن أمّي وأبي؟ الطعام لا يكفي لنا ولك!». ضحكت نور بعصبيّة، أمّا دانا وبنسون فلم يضحكا، ولم يجدا فيما قالته ابنتُهما مدعاة إلى الخجل.

كانت توصيات دانا وبنسون لابنتيهما بشأن مقادير المأكولات المسموح بها، وأنواعها، تقليدًا يوميًّا. تنظر سارة بترفُّع إلى الطعام. تمضغه ببطء كأنّ الهدف إيصاله إلى المعدة بأقلّ نسبة من الشهيّة. شعرت نور بأنّ فقدان الانفعال لديها كان نوعًا معقّدًا ومستحدَثًا من الحزن. ما كانت اللّامبالاة إلّا ستارًا احتجبت وراءه. نور أكثر الناس دراية باللّامبالاة، ولطالما تمسّكت بها لتحمي نفسها من تجريح محمّد وعدوانيّته.

كان يحلو لإميلي أن تغنّي وهي تأكل. لكلّ نوع من الطعام تقدّم نغمة خاصّة. أمّا سارة فكانت خارج عالم الغناء. وعلى الرّغم من اختفاء رغبتها في الطعام، فإنّها لم تكن تشبه عمّتها سارة في شيء. حكى أهل دار شمس أنّها كانت سعيدة كالأطفال وهي تتناول فتات الخبز العَفِن. تلمس الإجاص الناضج المتدلي من الأشجار. تتأمّله، تبتسم وتبتعد. تملّكها العشق الإلهي وأفرحها. ابتدأت بالتقليد وانتهت بالتفرُّد. أمّا سارة البرانفورديّة، فلم تشعر بخلجة واحدة من الشوق الذي اكتنف عمّتها. تُقلّد والديها لعلّها تكسب حبّهما وحبّها لذاتها. يغريها الحرمان من الطعام، لكنّه يُفرغها من الحبّ، ومن فرح الحياة.

• • •

نشأت دانا في كنف عائلة ذائعة الصّيت، لها صلات وثيقة بأشهر الممثّلات والممثّلين، إلى جانب عملها محاضرةً في برنامج الدّراسات السينمائيّة والإعلام في جامعة يال. وتعمّقت معرفة نور بعدد من الأفلام الأميركيّة خلال جلساتها المسائيّة معها أمام الشاشة. وكانت تناقش معها

سمات الفيلم وشخصيّاته. تلتفت إلى وميض ساحر في عينيها. ويصبح صوتها قوّيًا نديًا في العتمة كصوت التقاء الماء بالحصى عند نهر دار شمس. تراها تنفض عنها خجلها وانكماشها.

أنبأت دانا الجميع، بعد مضي شهر ونصف شهر، بأنّها ألغت سفرها إلى بوسطن الذي تقوم به كلّ سنة في مثل هذا الوقت. رمقها بنسون بنظرة استغراب. بدت كأنّها لم تشعر بوجوده. كان في بسمتها ألوان دافئة لا تشبه اللّون المسكيّ الذي يطغى على قماش الستائر والكنبات والكراسي. حتّى مظهرها بدا مختلفًا في فستانها الأصفر وشعرها المسترسل على كتفيها. ابتسمت لها نور ابتسامة عريضة وقالت: «كم هو جميل هذا اللّون عليك!»، فهمست: «شكرًا»، وتضرّج وجهها حياءً.

شرب بنسون كأس البراندي الذي كان في يده دفعة واحدة ودخل مكتبه. لم تلتفت دانا إليه ولا إلى علبة المحارم التي أوقعتها إميلي على الأرض قربها. صعدت إلى غرفتها، وأتت بكتاب صغير، ثمّ خرجت إلى البستان. جلست على العشب قرب شجرة تفّاح هرمة، وابتدأت تقرأ بصوت عالٍ. بدت مضطربة كأنّ الكلمات تعذّبها، أو كأنّ في طيّاتها رسالةً شخصيّة لها. لحقت نور بها فسمعتها تتلو:

«هيّا اطوي المشاغل

في بيت عنكبوت

ودَعيها تنحدر في بئر

داخل ذاك العالم المقلوب

حيث اليسار دائمًا هو اليمين

حيث الظلال هي في الحقيقة الجسد

وحيث نبقى ساهرَين طوال اللّيل

حيث السماوات مسطحّة

بقدر ما هو البحر عميق

وحيث أنتِ تعشقينني».

أغلقت الكتاب وسكتت. شعرت بنور تقف قريبة منها. استدارت بعد بضع دقائق وقالت لها:

ـ هذه قصيدة «الأرق» لإليزابيت بيشوب.

ـ الأرق؟

ـ تذكّرني بأشياء اعتقدتُ أنّها ماتت... دُفنت في داخلي.

ـ ما هي؟

ـ قدرتي على الحبّ. لا أدري لماذا فكّرت في قصّة الحبّ التي عاشتها بيشوب في البرازيل إلى جوار حبيبتها.

ـ حبيبتها؟

ـ لوتا سُواريز. العشق فتك بها. أخذت جرعة كبيرة من المهدّئات قتلتها!

دخل جسم دانا في مناخ جديد لم تعرف نور كيف تفسّره. شعرت فقط بغرابة جماله، تمامًا ككلمات القصيدة. القمر انعكاس للشمس. القمر ليس وهمًا، والانعكاسات ليست كاذبة. تخفي في طيّاتها حقيقة أخرى غير التي تعوّدنا عليها. أحيانًا، هذه الانعكاسات هي كلّ ما نستطيع أن نراه ونصل إليه. لهذا تقول بيشوب «أنتِ تعشقينني» بدلًا من «أنا أعشقكِ». تستخرج ما كان مقلوبًا ومعكوسًا. سألت نور دانا:

ـ ما هو العالم المقلوب؟

ـ واقع آخر يعيشه الكثيرون؛ صورة عكسيّة.

ـ أيُهما الحقيقيّ؟ أيُهما الانعكاس؟

ـ مَن الذي يستطيع أن يحدّد ذلك؟ هل تعلمين بأنّ كلمة «مقلوبة» صفة كانت تُعطى للمثليّات؟

لم تنبس نور بحرف. أضاءت البحيرة الخضراء في عينَي دانا جفنيها وبللتهما. انتاب نورَ قلقٌ وارتباك. تظاهرت بالانشغال بغسل ثيابها، ورجعت إلى البيت.

• • •

ازدادت حيرة نور في اليوم التالي حين كان الجميع غائبًا عن المنزل. ظهر روبرت جار دانا وبنسون في الحديقة، وهو يحمل علبتين من البندورة الكرزيّة والفليفلة الخضراء. كان طبيبًا متقاعدًا يعيش وحيدًا بعد وفاة زوجته منذ سنتين. وأعجبت بخفّة ظلّه وعفويّته في المرّات القليلة التي زارته بصحبة دانا.

رشف من فنجان القهوة التي أعدّتها له. سألها عن بنسون، فأخبرته بأنّه في الجامعة. تبدّلت ملامحه وعلّق باستياء بأنّ اليوم عطلة، ومع ذلك

يطيل مكوثه هناك، وأضاف:

ـ إنَّه يلعب بالنار!

ـ ماذا تعني؟

ـ يلتقي عشيقته، تيفاني... هي بنت متهوِّرة!

ـ بنسون!

ـ نعم، إنَّه على علاقة بهذه التلميذة المساعدة.

ـ وكيف تعرف ذلك؟

ـ هو الذي أخبرني.

ـ هذا سيحطِّم دانا!

ـ لا، لا أظن. هي تعتمد عليه في شؤون البيت لا أكثر.

ـ ماذا تقصد؟

ـ لا تقولي لي إنَّك لم تلاحظي برودتها تجاهه. يتمنَّى بنسون في قرارة نفسه أن تعرف بعلاقته بتيفاني!

ـ كيف؟

ـ يعشق دانا على الرَّغم من كلّ شيء. أمَّا هي، فلم تُبادله يومًا عواطفه ولهفته إليها، كما يقول، وهذا يُخجله.

أهذا ما تكتمه دانا داخل جسدها الناحل والمتقشِّف؟ وراء قميصها المزرَّر حول العنق؟ تساءلت نور. وبنسون هو الآخر، ما سرّ هوسه بالبابليِّين، وحديثه الذي لا ينضب عنهم؟ عن تفوُّقهم، وطقوسهم، وحياتهم؟ هل هو محاولة لفكّ رموز حياته، لاسترداد رجولته؟ ألم يقل لها، بنبرة صبيانيَّة يومًا، إنَّ ظهور العرب بعد البابليِّين دعابةٌ تاريخيَّة؟ وإنَّ العرب أتوا بحضارة تافهة! واستُؤجروا للقيام بواجب الأمن وحماية الفلَّاحين والتجَّار. حنين بنسون إلى بابل تركه عاجزًا يسأل نفسه: لماذا أخذ التَّاريخ مسارًا آخر؟ لماذا بقي العرب واختفى البابليُّون؟ لماذا عشق دانا ولم تحبّه؟ لماذا يرغب فيها وتبتعد عنه؟

تذكَّرت إشادته بالتقتير. قال إنَّ الأقوياء يحكِّمون العقل ويتعالون على أهوائهم. والشعوب المتديِّنة في الشرق لن تتقدَّم، ولن تتحسَّن ظروفها ما دامت تؤمن بالقَدَر. ومع هذا، فصوته، وهو يحدِّثها عن الصُّور البانوراميَّة المعلَّقة في مكتبه، كان يفضح إيمانه العميق بالقَدَر والخوارق، وحاجته إلى هدم كلّ الحسابات المنطقيَّة. وأمام هذه الصُّور، أطلَّت نور

على الحريق العظيم الذي شبَّ في سان فرانسيسكو سنة ١٩٠٦ عقب وقوع زلزال. انفتح أمامها شارع ساكرامنتو وانحدر كزحليقة للأطفال. وعلكت النارُ أعمدةَ التليغراف وأسلاك الهاتف والكهرباء. وسالت سكك الحديد ثمَّ تجمَّدت كرؤوس صقور وأخطُبوطات مشوَّهة. لم ينسَ أحدهم أن يأخذ صورة لطيفة لبيت مائل قرب النهر؛ بيت يقلِّد برج بيسا.

تسابق كثيرون، مثل بنسون، على الاحتفاظ بالبشاعة المتبادلة بين الزلزال والنار. وترافق هذا الولع بتخليد الدَّمار مع تفاؤل لامتناهٍ بأميركا الجديدة وبالعلوم الحديثة. لم يخيَّل إلى هؤلاء المؤمِّلين بأميركا أنَّ أنابيب الغاز التي صمَّمها مهندسوها ستصبح مهزلة أمام جبروت النار، وستوقظ لدى الناس إيمانًا بالقَدَر وشكوكًا في الاكتشافات العلميَّة.

كانت فاني، جدَّة بنسون، الوحيدةَ في عائلتها التي نجت من الكارثة. ثمانون في المئة من مدينة سان فرانسيسكو اضمحلَّت في أقلَّ من أسبوع. وتسابقت عيون الكوداكيِّين لتحويل الاحتضار إلى ذكرى فنِّيَّة. كلَّ من استطاع الوصول إلى كاميرا كوداك، جاء بها إلى أماكن اللَّهب متكبِّدًا المخاطرَ ليأخذ سناپشوت: طلقة على الخوف، ولقطة للنار. كامارا أوبسكورا: علبة خفيفة تجيد السِّحر، وتغامر في أيدي مئات المغامرين. أراد الناس أن تخلِّد كوداك أهل المدينة، كما خلَّدت أموات مومباي. وعلَّقها الكوداكيُّون، عشَّاق الصُّورة العفوية، في بيوتهم كي يتجاوزوا دهشتهم؛ كي يُشفوا من الخوف الذي سمَّم تفاؤلهم بأميركا العصريَّة ووعودها.

رأت نور على حائط آخر قبالةَ هذه الصُّور آثارَ بابل وسومر، مدينتي بنسون المفضَّلتين، وحضارتيهما العظيمتين، واللتين يعطي دروسًا عنهما في الجامعة. يبدو أنَّ صور الحريق العظيم بدت له كآثار الحضارات القديمة. كان سكَّان بلاد ما بين النهرين ينسبون الكوارث الطبيعيَّة إلى غضب الآلهة. وفي سان فرانسيسكو، هناك من كان يفكِّر كالبابليِّين. ونسب المهندسون أنفسهم الدَّمار إلى الطبيعة؛ إلى قَدَر أكبر وأعظم منهم.

• • •

رأت نور، قبل يوم من رحيلها عن برانفورد، علاماتِ التوتُّر والغمّ باديةً على وجه دانا التي لاذت بأفياء شجرة التفَّاح في مكانها المفضَّل في الحديقة. حاولت نور أن تعرف ما الذي يؤرِّقها، فأجابت: «أشعر بالإرهاق. لم أنَم جيِّدًا ليلة أمس». بدت ذوائب شعرها مبلَّلةً بالماء، وجسمها فاحت منه رائحة نديَّة كأنَّها غسلته طويلًا. «لا بدَّ من أنَّ المشاكل تتفاقم بينها

وبين بِنسون»، قالت نور لنفسها. رأتها دانا تحدّق فيها بعطف فتشجّعت قائلة: «لا أعرف ما الذي يحدث لي يا نور، كأنّني لم أعد داخل جلدي... كأنّني غصن شجرة مكسور تتقاذفه مياه النهر!» أجابتها: «أعرف أنّكِ تكرهين التحدُّثَ عن نفسِكِ، لكنّني أشعرُ بحزنكِ ولا أفهم سببه!». قالت دانا بلهفة: «سأصارحكِ بأمور كثيرة، لكن ليس هنا، وليس الآن». اقتربتْ نور منها قائلة: «لم أمضِ معك سوى ثلاثة شهور، لكنّني لمستُ شيئًا من روحكِ الجميلة في كلّ فيلم تحدّثتِ عنه، وفي كلّ شخصيّة جعلتِني أعيشها. أصبتِني بالعدوى. بتُّ أرى نفسي أجمل وأكثرَ صفاءً». شدّت دانا على معصم نور وعيناها تتّسعان كأنّها تودُّ أن تفتح فمها وتصرخ، لكنّها همست: «بل لقائي إيّاك هو أجمل ما حدث لي منذ سنوات! فلنستفِد من الساعات المتبقيّة لنا معًا!» قبلت دعوتها إلى زيارة متحف في بلدة غيلفورد يستعرض قطعًا فنّيّة من المعادن. وكانت تتأمّل عقدًا من التّنك يشبه سلكًا شائكًا عندما التصقت بها دانا وهمست: «هناك مقهًى قريب من هنا يختص بصنع الفطائر بالرّاوند. ألستِ جائعة؟» سألت نور النادل في المقهى عن عدد من الأطباق المذكورة في القائمة، ثمّ أضافت: «أرهقتُك بأسئلتي. سأكتفي بالبوظة والقهوة». أجاب: «أستطيع الاستماع إلى صوتك لساعات!». ابتسمت وشكرته. وحين اختفى عن الأنظار، علّقت دانا: «كم هو ثقيل الظّلّ!» فوجئت نور بردّةِ فعلها، لكنّها لم تقل شيئًا. كانت تنتظر أن تحدّثها عن مشاكلها مع زوجها وسبب كآبتها. وعدتها بأن تبوح لها بما يضايقها، لكنّها لم تفعل.

رشفت نور آخر قطرة من الكابوتشينو ومشت نحو الحمّام. رأت النادل ينتظرها في وسط المطعم، دعاها إلى نزهة لتسلُّق الجبال، لكنّها اعتذرت، قائلة إنّها سترحل غدًا إلى نيويورك. وتفاجأت حين رجعت إلى مكانها بأن وجدت دانا قد دفعت الحساب، وقالت ووجهها محتقن: «يجب أن نعود إلى المنزل!». أنهت صمتها، وعجلات السيّارة تدوس العشب في حديقة البيت. أطفأت المحرّك ثمّ استدارت نحو نور قائلة: «ماذا كان النادل يقول لك قرب الحمّام؟ كاد يقع فوقك! ماذا قال لك؟ أريد أن أعلم!». شُدهت نور من عصبيّتها، وقالت:

ـ دعاني إلى الذهاب معه في نزهة.

ـ وبماذا أجبته؟

ـ سأغادر غدًا إلى نيويورك، أنسيتِ ذلك؟

ـ لا، لم أنسَ!

ـ ماذا جرى لك؟

ـ تصرَّفتِ بحرارة معه!

ـ لا حاجة إلى هذه التعليقات لأنّ...

ـ رأيتك تبتسمين لهذا الصبيّ الأخرق بدلع!

ـ أستطيع أن أبتسم لهذا الشّاب أو غيره إذا شئت!

انفجرت دانا بالبكاء. نزلت من السيّارة وهرعت إلى غرفتها. لحقت بها نور، وحاولت أن تفهم ما الذي اعتراها. كان الأسى يشدّ على أعناق كلماتها، يحاول خنقها. جلست على السّرير ونظرت إلى السّماء التي امتدّت على وسع النافذة الشمالية. وحين هدأت، قالت كأنّها تكلّم نفسها:

ـ حين ابتدأت الأمور تفتر بيني وبين بنسون لم أكن أفهم ما الذي يحدث لي. كنت أتردّد إلى طبيبة نفسيّة لأعالج الاكتئاب وفقدان الشهيّة.

ـ متى حدث هذا؟

ـ منذ سنتين، قبل أن أكتشف أنّ بنسون يخونني.

ـ هذا ما كان يعذّبك، إذًا؟

ـ لا، لا! خيانة بنسون ليست السّبب. أخبرت الطّبيبة خلال جلساتي معها عن علاقتي الماضية بمغنّية.

ـ مغنّية؟

ـ كان ذلك قبل لقائي بنسون. أحببتها. أحببتها بشكل لا يوصف. لكنّني كنت خائفة وقلقة، وطمست مشاعري هذه بعد موتها بحادث سيّارة.

شعرت نور بالحزن الممزوج بالخوف. همست دانا: «منعني موتها من مواجهة الحقيقة، حقيقة مثل الماء والهواء!» سألتها نور كأنّها تعرف الجواب: «الحقيقة؟» أجابت: «نعم، بأنّني مثليّة. أنا... أنا أحبُّك يا نور». عانقتها، فجمدت نور لوهلة، ثمّ ابتعدت قليلًا عنها، وأمسكت بيدها قائلة:

ـ ليتك تعلمين يا دانا كم أكنّ لك من المحبّة! لكنّني... أنا لا أحبُّك.

ـ أنتِ خائفة!

ـ لستُ خائفة. أنا متأكّدة ممّا أشعر به.

ـ هل أحببتِ أو... ملت إلى امرأة من قبل؟

ـ لا، أ...

قاطعتها: لا تجيبيني الآن!

ـ دانا، أنا...

ـ دعينا نحاول، أرجوك.

ـ نحاول؟

ـ أجل... اسمحي لي بأن أحبّك... وألمسكِ. لنُمضِ هذه اللّيلة معًا!

ـ لا، الأمر ليس كذلك. جسدي ليس حقل تجارب!

ـ قد تكونين مخطئة.

ـ لا أشعرُ بما تشعرين به نحوي، لكنّني أدركُ تمامًا أنّني أوحي إلى الآخرين بأشياء لا أفهمها! جسدي ينطق بأكثر من لغة، وأنا أجيد واحدة منها فقط!

ـ كان لديّ بعضُ الأمل.

ـ أرجوك لا تحزني، فهذا يؤلمني!

ـ إنّه مؤلم!

ـ هل أتمتم ما يقولونه في الأفلام البائسة؟ هل أقول إنّك سوف تنسينني وتحبّين غيري! هذا كلُّ ما أستطيع أن أقولَه لأنجّيك وأنجّي نفسي من هذه اللّحظة الغبيّة!

ـ حبيبتي!

ـ صديقتي! لا تستسلمي للكآبة.

ـ ليس سهلًا التغلُّبُ عليها. ما أعرفه هو أنّني لن أبقى زوجة بنسون! لا أستطيع حتّى وإن حاولت.

ـ إذن، لا تحاولي! الأفضل أن تنفصلي عن بنسون...

فتح بنسون في تلك اللّحظة باب الغرفة ووجهه ينضح بالغضب، قال لنور: «ساعدناكِ واستقبلناك في بيتنا وأنت تشجعين زوجتي على الطلاق!». واستدار نحو دانا وسألها: «هل قلت لها إنّك لم تسمحي لي بأن ألمسك منذ أكثر من سنتين؟». غادرت نور الغرفة بسرعة من دون أن تجيبه، فسمعت دانا تقول:

ـ أنا فعلًا أريد الطلاق! لا أستطيع أن... آسفة.

ـ كنت أعلم بأنّ الأمور تسوء أكثر فأكثر بعد مجيء هذه اللبنانيّة. ماذا قالت لك هذه الفتاة اللّعينة؟ طوال الوقت وهي تحاول تجاهلي.

ـ لا تتحدّثْ عنها هكذا! بدأتْ أشك في حبّي لك قبل سنوات، حتّى قبل أن تخونني مع تيفاني. أوَتظنّني لا أدري بعشيقتك؟

ـ لماذا لم تقولي شيئًا؟

ـ لأنّني لا أبالي بك، وبها!

ـ أنتِ التي دفعتني بيديك نحو تيفاني!

ـ ربّما... ولهذا أنا آسفة... آسفة... لكن هذا غير مهمّ.

ـ تيفاني تحبُّني. تُسمعني كلامًا لم أسمعه منك قط!

ـ اصمت!

ـ تتشوَّق إلى مضاجعتي. تقول لي إنّني إلهها. هل سمعت؟ إلهها! في الفراش هي دافئة ورائعة، لا تشبهك في شيء!

ـ اصمت!

ـ لا تتظاهري بالبراءة! رأيتك تتحوَّلين إلى امرأة أخرى منذ قدوم هذه اللبنانيّة، ذات الصَّوت الرجوليّ والكتفين العريضتين.

ـ أنت مقرف!

ـ هل ضاجعتكِ؟! هل استمتعتِ؟ هيّا أجيبيني!

صمتت دانا لثوان، ثمّ قالت إنّها ستتّصل بالمحامي للبدء بمعاملات الطلاق. هرعت نور إلى الطابق الأرضيّ قبل أن يخرج بنسون ويراها تسترق السّمع إليهما. دخلت غرفتها وأقفلت الباب بالمفتاح. تذكّرت تعليقات محمّد ورباب وهيثم المؤلمة عن ميزاتها الرجوليّة. تبدو في نظرهم جميعًا غير طبيعيّة كأنّها نغمة متعارضة، صعبة الفهم، في قطعة موسيقيّة. إيلي هو الذي أيقظ أنوثتها. كان يشتهي شفتيها وخصرها الضامر وفخذيها. هل أحبّت نفسها فيه؟ هل كانت تحتاج إلى أن تعرف أنّها أنثى؟ لم يسبق أن أحبّتها امرأة من قبل. عشق دانا لها أحزنها وأفرحها، في آن واحد. لم تنفر منها، لم تخف. يبدو أنّ الرجولة والأنوثة تأتيان معًا في الغالب قبل حلول الثنائيّات، قبل نشوء العادات. هل هذا هو السرّ الذي انكشف لدانا في العالم المقلوب؟ اقتربت من المرآة لتضمّ صورة جسمها إلى نظرها.

• • •

ألقت نور نظرة أخيرة على غرفتها، في اليوم التّالي، عند السّاعة العاشرة صباحًا، ثمّ وضعت حقيبتيها في البهو. كان أكرم قد أتى من لوس أنجلس إلى نيويورك ليساعدها على استئجار شقة قرب جامعة كولومبيا. شعرت بمزيج من الارتياح والحزن لمغادرة برانفورد. ذهبت لتطمئنّ على

دانا، فرأتها ساهمة قرب الشبّاك في الصالون. اقتربت منها وقالت لها بصوت خافت: «قلقت عليك. أرجو ألّا أكون قد سببت لك المتاعب». فأجابتها بأنَّ الحقيقة خرجت إلى العلن، ولم تعد تخاف منها، وأنَّها حزينة فقط على رحيلها. ثمَّ ساد الصمت بينهما، قطعه صوت أكرم آتيًا من الحديقة. كان بصحبة جابر، وهو صديق عراقي له يقيم بنيويورك.

رحَّبت دانا بهما ودعتهما إلى الجلوس. انهمك نور وأكرم في الحديث عن أخبار العائلة، ووقف جابر بمحاذاة الطاولة في الوسط. كان عليها إناء من عصير التفاح وجريدة «نيويورك تايمز». أخذ يتصفَّحها. ظهرت في الصفحة الرئيسيَّة صورة قائد القوات الأعلى للجيش الأميركيّ محتفلًا بانتصاره في بغداد. كانت قد مرَّت أربعة شهور على اجتياح العراق.

«هذا والد دانا»، قال بنسون الذي ظهر فجأة من دون أن يُلقي التحيَّة. وأضاف بخبث، مشيرًا إلى الجريدة: «الجنرال آدمس بذاته. قولي له دانا!». كان يحاول أن يُحرجها وينتقم من نور. نظر جابر إلى وجهها وانفجر غاضبًا وهو يعدّد الجرائم التي ارتكبها الجيش الأميركيّ بحقّ العراقيّين. فقال بنسون بنبرة توبيخيَّة: «يجب أن تهدأ. نحن في بلد حضاريّ!». أجاب جابر:

ـ وحكومتك تقنع الآخرين بوجهة نظرها من خلال الحوار؟

ـ يجب أن تحمي قيمنا الليبراليَّة التي لا تفهمونها أنتم الذين عشتم في مجتمع ديكتاتوريّ.

ـ كلّما حاولنا أن نخلق ديمقراطيَّة أخرى؛ ديمقراطيَّة تشبهنا نحن، تقضي عليها حكومتك!

نظرت نور إليه بإعجاب. ساد صمت تامّ في أرجاء الصالون قَطعه حسيس ألَفته أوراق الشجر في الحديقة وهي تحاول الهرب من النسيم. لم يتوقَّع أحد أن ترفع سارة صوتها بالكلام قائلة: «كما يقول والدي، إنَّنا هنا لا نقتل بعضنا البعض كما تفعلون أنتم. لا نغطّي وجوه النساء بالحجاب ونعذّبهن مثلما هو مكتوب في القرآن أو...». فقاطعتها دانا قائلة: «سارة اسمعي، ما زلتِ صغيرة على فهم هذه الأمور». واستدارت نحو جابر وأكملت قائلة: «أنا أكره هذا الرجل الذي يدعى أبي! قطعتُ صلتي به بعد موت أمّي. ومع ذلك لا أقبل أن يعاقبني أحد على ما يفعله هو!». وشدَّت نور على كتفها بحنان غير آبهة بنظرات بنسون.

مشت بعد ذلك إلى الطاولة وجلست تعاين صورة الجنرال آدمس البنتاغونيّة. يظهر العراقيّون وراءه كظلال لوحة مائيّة. يعلم المصوِّر بأنَّ هذا القَدر من التعريف بهم كافٍ. وقفة الجنرال مخمَّسة والجسم بادٍ من دون الرِّجلين. الصدر واسع واليد تحتضن اليد الأخرى أمام المعدة لترسما قوسين. نظرته رومانسيَّة، تُخبي أسطورة الغرب القديم. تستأثر بالعنف كي تقلِّصه في أيدي الآخرين. تقول إنَّ عليه أنْ يدافع عن بلده المتحضِّر بقليل من الوحشية خارجه. عليه أن يقف هكذا أمام هدف العدسة الدَّائريّ. يصوِّب نظرته نحونا ويطلق علينا النار.

وقف جابر وأكرم إيذانًا بالذهاب. ركضت إميلي نحو نور وقدَّمت إليها رسمًا لفتاتين تشبههما، ترقصان وإلى جانبهما قالب من الكاتو بالفراولة. ابتسمت وقبَّلتها قائلة: «سأشتاق إليك كثيرًا». ونظرت بعينين دامعتين إلى دانا، فضمَّتها إليها بتأثُّر ولثمت شفتيها. تمتمت نور بارتباك: «ليتنا استطعنا الحفاظ على هذه الصداقة».

• • •

حاول أكرم، في الطريق إلى نيويورك، أن يُخيي جوًّا من المرح. قال: «يعني يا بنت خالتي منيح اللّي ما متّ من الجوع عند هالجماعة! يعني لازم الأخ بنسون يعمل ملحق لكتاب البخلاء. فَشَرِث هيدي معاذة اللّي نتفت الخروف توصل لمواصيله. شايفين كيف قَلّا لبنته تقسّم قطعة الشوكولاتة الفتفوتة وتخَبّي الباقي بالبرَاد! العطاااا».

«ضغط على زر الراديو فانبعثت أغنية «The boy with the Arab strap»

التقى نظره بنظر جابر للحظة كأنَّهما تذكَّرا حادثة ما. غيَّر المحطَّة ثمَّ توجَّهت أفكارهما إلى أيَّام الجامعة في لوس أنجلس. سأله جابر:

ـ منو باسل اللّي يكتب تعليقات بائسة على «التشات روم» للمتخرجين؟

ـ في زُمبرك فاكِك براسه، بس ما بيإذي. كان يقلّنا: «أبوي الرجل الثالث بعد أبو عمّار!». طبعًا ما حدا سامع فيه.

ـ هههههه!

ـ كان ينزل فينا مزايدات على الرِّيق، والواحد فينا مش قادر يلوك كلمة صباح الخير. عيوننا مبجبجة من كتر السهر.

ـ مزايدات شلون؟

ـ كان حاطط راسه براس معن، شابّ فلسطيني حَبوب بيعزف على العود. قال شو؟ ما بيدعم القضية. كنّا عارفين إنّه عم ياكل خرا! كان واقع لشوشته بالصبيّة اللّي مرافقة معن. وقعت خناقة كبيرة بيناتن بس كان معنا واحد وقتا حب يعمل صُلحة. من بَعدا صفنوا باسل ومعن ببعضن شي ربع دقيقة، وراح كلّ واحد بِحال سبيله. فكّينا المراجيح وانقَلَز كل واحد على بيته!

ـ انقلز؟

ـ كلمة انقلز من دُرر اللّسان الدرزيّ يا صديقي. بتعني رَوْحة بلا رَجْعة! إنتو ما بفتكر بعدكن بتستعملوا كلمة شنتيان، هيدي...

اعترضت نور قائلة: «انخجل يا أكرم! يا ربّي على هاللّسان. بتقول عنّك عمّتي سارة: «نفسه مطروحة عليه». يمكن قَصدا: «نفسه مطروحة علينا!»». ضحكوا، فعلّق جابر: «تَره أكو قصائد فاحشة لابن خالتك يا نور». قال له أكرم: «ما تفضحنا». أضاف بعد ثوان: «عمّتي سارة، بتتذكّرا؟ حكيتلك عنها أبو الجبابرة، مش هيك؟ بتحكم دار شمس من الخلوة!». سألته نور:

ـ كيف يعني؟

ـ يعني الناس خاضعة لبركاتها.

ـ بس هيْي بتكره السُلطة.

ـ طبعًا، بس النتيجة كانت العكس. بقدر ما بتحقُر حالا، بقدر ما الناس بتعلّي شانا. أنا بحبا وما بسترجي زعلا. مَرَة خطيرة، هههههه.

ـ اللّي بيسمعك بيصدّق. شو سألتا رأيا لمّن تزوّجت أميركانيّة؟

ـ واللّـه إمّي وبيْي عرفوا إنّي مش رح إتخلّى عن مرتي. ذكّرتيني نور، إسا عمّتي سارة ما حكت شي عن الموضوع؟

ـ زعلت، بس ما قالت شي.

ـ هيدا أحلى شي فيها!

ـ شو؟

ـ إنا هيك ما بعرف كيف... بتآمن بالفرد... بقراره الشخصي... ما بتفرض رأيا على حدا.

سأل جابر أكرم: «تكون عمّتك؟ شلون؟» فأجاب: «لا، لا، هيي عمّة نور. بس بتربطا قرابة بعيدة ببَيي. تعوّدنا نناديلها عمّتي». ورأى أكرم على الأوتوستراد إشارة إلى مركز للاستراحة فقال: «شو جبّوري، منوقّف عند ماكدونالد؟ شوف كيف ناطرنا عم يقلنا استفقدتلكن. واللّه جِعت».

• • •

استأجرت نور شقة استوديو في بناية تعاونية شمال الجامعة، في مرتفعات مورنينغ سايد. ارتفعت أجور السكن للطلّاب في تلك المنطقة بشكل صارخ منذ بضع سنوات. كان همّ مالكي العقارات والسماسرة أن يمنعوا أحياء السّود الفقيرة في هارليم من التوسّع في اتّجاه مرتفعات مورنينغ سايد ومناطق أخرى من مانهاتين.

كانت تحمل في مخيّلتها، قبل أن تطأ قدماها أرض نيويورك، صورًا بانوراميّة لجسري بروكلين وجورج واشنطن. يسطعان تحت الشمس وفي قلب اللّيل. يحملان الفضاء حتّى قدمَي المدينة. مجموعة مبانٍ قُيِّض لها أن تمثّل نيويورك، وتقف جنبًا إلى جنب في لقطة تذكاريّة لأفراد عائلة ذائعة الصّيت. تُرينا الكاميرا رؤوسهم الكبيرة وصدورهم الملساء. يبدون كأنّهم يتشاورون بشأن مصير العالم، تتوالد الانعكاسات والخيالات إلى ما لا نهاية، في زجاج المباني الأسطوريّة، في السّماء والمياه. تجعل المدينة خالدة كأنّها نقيض الاسوداد في كلّ أبعاده ورموزه.

تحرّك فضول نور في الشهور الأولى لرؤية شوارع ومبانٍ ظهرت في لقطات سينمائيّة في «مانهاتين»، «الفطور في تيفاني» و«سماء الفانيليا». بدت لها نيويورك في هذه الأفلام أبهى من نفسها. حتّى فيلم «كاوبوي منتصف اللّيل»، الذي روى قسوة نيويورك وبرودتها، لم يؤثّر في الصّورة الخياليّة التي كوّنتها عنها. لم يخطر في بالها حتّى أن تزور البقعة التي شهدت انهيار البرجين التوأمين في أيلول سنة ٢٠٠١. كانت صورتهما، فيما مضى، تُنبئ بأنّهما أصبحا نيويورك أخرى تتعاظم وتَتيه، لكنّها لم تنتبه لغيابهما. كانت ما زالت تتفرّج على كلّ شيء، كسائحة، كزائرة عابرة، لا عاطفة أو ذاكرة تربطها بهذه المدينة.

• • •

كان شوق نور إلى دار شمس وأفراد عائلتها كالموج يعلو أحيانًا ويلفُّها، وينخفض أحيانًا ويتراجع. وكانت، في الوقت نفسه، تفكّر في دانا. قضى حبّها لها على آمالها بالتواصل معها والحفاظ على صداقتها. هذا ما

قالته على التليفون لمها، التي ضحكت ممازحة وأجابت: «محلولة! غيّري رأيك في الموضوع وناديلها». بدت سعيدة بعملها في عمّان كمحلّلة اقتصاديّة للتنمية الريفيّة، لا يعكّر صفوَ حياتها سوى قلقها على صحّة سمير. قالت بحزن إنّه وضع سمّاعة طبّيّة بعد أن فقد سمعه في الأذن اليمنى من جرّاء التعذيب الذي تعرّض له على أيدي الإسرائيليّين.

كان جابر يخابرها مرّة أو مرّتين في الأسبوع ليطمئنّ عليها. يعدّل من لهجته العراقيّة بعض الشيء، وتعدّل هي من تعابير دار شمس المحليّة على الرّغم من إلمامه بالكثير منها بسبب صداقته مع أكرم. تواعدا في آخر أيلول على الغداء في مطعم قريب من كلّيّة هانتر حيث يعمل كأستاذ مشارك في قسم الرياضيّات. لكنّه، قبل ساعات من موعدهما، تلقّى نبأ قاسيًا، فقد قُتل مازن، وهو صحافيّ وصديق حميم له، في بغداد.

خرج، بعد أسبوعين من العزلة، لملاقاتها في مقهى في الشّارع الخامس بمانهاتين. جلس قرب إحدى النوافذ المستطيلة التي ارتفعت حتّى السقف. اقتربت منه وصافحته، ثمّ عدّلت وضع الكاميرا المعلّقة في رقبتها. تأمّلها وقال: «هاذي الكاميرا وحدها شافته لمازن يحتضر!». قتلته طائرة مروحيّة أميركيّة وهو يصوّر ما يدور في شارع حيفا في بغداد. وأدار الكاميرا نحو صدره، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، وترك عدستها تعاين قسمات وجهه المستسلمة، وتحتفظ بتلاشي روحه. شعرت نور بالاختناق وهمست، «اللّه يرحمه». قال:

ـ الأنكى أنّهم يُصدرون بيان كلُّه أكاذيب. يسمُّون مازن إرهابيّ!

ـ مش أنظمتنا كمان وصّلتنا لهالمصير؟

ـ أعرف، لكن كنّا متّحدين بكراهيّتنا لصدّام. كان لازم لو طِحنا فيه إحنا، مو الأميركان.

كانت تريد في هذه اللّحظة أن تقول أيّ شيء لتخفّف عنه. وضع يده على الشعيرات التي رسمت خطوط لحيته الفتيّة. تذكّرت ما قاله لها مرّة على التليفون: أميركا مدّته بالقوّة وصفاء النّفس، وكذلك بالوحدة والغضب. نظر صوب الطريق ورشف بعض القهوة. تراءت له من النافذة وراءه فلات آيرون، البنايةُ المثلّثة على شكل مِكواة. وقف المصوّر ألفريد ستيغليتز، في بداية القرن العشرين، عند تقاطع شارع برودواي والشارع الخامس، لينظر إلى فلات آيرون. أراد لهذه البناية أن تكون صورة نيويورك الجديدة، بل أميركا الجديدة، بكلّ ما تحمل من أمل ووعود بعصر حديث

وعطاءات نادرة. لم يُعِر المباني المستطيلة اهتمامًا. وقفت فُلات آيرون بطوابقها الواحد والعشرين شلّالًا حجريًا تحت نور الشمس، تاركةً كلَّ المباني حولها صاغرةً. رآها ستيغليتز كما لم يَرَها أحد من قبل، كخيال هيكل روماني حديث وراء شجرة عمرها ثلاثمئة سنة. صوَّرها من مربَّع حديقة ماديسون، وهي تتأرجح بين الحقيقة والخيال؛ بين المدينة العصريَّة والطبيعة؛ بين بياض الثلج وسواد الأغصان. وبعد سنوات، حين غزت البنايات العالية المستطيلة محيط الشارع الخامس، بدت فُلات آيرون حزينة خالية من الحُسن. لم تفِ أميركا الجديدة بوعدها. والوحدة التي خلقها التمدُّن الصناعي والاستغلالُ والتَّمييز العنصري انتقلت إلى خلفيَّة الصُّورة.

تدفَّق إلى نيويورك، في السنوات التي تلت ولادة هذه الصُّورة، المهاجرون الإيطاليُّون والرُّوس ويهود أوروبا الشرقيَّة، وبدأوا يعملون في مصانع الكدح وورشات العمل اليدوي، عبيدًا بأجور زهيدة. وبهذه الأجور، حقَّقت شركة المثلَّث للبلوزات النسائيَّة الواقعة في مبنى آش أرباحًا طائلة. كانت البلوزات مَخيطة على شكل قمصان الرجال، وتعكس صورة المرأة العصريَّة المستقلَّة؛ امرأة تقلِّد الرجال. وأذَّت النار التي اندلعت في المصنع سنة ١٩١١، إلى أكبر كارثة صناعية في تاريخ المدينة وأميركا. وبقيت الأبواب الفولاذيَّة في مبنى آش مُوصَدة في وجه الصُّراخ المحتضر. رمت النساء بأنفسهن من الطابق التاسع ليهربن من الموت حرقًا. ووُجدت الباقيات رمادًا مكوَّمًا. تُرى، هل تذكَّرهن أحد في أيلول٢٠٠١, وضحايا البرجين يرمون بأنفسهم مثلهنَّ من الطوابق الشاهقة هربًا من الحريق؟

على الرَّغم من كلّ شيء فإنَّ المهاجرين أحبُّوا نيويورك. وعلى الرَّغم من كلّ شيء، فإنَّ الوحدة مكثت في المدينة. تمتدّ الآن فُلات آيرون وراء جابر معلَّقة بين حاضرَين متناقضين، كأنَّها لا تستطيع أن تعده بشيء. أكملت أميركا قطع شرايين مدينته بغداد، وهي تدَّعي إنقاذ نفسها والعالم من صدّام.

شقَّت نور الصمت وقالت إنَّ عليه أن يخرج من عزلته ويلتقي الأصدقاء، فأجاب:

ـ صعب أفتعل أحاديث عاديَّة وآني أفكِّر إنَّه مازن انتهى.... ما هو موجود.

ـ بدار شمس الناس بيآمنوا بالتقمُّص وبأنَّه الرُّوح بتنتقِل من جسد لآخر. الرُّوح ما بتموت.

ـ يقدر الإنسان يتعرَّف على الشخص بسهولة في حياته الثانية؟

ـ أحيانًا.

ـ كلّ الأرواح تنتقل من جسد لجسد بدون نهاية؟

ـ عمَّتي سارة بتقول إنّه الأرواح اللّي بتبلغ الكمال بتخرج عن دورة الحياة الدُنيويَّة. ما بتعود تتقمَّص. بتطلع على عالم تاني. بتصير متل نجمة بين النجوم.

ـ فكرة جميلة. وأنتِ مؤمنة بيها؟

ـ ما بفكّر بالكمال. ما بسأل عن الحقايق الكبيرة. هيك أنا. بس عمَّتي غير عنّي.

ـ شلون؟

ـ هيِّي من أهل العرفان. شايفة حياة غير حياتنا. بتطلَّع لورا هالدَني.

ـ وإنتِ؟

ـ أنا عايشة بتفاصيل هيدي الدَني. لازم جرِّب إفهما بنفس الدرجة اللّي بتفهم فيها عمَّتي الحياة التانية.

ـ والإيمان؟

ـ مش دايمًا بفهم الإيمان. بدار شمس ما في إيمان متل التاني. بس بعرف كيف بيغيِّرلن صوتن وحركات جسمن.

ـ إنت مو طالعة بوسَط اللقطة!

ـ ما فهمت.

ـ ما نطيتيني جواب عن سؤالي إذا كنت مؤمنة! تتكلَّمين عن الآخرين كأنّهم في فيلم تصوِّرينه. إنت خارج الفيلم. تحاولين تصورين اللّقطة لتقربيها لِينا ولِيكِ.

لم تدرِ نور بماذا تجيب. لم يكن جابر يذمُّها ولا يمدحها. كان فقط يشخِّص باهتمام ذلك الحَبل الرُوحي الذي يربطها بعمّتها سارة ويبعدها عنها. لم تدرك المعرفة التي وصلت إليها عمَّتها. لديها بعض انعكاساتها ودلالاتها، وهذا يكفيها الآن.

اتَّصلت بأكرم في مساء ذلك اليوم، وسألته بفتور مفتعل إذا كان لجابر صديقة. أجاب: «صديقة؟ كيف يعني؟ قصدك حبيبة؟ كان يعرف واحدة بس انتهت العلاقة من شي سنتين». شعرت حينها بارتياح عميق.

• • •

جمعتها مصادفات غريبة بطيف جابر بعد بضعة أسابيع. خرجت يوم الجمعة من بوَّابة الجامعة وهي تفكّر في فيلم الدقائق الخمس الذي تقوم بإخراجه. نادتها زميلة لها وسألتها إذا كانت ستحضر عرض فيلم جديد في المساء في سياق الاحتجاجات على الاحتلال الأميركي للعراق، قالت:

ـ الدكتور بهنام، تعرفينه؟ نظّم المناسبة على عَجَل.

ـ ما اسم الفيلم؟

ـ مشية النَّخيل... أو شيء من هذا القبيل.

ـ سأكون هناك. سأذهب الآن لأضع رأسي تحت الدّوش.

همَّت بالاتِّصال بجابر حين وصلت إلى شقتها لتخبره عن الفيلم، لكنَّها تردَّدت. لا تريده أن يشعر بأنَّها تتوق إلى رؤيته وتنتظر مكالماته بشوق. رجعت إلى الجامعة قرابة السَّاعة السادسة. دخلت صالة المحاضرات ٧١٧ في هاملتون هول فوجدتها مكتظَّة بالطلَّاب والأساتذة. ورأت مقعدين خاليَين في وسط الصالة، فجلست في أحدهما.

بدأ الفيلم بلقطات سريعة لأقدام طفلات يلعبن في مدرسة. تُسمعُ ضحكاتُ بعضهن، ثمَّ صراخُهن، وينقطع البث. تقذف الشاشة بسيل من الألوان والأقمشة والأصوات التي أنتجها وجود الأميركيِّين في العراق بدءًا بأدوات الحلاقة لجندي أميركي وانتهاءً بأغنية Let the bodies hit the floor.

أجساد مبعثرة في حي الشعلة غربي بغداد. ترتاح العدسة أمام صورة نخلة متفحِّمة. لم تأكل النار جوفها، فبقيت واقفة. انتقلت النخلة إلى صورة تتقاذفها الأرجل في مطار واشنطن، واعتلت غلاف مجلة ديكور أوروبيَّة، ثمَّ طُبعت على قماش كنبة برتقاليَّة في غرفة بيضاء. تفرَّقت مكوِّنات النَّخلة في القماش. دخل جابر الغرفة، وجلس على كرسي أمامها وبدأ يعزف على العود. لم تصدِّق عينيها. كست جوانب وجهه لحية كستنائيَّة. غرق المكان بالعتمة. انتقلت بعدها العدسة إلى امرأة في سيَّارة إسعاف تتشاجر مع شاب جريح. صحافي أميركي يصوِّرهما بالرَّغم من اعتراضاتها. عادت الكاميرا من جديد إلى جابر وتركته ينشد أغنية لم تسمعها من قبل. لم تكن تظنّ أنَّ له صوتًا بهذا الجمال؛ صوتًا يحملها إلى غرفته المظلمة، لترى ما فعل الحزن به. وحين انتهى من الغناء، رفع رأسه ونظر إلى عينيها. شامة عسليَّة لمعت بالقرب من جفنه الأيسر، مزروعة تحت أهدابه السفلى. شعرت بالبرد كأنَّها تقاوم ميكروبًا ألمّ بها.

لم تستطع، في الأيّام التي تلت، أن تطرد صوته من رأسها، ولا صورةَ عينيه أو شفتيه. اتصل بها ليدعوها إلى الغداء. شعر بأنّها مرتبكة تتلعثم بالكلام. قالت إنّها تفكّر فيه منذ أن رأته في فيلم مشية النّخيل. امتص صوتها اختلاجات غابة لم يدخلها أحد منذ وقت طويل. وضع سكوتها ولهاثها بسمةً على وجهه. تحدّثا عن كلّ شيء ولا شيء. اعترفا بأشياء لم يقترفاها، وأفشيا بأسرار ما كانت أسرارًا حتّى الآن. وصلا إلى النُّقطة التي تسمح للواحد بالاتّكاء على عاطفة الآخر.

كان والد جابر، عبد الرزّاق، وأمّه وأخته هالة، قبل أيّام من اندلاع الانتفاضة سنة ١٩٩١، في حيّ الأندلس في البصرة. أوصلهم الأب إلى بيت أقرباء لهم، وذهب يتفقّد المحافظ وأعوانه، وينظر معهم في وضع الجيش العراقي المنسحب من الكويت. وعزم على العودة مع العائلة في اليوم التالي إلى بابل. لكن هالة كانت تتصبّب عرقًا وتتنفّس بصعوبة جرّاء التهاب حاد في الرئتين، ما استدعى نقلها إلى المستشفى.

كان عبد الرزّاق يعلم بأنّ عشرات العراقيّين في البصرة يحلمون بفرصة كهذه لينتقموا من رجل مخابرات مثله، أجبر عوائل المشتبه فيهم، وحتّى المعدومين، على توقيع تعهّدات خطيّة بعدم مزاولة أيّ نشاط مناهض للحكومة، وإجبارهم على المثول عدّة مرّات في الشهر أمام لجان تحقيق. مرّ يومان وهو يتململ كقط وقع في فخّ. وأخرج الجميع من باب جانبي للمستشفى حين استردّت هالة عافيتها، وأدخلهم في سيّارة مهترئة. وصل إلى حيّ شبه مقفر. أوقف السيّارة قبالة محل بقالة لم يكتمل بناؤه، وأطفأ المحرّك وقال: «انتظروني في السيّارة». غاب بضع دقائق، ثمّ أطلّ مرّة أخرى مع رجل آخر، سمعوه يقول لهم: «بسرعة... بسرعة. كلهم يدخلون البيت!». وما إن خطا خارج عتبة المحلّ حتّى أطلّ رجل مسلّح من ناحية اليسار، رفع الكلاشن وأطلق عليهما النار ثمّ اختفى. تناثر الباذنجان المكدّس فوق بطن أبي جابر، فامتزج لبّه الأبيض بالدم، وبرقت قشوره السّوداء.

بدأت هالة تبكي، وصرخت حياة صرخة قصيرة لأنّ الذُّعر لكزها فأسكتها. أمّا جابر، فبدأ يرتجف، لكنّه مسح دمعته بصمت ودبدب خارج السيّارة. عليه الآن أن يستعيد زئير الأسد، أن يمتلك وجوده في الغابة. كان يجلس قرب والده ليتفرّجا على الأسد في برنامج عالم الحيوان، فيغطّي وجهه بيديه. ويضحك أبوه قائلًا: «شايف شلون يفترس الغزال؟ محد يسأله ليش؟ محد يتجرّأ عليه. لأنّ هذا حقّه!».

تمدّد جابر مع أخته على الأسفلت، الواحد في اتّجاه الآخر، وأمّهما تربّت على رأسيهما. سمعوا أصوات رجال يتشاورون بحذر في حيّ مجاور. شعر بماء يغمر خاصرته. بوّلت هالة في ثيابها، ومسحت بيدها مخاطها الذي نزل على فمها. وشدّ جابر على شفتيه ليخنق غصّته. سمعوا وقع أقدام تقترب. حذّرتهما أمّهما من ذكر اسم أبيهما أو النّظر إلى جثّته.

كان في عينيها مخالب نمر، وفي صوتها صُغاب كنبرة الأرنب الحادّة حين يتوحّش. ظهر رجل وسألهم عن أسمائهم، فقالت له إنّها من عائلة السّاعدي. لم تذكر اسم عبد الرزّاق ولا عائلته. أضاف:

- وين تسكنون؟

- بابل.

نظر إلى القتيلين في محل البقالة كأنّه يعرف كلّ شيء. قال: «هاي الفترة راح تروحون معي للمبرّة مالت الشّاكري. بس يفرجها ربّكن تروحون بابل، زين؟» وقف جابر وتبع الرجل من دون أن يلقي نظرة ولو خاطفة على والده المسجّى على الأرض. أهكذا يمتلك وجوده في الغابة؟ بالتبرّؤ من والده لحظة يموت؟ بخنق العبرة حزنًا عليه؟ بترك ماضيه كجثّته، يأكل نفسه أمام نواظرهم؟

اختنقت الانتفاضة قبل أن تعيد رسم مسارها. خنقتها تماثيل صدّام الغاضبة. ساءها ما حلّ برؤوسها وأعناقها على أيدي هؤلاء الذين كفروا بالقوميّة. الصّنم نفسه الذي تعرّض للشتم وتلقّى شرار النار في ساحة سعد هو الذي أخمد الثورة. تعمّر الأصنام أكثر من الأحياء حتّى حين يُكسَر عمودها الفقريّ. تُغيّر ولا تتغيّر. لا تلد ولا تولد. لا ترضى بأقلّ من العبادة. تفرّج الأميركيّون على الأصنام تقضم الانتفاضة وتترك الجثث تتساوى في الشوارع.

رحل جابر، في السنة ذاتها، مع أمّه وأخته إلى جرمانا في سوريا. كانت أمّه ناقمة على كلّ شيء؛ على والديها وأخيها رضا لأنّهم تخلّوا عنها ساعة تزوّجت من عبد الرزّاق، وعلى نفسها لأنّ حبّها له لم يتعدّ ولعها بخصلة شعره الفضّيّة وسط سواد حالك.

• • •

تتحرّك نيويورك وتتغيّر نور. تراها مدينة صعبة، صلبة، خلّابة. يُرهقها المشي الآليّ السريع بين محطة مترو وأخرى. تركّز في نقطة وهميّة في رأسها كلّما انحشر جسمها مع الأجسام الأخرى المتكرّرة. هي في عالم غير معهود يتخلّله صرير فرامل، صفّارات، اصطكاك قضبان السكك الحديديّة بدواليب القطارات. فالاصطدام بروائح البول والبصاق والعفونة في الجوّ السّاخن روتينٌ لا بدّ منه. تعلّمت في دار شمس كيف تتنشّق نفحات الأتربة والأعشاب بعمق. تُدخلها جوفَها وتتركها تقوم بعملها السّاحر. وكان عليها، في نيويورك، أن تتظاهر بأنّ الرّوائح لم تصفعها، وأنّ

الأصوات أقلُّ عنفًا. حقول دار شمس ونهرها لا أثر لهما هنا. ومع ذلك، فالشجر والماء يلوّنان المدينة. هذه المدينة العموديّة لها ظاهر وباطن. كلاهما جميل وقبيح. نيويورك هي خطّ الأفق وناطحة سحاب وما بينهما من ملائكة وشياطين.

كانت، قبل ساعات من حلول السَّنة الجديدة، تنظر إلى وجه جابر. جلس قربها على مقعد البامبو في بيت زميلة لها في سوهو، وواكبت نظراته شعرة نائمة على خطّ الكحل الممتدّ فوق إحدى عينيها الناعستين. بدا وجهها أكثر امتلاءً كوجه طفلة. قال:

ـ متغيّرة لو آني أشوفج أجمل.

ـ إنت كمان متغيّر. هيدي اللّحية كانت لازمتك.

ـ لازمتني؟ ليش؟

ـ بتبيّن كأنّك عمّ تبتسم. لازملك تبتسم أكتر. بدل ما عاقد حواجبك وعاملّي أستاذ رياضيات.

ـ كلّ لحية وليها قصّة وهاي قصّتها حزينة تعرفينها. بس ما دام عاجبتك نخلّيها.

ـ عاجبتني.

عرضت صاحبة الحفلة على الحاضرين، حين اقترب اللّيل من منتصفه، لقطات لأهمّ أفلام أميركا اللاتينيّة التي صدرت في السنوات الأخيرة. اكتظّ المكان بالساهرين وخفتت الموسيقى. لبسا معطفهيما وخرجا إلى البلكون. شدّها جابر نحوه والتحم جسداهما المرتجفان من البرد. مرّر يدَه على خاصرتها وتلامست شفاههما. فتح أزرار معطفها وكنزتها فقالت: «جابر لا، لا، وقّف». ابتسم مجيبًا: «زين... زين». مسح على لحيته ليتحايل على شهوته وابتعد عنها. كانت قبل اليوم متأكّدة من السَّعي نحو الملموس، من إشباع الرَّغبة التي لا تحتاج إلى تحليل أو إثبات أو عذر. لكنّها اليوم تريد شيئًا آخر. تريد أن تحرم نفسها اللّذات المتقطّعة القصيرة كي تخلق لذّة بعُلوّ وطول يناسبانها. تريد قليلًا من الحرمان كي تحصل على شيء من السّعادة، عندها يتخلّص جسمها من الالتباس.

اقترب منها وقبّل رأسها. شعرت بفرح غريب. قالت: «تأخّر الوقت، لازم نروح». نزلا إلى الشارع ينتظران قدوم سيّارة أجرة. أضاء الثلج السَّماء خلف أحياء سوهو التي عُرفت في الخمسينيّات باسم «مئة فدّان

من الجحيم». كانت سوهو يومها أرضَ خراب صناعيّة. دخلها بعد عقود رسّامون وفنّانون وشعراء. قطنوا في الطوابق العلويّة لمبانيها ليُنجزوا أعمالهم. دُورٌ بلا حيطان، غنيّة بالضوء، في مقابل حفنة من الدولارات. ورغمًا عن قوانين الإيجار، أكلوا وشربوا وناموا فيها. حوّلوا سوهو من مصانع لتدوير الورق والأقمشة إلى منازل دافئة ومتاجر رائعة عجيبة. كانت نيويورك من هنا، من سوهو، قد بدأت تأخذ شكلها الطبيعي بالنسبة إلى نور. أهي دقّات قلبها المتزايدة التي دلّتها على رونق هذا المكان؟

استقلّا سيّارة الأجرة. نظرا إلى الطرقات وهي تمتص انعكاسات زينة العيد. الصّفر رقم ثوريّ، فكّرت نور. تشعر بأنّها تقع في الحبّ والحرارة في الخارج صفرٌ تمامًا. توقّفت سيّارة الأجرة، بعد دقائق، أمام شقّتها، فودّعته. قال: «يوم واتّصل بيچ». كرهت الانفصال عن رائحة النّبيذ والصّنوبر المثلج التي تفوح من جسمه.

مرّ يومان ولم تسمع منه كلمة. شرب في الحفلة عدّة أكواب من النّبيذ. تُضخّم أجواءُ الحفلات المشاعرَ. هل جعلته يقول أشياء لا يعنيها؟ أحسّت بقلقٍ شديدٍ قضى على شهيّتها للطعام.

بدأت أصوات هدير الشاحنات وأبواق السيّارات تصدح من جديد. عاد العمّال إلى تنظيف الشوارع من الثلج بالمجارف وجمع أكياس النّفايات، كأنّ السّنة تقلّد التي سبقتها. اتّصل جابر معتذرًا بأنّ أقرباء له جاءوا لزيارته بغتة من شيكاغو. قال:

ـ لازم نحچي.

- إي.

ـ أكو مطعم صغير قريب من نهر الهادسون. أحب أعزمچ عليه.

ـ طيّب. على العشا؟

- زين.

وصلت إلى المطعم قبل الموعد بربع ساعة. جلست تنظر إلى نهر الهادسون. قرّرت أن تتصالح معه، فتوقّفت عن مقارنته بنهر دار شمس. خفّفت الأضواء من رماديّته وبرودته. تقطعه المراكب وتمرّ من فوقه الجسور، وتستقرّ في باطنه الأنفاق. تستريح مانهاتين، على ضفّته الشرقيّة. وتبحر من هناك القوارب بين بروكلين وجزيرة ستايتن ثم تكمل سيرها لتصل إلى المحيط الأطلسي. لم يبقَ على ضفافه سوى خيالات وانعكاسات للسكّان الأصليّين؛ للهنود. كان أهل قبيلة لينايب يسمُّون نهرهم

بما يليق أن يسمّى، بعلامة فريدة: «النهر الذي يسير في اتّجاهين» أو، الموهيكانتاك. يجتمع في الشتاء الجليد في المناطق الباردة ويتبدّد شمالًا وجنوبًا، وفقًا لسير النهر.

يحمل النهر اليوم اسم هنري هادسون، وهو بحّار قام باكتشافه سنة ١٨٧٤, وقدّمه قاعدةً للمستعمرين الهولنديّين. كيف يكتشف الإنسان نهرًا؟ كيف يكتشف الرجال الهواء والنوارس والأحجار؟ أليست فكرة الكشف التي تتحدّث عنها عمّتها أقلّ حماقة من الاكتشاف؟ أليس الأجدى أن يُعرّف هؤلاء الرّحّالة أنفسهم بالنّهر، كالحجّاج الذين يغيّرون أسماءهم بعد زياراتهم أماكنَ مقدّسةً؟ لماذا لم يأخذ هنري هادسون صفات النّهر؟ لماذا لم يتعلّم منه شيئًا؟ أهكذا يشعر السّارق العصريّ الجديد وهو يهلّل لعالم الاكتشافات؟ أيظنّ أنّ ما سرقه لم يكن موجودًا إلّا حين وقعت عيناه عليه؟ لم يخطر في بال السكّان الأصليّين أن يكتبوا أشجارهم وماءهم بأسمائهم، لأنّهم يعلمون بأنّها ليست ملكهم بل هم ملك لها.

ابتدأ الإنكليز والهولنديُّون، بعد عبور هنري هادسون نهرًا لا يعرفه ولا يفهمه، يتناحرون على استعمار تلك البقعة من الأرض. حمل النهر ماضي نيويورك هذا وحاضرها. صار معبرًا إلى لقمة العيش، إلى أحلام عصريّة وهويّة جديدة. غيّر القادمون المدينة، فانقسمت إلى نيويوركات مختلفة، متنافرة تارة وتارة متجانسة. انبثقت ظلال جديدة من السّواد، سواد البقاع الآسيويّة والأفريقيّة. خاف المهاجرون القدماء. رغبوا في أن ينصهر الجدد في جسم نيويورك من دون مقاومة، وألّا يحاولوا تغيير نيويوركهم البيضاء.

مرّ جابر بأصابعه فوق أصابع نور، وقال:

ـ تعرفين نور شنو أوّل شيء عشقته فيك؟

ـ شو؟

ـ صوتج. چان يحيّرني. چنت أشتهي أذوقه.

ـ وأنا علقت بالنّمشة هيدي اللّي حذ رموشك.

ـ أحبّج.

قبّل باطن يدها فارتعشت من الفرح. ستصل إلى باطن نيويورك كما وصل جابر إلى باطن كفّها. غيّرها الحبّ ووشّى المدينة. تستطيع الآن أن تترجمها إلى لغتها من دون أن تخسرها. قسوتها، حنانها، جرائمها، وعطاءاتها ستصبح جزءًا من حكايتها. ستتحدّث معها، لا كغريبة، وهذا

يكفيها اليوم.

• • •

بالرّغم من عشقها جابرًا، فإنّ جسدها كان يطلب التمهُّل بل يندفع رغمًا عنها في اتّجاه اليابسة كلّما أجبرتهُ على خوض الأمواج، وكلّما استعرضت حججها المنطقيّة عن العذريّة وبلاهةِ المصابين بها. لم يهزأ جابر منها كما فعل أكرم الذي علّق: «نور شو بكِ؟ ما خبّروكِ إنّه إجا القرن الواحد وعشرين!». لم يخطر في بال أكرم أنّها أدركت أمورًا جديدة عن نفسها. تودّ الآن أن تتقشّف في رغباتها؛ أن تمشي خطوات موازية لخطوات عمّتها كي تعيد صياغة جسدها، كي تتناغم الأعضاء كلّها فتقترب ممّا تريد، من جابر. حين خرجت عمّتها من البيت ليلًا إلى القبو، كانت تهيّئ جسمها لمحبّة الخالق. أدركت ذلك المساء إلى أيّ درجة تستطيع أن تحبّ. طقوس من الحرمان غيّرت جسدها. لم يعد هو نفسه. صار بسيطًا ومتجاوبًا مع طريقة القلب. تحتاج نور الآن إلى أن تتبع ظلّها حتّى يختفي؛ إلى أن تعثر على صورة لم ترَها من قبل، صورتها هي. بدأ التقليد يكشف لها سرًّا من أسرار الحياة.

لمّحت نور في رسائلها إلى كاميليا، إلى وجود حبيب في حياتها، لكنّها لم تذكر أيّ تفاصيل. أمّا جابر، فعلى عكسها، فقد أعلن لوالدته عبر الهاتف: «أم جابر ابنك عشقان واحدة لبنانيّة». ضحكت وقالت: «تره الحبّ ما هو كلمة وبس. شوف أمك وحظها المصخّم!». ثمّ اتّصل بنافع، أستاذه. كانت مخابرة قصيرة. أقفل الخط ومشى إلى البلكون وهو يغالب البكاء الممزوج بالضّحك. نشر نافع قصائده بعد خمسة عشر عامًا على شلل الكلمات. تحدّث عنها كما يتحدّث عن طفل أنجبه بعد سنوات طويلة من العقم. لكم تمنّى جابر سماع خبر جديد عنه، أيّ خبر، كأن يقول له إنّه عاد إلى عمله في التدريس، أو وقع في حبّ امرأة، أو لحق برفاقه في السويد. لكنّ الأيّام مرّت ونافع قابع في جرمانا كإنسان يعمل في محطّة قطار ويرتاب من ركوبه. وفتحت عودة الشّعر إليه ثغرة في حائط الذّنب الذي انتصب أمام جابر لسنوات كابن رجل مخابرات.

علّمه نافع العزف على العود، وعوّد أذنه على المقام حين كان في جرمانا. رموه في السّجن خلال سنوات الحرب مع إيران ثلاثة أشهر لأنّه رفض أن يكتب قصيدة يهجو فيها أعداء صدّام. وحين خرج، عرف أنّه لن يسمع كركرة الماء المتدفّقة في ضحكة أمّه. توفّيت في حادث سيّارة. تساقطت أحلامه مع شعرات رأسه، وانحنى أمام قبرها وهمس:

«سامحيني يقه. يا ريت قدرت أفديچ بعمري». ومزَّق القصائد التي حضَّرها للنشر وتوقَّف عن التَّعليم. أغلق باب الغرفة على نفسه وجلس مع عوده. رضخ يومًا لإلحاح رضا خال جابر فذهب معه إلى مقهى في الأعظميَّة لملاقاة بعض زملائهم. هناك رأى أحد شعراء صدَّام الجدد يشرب العصير. مشى نحوه، وقبل أن يستطيع رضا اللَّحاق به كان قد بصق في وجهه. أخذ هذه المرَّة إلى سجن نقرة السلمان. كان ينتظر الموت المحتم.

لم يمت. لكنَّه حين عاد إلى الكاظميَّة لم يقوَ على النَّظر إلى الخيالات والأصوات التي يتركها الناس من حوله. كان كقلب أفرغ من حرارة الدِّماء. كان أكثر صلابة في السِّجن حين أنجز بروڤات موته. لكنَّ صُوَر زنزانته ورفاقه انقضَّت عليه حين عاد إلى حياة يصعب فيها الموت. صور مكتظَّة بقلوب تعشق، وبانعكاسات أجسادها العموديَّة وصمتها الأفقيّ الأخير. رجاه أبوه أن يهاجر إلى أيّ بقعة أخرى من الأرض.

على الرَغم من حبّ جابر لنافع، فإنَّه لم يكن يعرف كيف يكره أباه من دون أن يسير إلى الهاوية. في داخله غرفةٌ معتمة وفيها صورته وهو يجلس في حضن أبيه. باب الغرفة مقفل. لا يستطيع أن يستعيد الصُّورة أو يمزِّقها. كلّ ما استطاع قوله لنافع قبل أن يترك جرمانا إلى لوس أنجلس: «چنت أتمنَّى لو إنت والدي». وشعر بأنَّ الأقدار وضعت الواحد منهما في طريق الآخر كي يجدا لغة ألم واحدة تحت ركام الثنائيَّات.

• • •

قدِمَ أيَّار للمرَّة الثانية، فعزمت على الذهاب إلى لبنان لتصوير أحد الفيلمين القصيرين لأطروحة الماجيستير. كانت تفكِّر في دار شمس وأهلها الذين لم تَرَهم منذ سنتين. كانت تفكِّر في نفسها أيضًا. لَكَم تغيَّرت. شعرت بأنَّها تختزن قوَّة غريبة، وهي تقف على شرفة الشقَّة الجديدة التي اشتراها جابر، ربَّما استمدَّتها من نيويورك، من امتحانات العيش فيها، من جرأتها، من ألحان مقاهيها. لو أحاط بها جابر بذراعيه الآن وهي تدير ظهرها لبروكلين فلن تعترض. ستتركه يقرأ ما كُتِب خلف كلّ صورة من جسمها. لَكَم كبرت الزَّنابق البيضاء في الحوض الذي اشترته له. تعلو الآن فوق البلاط الحجريّ الأحمر. تبدو مغرية بضلوعها الخضراء، وتسيطر على الورود المحيطة بها. تشعر نور، وهي تتأمَّلها، بأنَّها اقتربت من البحر وباتت قادرة على الاندفاع مع حركة الأمواج. لم يعد جسمها مكبَّلًا بالاضطراب العذريّ والشكوك. صار خفيفًا طيِّعًا.

دخلت الصالون وجلست على الكنبة، وألقت بيديها على المساند المحيطة بها. ارتشف جابر فنجان القهوة وقال:

ـ نور لمَن توصلين دار شمس تصارحين أهلج بعلاقتنا. ويش ننتظر؟

ابتسمت ومالت بعنقها بأسلوب مبتكر. تراءى له في تلك اللَّحظة أنَّ في عينيها زنابق، والزَّنابق طفت على وجه بحيرة داكنة. مشى نحوها ليتأكَّد ممَّا رآه. سمع لهاثها وهمس قائلًا: «أريد أنام سنين فحضنج». التصقا طويلًا حتَّى نضج طعم الجلد وصارت القبلات جسمًا آخر. تعلَّما كيف يتنفسان من فم واحد وكيف يُكملان السكوت.

لم تجدِّد نور إيجار شقَّتها في مرتفعات مورنينغ سايد. انتقلت قبل سفرها إلى لبنان للعيش مع جابر في الشقَّة ذات الشبابيك العارمة وإطارات الخشب العسليَّة. لم يكن يحتمل شبابيك لها قضبان حديديَّة. قال إنَّه بحث كثيرًا عن شقَّة تستقبل أشعَّة الشمس والقمر وانعكاسات الأشياء من الخارج. من بابل وبغداد إلى جرمانا، ومن لوس أنجلس إلى نيويورك، يستطيع الآن أن يتغلَّب على شكِّه في وفاء الأمكنة. يستطيع أن يأنس بحنينه إلى أصدقاء وطرقات تركهم وتركها في العراق. لم يعد يريد أن ينظر إلى شجرة الدَّردار في سنترال بارك ليفتِّش عن سعفات نخيل.

شعرت نور، هي الأخرى، شيئًا فشيئًا، باقتراب المستقبل، وبأنَّ العقل والعاطفة توقَّفا عن لعبة التنافس الوهميَّة. بدا لها أنَّ المكان الطبيعيّ هو صدر جابر. أمَّا الزمان فهو مجهول يعبر بين ساعتي قلب كلّ منهما بإيقاع.

• • •

وصلت نور إلى مطار بيروت بعد ظهر يوم السبت. كانت تفكِّر في أمِّها وأبيها. لَكَم اشتاقت إلى مثتهما الصباحيَّة! نظرت إلى صورة كاميليا على زجاج حاسوبها. تأمَّلت عينيها الزرقاوين وخدَّيها الورديَّين. تشبه كثيرًا خالتها مهيبة. قامت هذه السَّنة بالتحويل من البيولوجيا إلى علم البيئة في الجامعة الأميركيَّة. أمَّا أخبار محمَّد التي وصلتها خلال سنتين، فكانت متضاربة. مرَّة يقولون لها إنَّه أصبح عاقلًا، ومرَّة أخرى يخبرونها بأنَّه يتحاشى الجلوس مع بعض أصدقاء والديها القدامى لأسباب دينيَّة.

كان أبوها في انتظارها. أدمعت عيناه وقبَّلها قائلًا: «طوَّلتِ الغيبة يا بابا. فقدنالِك كتير». وأخبرها، في الطريق إلى دار شمس، بأنَّ محمَّدًا لبَس زيّ الجودة وانضمّ إلى حلقة الشَّيخ فوزي. وأضاف، والمرارة تُثقل صوته، أنَّ ابنه كان مهووسًا باصطياد العصافير قبل أن ترحل هي إلى أميركا. أمَّا

هذا الصيف، فقد صار صيدًا للشيخ فوزي. لا يفوّت مناسبة لزيارته والعمل بنصحه.

شعرت بالاختناق. صار موضوع زواجها من جابر أكثر تعقيدًا. لا يجب أن يعرف محمّد شيئًا قبل أن تقنع أمّها وأباها بالموضوع. لمعت ذكرى عابرة في رأسها عن محمّد. كان في السّابعة من عمره. جلس يرسم ألوان الحدود الخمسة، سادة الموحّدين الدُّروز، على غلاف دفتره. سألته يومها خالتها عايدة:

ـ هودي الحدود الخمسة؟

ـ هودي الألوان السّحريّة. في أزرق وأحمر وأصفر وأبيض وأخضر. إذا خلطناها وحطّينا سمّ العنكبوت معا منعمل وِيبْ فلُوِيد.

ـ شو؟

ـ هيدي حبال بيرشّهم سبايدرمان من إيديه. بيِلَزْقو بالحيطان، بيصير يطير.

استبدل اليوم محمّد سبايدرمان، رجل الخوارق، بسادة لهم كرامات. لكنّه لم يفهم الطيران. اكتفت روحه بالدوران في الهواء الذي يخرج من فم الشّيخ فوزي. جعله مثالًا يُقتدى به، لكن ليس كما اقتدى الشّيخ فوزي بالشّيخ مزهر. فهذا الأخير كان رجلًا حييًا رقيق القلب. يقولون إنّ بعض الكائنات المفترسة في الطبيعة تقلّد مخلوقات مسالمة كي تقلّص نسبة الاعتداءات عليها من الآخرين. التنكُّر بمظهر كائن مسالم، مثل الشّيخ مزهر، كتب للشّيخ فوزي فرصةَ النجاة. بعد أن جذب عددًا كبيرًا من التلاميذ إليه، أصبح قادرًا على أن يصدّ هجمات مَن هم أعلم وأمهر منه.

نزلت نور من السيّارة حال وصولها إلى الحيّ، قائلة: «بدّي شوف عمّتي سارة وخالتي مهيبة. بابا اسبقني على البيت. لاحقتك». ركضت في الطريق الحجريّ الملتوي الذي ظلّلته أشجار السنديان والكينا ودخلت الخلوة. ارتمت في حضن عمّتها. تنشّقت رائحة الحبق واسترخت براحة طفوليّة. وما إن همّت بالسّؤال عن خالتها مهيبة حتّى رأتها تدخل المجلس وفي يدها باقة من الزّهور البرّيّة. ضمّتها نور بشوق، ثمّ تربّعت على الأرض قبالتها. كان في عينيها نظرة حالمة لم ترها من قبل. أخذت تداعب الزّهور بأصابعها. انحسر منديلها ليكشف عن شعر شبه مصفّف. شعرت نور بغرابة هيئتها وحركاتها. تذكّرت ما سمعته وهي صغيرة، فقد شعر والدها بالانكسار حين أقسمت ألّا تتزوّج وأن تصبح جُوَيدة. وقالت أمّها بمرارة:

«ما شفتِ شي من هالدّني. وحيد مات، اللّه يرحمه. بكرا بيجي غيره. لازم تتزوَّجي وتجيبي ولادا!». استفاقت نور من ذكرياتها على رائحة حطب مشتعل آتيةٍ من أحد البساتين المحيطة بهم، تململت ووقفت قائلة: «رح إرجعلكن بكرا. بعدني ما شفت إمّي». علَّقت عمَّتها باسمة: «يا ترى رح تشوفي حدا بدار شمس متل ما تركتيه؟»

كانت أمّها وكاميليا في انتظارها عند باب البيت. عانقتهما ضاحكة، ثمَّ تأبَّطت ذراع أمِّها ومشت معها لتسلِّم على محمّد. «الحمد للّه على سلامتك أختي»، قالها في وقفة منضبطة. خالت أنَّها سمعت رنَّة حنونة في صوته. ولم يُطل في المساء المكوثَ معهم في الحديقة التي عجّت بالأقرباء والأصدقاء.

لم تنم جيِّدًا. استيقظت متأخِّرة، وخرجت إلى النّهر. استلقت على الأعشاب وعصرت أطرافها الطرّيّة بين أصابعها، وتنشَّقت ماءها الأخضر اللّزج. ما زال النهر هو وزائروه متشابهين. يهدأون حين يهدأ، ويقفز هو حين يضجُّون من حوله. يُصاب الجالس على ضفافه بالنعاس من دون أن يراوده الكَرى في مثل هذا الفصل من السنة. وقد يغط فجأة بالنوم من دون أن يصاب بعوارض النعاس. أغمضت نور عينيها وهي تفكّر فيما قالته لها أمِّها قبل أن تخلد إلى النوم. انضمام محمّد إلى الأجاويد أمّن له الهدوء النّفسيّ الذي كان يفتقده. صار أقلّ عصبيّة وأكثر صبرًا. وجد أخوها الحلّ لأزمته، أمّا هي فمن سيحلّ لها مشكلتها.

• • •

كانت، خلال الأيّام التالية، تسترق النّظر إلى هيئة أخيها الجديدة؛ إلى سترته البيضاء، جبّته، سرواله الأسود الفضفاض وشاربه العارم الذي يغطّي شفتيه. كانت أمّها على حقّ. بدا أكثر هدوءًا وثقة بالنّفس. أصبحت أمّها في الوقت ذاته، أكثر تحفُّظًا في لباسها وعاداتها اليوميّة. شعرت نور بضيق شديد، وخطرَ لها أن تتحدَّث إلى كاميليا. جلست بالقرب منها على السّرير. كانت تستمع إلى الموسيقى، فنزعت السمّاعة من أذنيها وتربَّعت قائلة: «خير انشاللّه؟» فحكت لها عن علاقتها بجابر. علَّقت بتجهُّم:

ـ مش يمكن لو تعرَّفتِ على حدا درزي كان عجبك كمان؟

ـ شو أنا عم فتّش بصحّارة تين!

ـ أنا...

ـ بلكي كان لازم إهجم على أوّل درزيّ بشوفه بنيويورك! أنا بحبّ جابر، بتعرفي شو يعني بحبّه؟

نصحتها بأن تفاتح عمّتها في الموضوع. «عمّتي؟ لا، لا»، ردّدت نور وهي تشعر بالوجل. حسبت حساب كلّ شيء إلّا عمّتها سارة. هل سيقضي حبُّها لجابر على علاقتها بها؟ لن تجد عمّتها دليلًا في طيّات ما قرأته واختبرته على أنّ حبّها جابرًا حقٌّ لها.

أخذت كاميرتها وقرّرت أن تلوذ إلى دير القمر هربًا من همومها. حملتها قدماها إلى مسجد الأمير فخر الدّين المعنيّ الثاني وسوق السكّافين. مشت في ساحة الميدان، ونظرت إلى انحراف مئذنة المسجد المثمّنة على أثر زلزال. ذكّرها منبر المسجد المصنوع من الخشب الأحمر الدّاكن بقاعة المحكمة التابعة لجدّها الأعلى. طلب الأمير، في أحد الأيّام، من طبيبه الكبُوشيّ أن يعمّده ليصبح مسيحيًا. وعزا مؤرّخ غربيّ ذلك إلى التقيّة. قال إنّه تعلّم في بيئته الدرزيّة كيف يحافظ على سرّيّة دينه، وكيف يكذب على الآخرين. حاول أن يُرضي العثمانيّين، فصار أيضًا مسلمًا من أهل السُّنّة. لكنّ في كلّ ذلك ضربًا من المحال. قد رفع صوته بصلواته المسيحيّة والإسلاميّة إلى أذن اللّه، مرّةً وخمسًا وألفًا. صار مسيحيًا وصار مسلمًا. احتفظ بمزيج لا يمتّ بصلة إلى أيّ طائفة؛ لا يختصّ بالدروز.

«تُرينا دير القمر حقيقتنا قبل أن يُفسدها التضادّ»، قالت لها عمّتها يومًا. ألم يبنِ الرُّومان هيكلًا لإلههم قمر في البقعة حيث ارتفعت كنيسة سيّدة التلّة؟ غاب القمر في قلب مريم العذراء وصارت هي هيكلَ نوره ووعاءَ شعاعه. صارت مزيجًا من الكلّ. كانت دير القمر مكانًا واحدًا كلّيًا للعبادة، في لحظات متباعدة من الزمن، ومتقاربة خارج الزمن. ضمّت حجارةُ الوثنيّين وكنيسًا لليهود، وتلقّفت صلوات المسيحيّين والمسلمين. أمّ الصّلاة في مسجدها أئمةُ المذهب الحنفيّ، وصلّى الأمراء الشهابيّون مصحوبين بمشايخ الدّروز.

جلست في أحد المقاهي واتّصلت بجابر من هاتفها الخَلَوي. لم تستطع الخوض في موضوع زواجهما، قالت له، لأنّ محمّدًا صار جُويّدًا، وأيّ جُويّد؟ أحد أتباع الشّيخ فوزي الذي يتلذّذ في تفنيد مصادر الكفر والانحلال لدى الطوائف الأخرى. صمتَ لبرهة ثمّ سألها: «ليش ما تحچين ويّ عمتچ؟» أجابته بخوف: «عمتي؟ لا. لا مش قادرة!». ستنتهي من تصوير الفيلم قريبًا، فتجمع أمّها وأباها وتصارحهما بالموضوع. ستسألها أمّها عشرين سؤالًا عنه قبل أن توافق. وسيُعجب والدها بصفاته. سيُريها

من جديد ذلك الجرح في رأسه، وهو يقول إنّه تذكار من مظاهرة طلّابيّة تندّد بالطائفيّة. سيطلب من عمّتها أن تسامحها على إساءة لم تقترفتها. سيحبّ جابرًا كثيرًا.

• • •

أنهت التّصوير في بلدتين ريفيتين، بعد مرور ثلاثة شهور، ولم يبقَ أمامها سوى البلدة الثالثة. بحثت، في مسودّة فيلمها التوثيقي، في التحوُّلات التي طرأت على علاقة الإنسان بالطّعام في بداية القرن الواحد والعشرين. ربّما كان تقشُّف عمّتها وفقدان الشهيّة لدى سارة برانفورد يجولان في ذهنها حين اختارت موضوع الفيلم. كتبت في نيويورك الخطوط العريضة له. أمّا الإيقاعان الزمنيّ والمكانيّ وطريقةُ السّرد فستبلورها فيما بعد. وانضمّ إلى فريق عملها مدير فنّيّ يشرف على أماكن التّصوير ومهندسُ صوت وشخصٌ يُعنى بالإضاءة.

منعها انشغالها بالتّصوير من زيارة الأقرباء. قالت رباب لسلوى: «شو كأنّها ثأمرَكِت؟ ما حداش عم بيشوفا؟» فأسكتتها كاميليا قائلة: «شو رأيك قِلّا تجي تصوّرك. هيك بتشوفيا!». ومع ذلك، لم تجد نور بدًّا من الذهاب إلى المتن الأعلى لحضور عرس نوال، وهي زميلة قديمة لها في الجامعة.

استيقظت صباح يوم الأحد على صوت والد نوال يدندن مع فريد الأطرش «علشان ما ليش غيرك». كانت تشعر بصداع شديد في صدغيها وتجرّ قدميها جرًّا. امتدّت حفلة العرس البارحة إلى بعد منتصف اللّيل. وقرّرت، بعد أن غادر العروسان، أن تَبيت في منزل عائلة نوال.

لبست ثيابها ببطء وحملت حقيبتها استعدادًا للعودة إلى دار شمس مع صديق لأبي نوال يعمل سائق أجرة. وقبل أن تغادر الشقّة، ملأ المكانَ صراخٌ حادّ في البناية تبعه سباب. سمعوا توسّل رجل ممتزجًا ببكاء امرأة. هرع أبو نوال إلى الطابق الأعلى وهو يقول: «هيدا بيت أديب اللّحام!». لحقت به زوجته وابنته، وتبعتهم نور مشدوهة. أطلّ رجل بكتفين ضخمتين ورأس صغير. كان يحمل سكّينًا. سأله أبو نوال: «شو الموضوع يا جماعة؟ شو في يا أديب؟»، فصرخ قائلًا: «بدّنا نذبحه هالمسلم الكلب اللّي ضِحِك على أختي وتزوّجا! بدّي إسلَخلُه جِلده متل ما بِسلخ جِلد البقرة!». صرخ به أبو نوال: «لاه لاه، اعطيه للدّرك! شو عم تعمل؟». أجاب: «فِش عندي دَرَك! في نار بصدري بدّي طفّيا. روح فِلْ مِن هون!» ثمّ استدار وقال لوالدته: «إمّي زيحي تَقِلّك. بدّي فرجي الناس كِلّا عليه!».

دفع، بعد لحظات، شابًا بثيابه الدّاخليّة أمامه. كان وجهه مليئًا بالكَدَمات، والدمُ يغطّي عينه اليسرى. صرخت نور: «مجرمين! اتركوه... ما إلكُن حقّ!». جحظت عينا اللّحام وشتمها: «انقبري اسكتي! إي تفوه على البنات!». وخرج رجل آخر من شقّة اللّحام، وبدأ يضرب الشّاب بقطعة حديد، فأخذها أبو نوال منه بالقوّة. دفعت أمّ نوال ابنتها ونور أمامها فنزلتا بضعة أدراج في اتّجاه البيت. صعدث من الشّاب صرخةٌ مخيفة تلاها صمت. كان قد أُغمي عليه. صرخ أبو نوال بأعلى صوته: «يا مجانين، قطعتولُه ياه!». لم تستطع نور أن تحرّك قدميها. سمعت اللّحام يقول: «بدّي علقه على شريط الكهربا قدّام هالبناية لحتى يُضفى دمُه!». وأجاب الرجل الآخر: «يا خال، بيت النار عندك. رصاصة واحدة وخلصت!». رمى أبو نوال نفسه فوق الشّاب كيلا يحاولا قتله. لم يتجرّأ أحد على مساندته ما عدا امرأة تعمل ممرّضة. وصلت سيّارة الإسعاف بعد دقائق مع رجال الشرطة، فنُقل الشّاب إلى المستشفى، واعتُقل اللّحام وخالُه.

كانت أخت نوال تتأبّط يد أمّها مذعورةً، حين استعادت البناية هدوءها، فشجّعتها قائلة: «ما تخافي يا بنتي. ما رح يصير عليه شي! متل السعدان. يالله بيستاهل!». اعترى نورَ وجعٌ حادّ في معدتها، فأتت لها بفنجان من ماء المريميّة لتشربه، لكنّها أبعدته عنها. وهمست ودموعها تنهمر: «ما كنت عارفة إنّه في بقلبك كلّ هالحقد. عمّ بتدافعي عن الإجرام؟» تعجّبت من تطاول نور عليها بالكلام، وعبست قائلة: «اصطفلي!».

وقفت لتغادر الشقّة. رفعت حقيبتها عن طاولة الصالون. كانت يدها ترتجف بشدّة، فارتطمت الحقيبة بكيس قربها وقع على الأرض وخرجت منه عشراتُ كاميرات الكوداك باللّونين الأسود والأصفر. رأت لوهلة قدميها بعيدتين عن جسمها والكاميرات كالنّمال تزحف نحوها. جمعتها والدة نوال استعدادًا لأخذها إلى الاستوديو للتظهير. انتقلت بخفّة وأنفة من طاولة إلى أخرى خلال العرس كأنّها راقصة باليه. حثّت ضيوفها على التقاط صور لهم وللعريسين. انتشرت الكاميرات على الطاولات كأنّها ربطات من الخبز. منخفضة الكلفة، مُعَدّة للاستخدام مرّة واحدة، ومزوّدة بفلاش مدمج وبَكَرَة فيلم مثبّته. كان هذا أقصى ما توصّلت إليه كوداك في الاستغناء عن المصوّر المحترف. صنعت عَشرات الأيدي اللّقطات. مع هذا، كانت متجانسة مترادفة ذات بسمات ميكانيكيّة أدمنت عليها الكاميرا.

• • •

مشت نور تحت الشمس المحرقة في طرقات لا تعرفها. استدلّت على موقف سيّارات الأجرة. كانت النار تعشّش في شعرها، ترقد كالجمر بين جفونها المبتلّة بالدُّموع، وتحرق شفتيها الناشفتين. لا تتذكّر ما قالته لسائق الأجرة، ولا كيف انطلقت السيّارة بها إلى دار شمس. امتدّت موجات من الألم من عنقها حتّى أذنيها. تحوّل فمها إلى مغناطيس يشدّ صفّ أسنانها الأعلى في اتّجاه الأسفل، ويقاوم انفصال الفكّين.

فكّرت في الرّصاصة التي لم تخرج من بيت النار؛ لم تقتل الشاب. فكّرت في الرّصاصات الدافئة التي يطلقها بيت على نفسه، وعائلة على أطفالها، ومدينة على أهلها. تنغرس في أجسامهم لتحميهم كما تفعل حقن اللّقاح ضدّ الشلل وضدّ الأوبئة. تُميت عاطفتهم تجاه البيوت الأخرى والأطفال الآخرين والمدن الأخرى. تحمي الرّحم الأوّل حيث تنام الطائفة، مولودُها الأبديّ. لهذا تبدو دافئة، جيلاتينيّة. لا تخلّف وراءها الدّماء. تختبئ الأرواح التي تموت تحت الصّخور حيث المناعة أقوى. والأرواح التي تشهد عليها تنفصل عن الجبال لأنّها تكره كلّ ما هو شاهق؛ كلّ ما يتساوى أمام البصر. تزحف بعيدًا عن البحر لأنّها لا تحتاج إليه. ففي البحر، تتّحد كلّ المكوّنات والعناصر والأرواح. والبحر لا يرى سوى أفكار السماء المتغيّرة.

تماوجت كلمة «بيت النار» في رأسها. تقول عمّتها سارة إنّ حمزة بن علي الذي أسّس الدّعوة الدرزيّة هو العقل. العقل كحجر الصوّان يقدحه اللّه بفضله. وحين يُقدَحُ العقل، يندفع منه الشرار فتتلقاه النّفس وتتحرّك به وفيه. سألَتها:

ـ شو هو الزّناد يا عمّتي؟

ـ اللّي بتشعلي فيه النار. وِلِي النفس متل الزناد بيجمَع الشّرار لمَا العقل وإرادة اللّه بيلتقوا.

ـ هو بيت النار؟

ـ نعم والنور. لكن أحيانًا اللّي مِنفَكرِه نور هو في الباطن نار. والعكس بالعكس.

ـ إذًا، كيف رح نعرف الحقيقة؟

ـ بالعرفان منوصل للعلم. مِنفهم الملتبس. نحنا مْسلّمين لألله مش خوف من غضبه ولا طمع بثوابه.

ـ يعني لازم نسلّم بلا شروط؟

ـ نعم.

تساءلت اليوم، وهي جالسة في السيّارة وحرارتها ترتفع، كيف يمكن لمن لَم يسلك طريق العرفان أن يميّز بين الحقيقة والوهم؟ كيف يعرف ما هي حكمة اللّـه وعدلُه؟ تشكّ في كلمات عمّتها وتشكّ في قدرتها على فهم ما يحدث حولها. الحدود الخمسة ـ سادة الدروز ـ أمرٌ يبدو لغزًا؛ ضربًا من الرّمزيّة. تعاليمهم لا تقدّم ولا تؤخّر في شيء في الحياة اليوميّة. ومع هذا، فهؤلاء السّادة متّفقون على أنّ العالم الذي لا نستطيع أن نحسّ به أهمّ وأجمل من العالم الذي نختبره. ألهذا يؤجّل الناس الحكم على المجتمع الذي يعيشون فيه؟ ألهذا يؤجّلون تغييره؟ الإيمان بهؤلاء السّادة يساعدهم على تنقيح اللّقطة السينمائيّة وتصحيحها؛ لقطة الحياة نفسها، قبل أن تُعرضَ على الشاشة الكبيرة. يسمح الإيمان لهم بتنظيف الصُّورة، بمسح المرارة والخيانة منها. هو كبرنامج الحاسوب «فاينِل كات پرو»، الذي يساعد المخرج على صنع نسخة الفيلم النهائيّة؛ نسخة الحياة التي يصبح الموت من دونها هو الموت؛ نهاية بدنيّة لا غير.

هل تبدو عمتها سارة خارج الزّمن، أم هي خارج الإيمان؟ هل هذا اختبار لها، لإيمانها؟ ما جدوى هذا الاختبار؟ يبدو دون مستوى اللّـه. لا يليق بحقيقة الحقائق. هناك أشياء تدعو إلى الشك وليس من إجابات لها. كيف نستطيع أن نسلّم ونحبّ بلا شروط؟ إذا كان الخالق الواحد مسؤولًا عن والد إيلي وأكرم ودانا ومحمّد، وعن تناقضاتهم، فنحن فقدنا الثقة بمعتقداتنا، ولم نعد نأتمنها على خلاصنا. نحن هنا على هذه الأرض وليس أمامنا سوى الظاهر. الظاهر وإن لم يكن الحقيقة، فليس وهمًا أيضًا. ليس هباءً. كيف نستطيع تأجيل الحكم على ما نراه في الظاهر جريمة؟

قال الطبيب الذي اتّصلت به سلوى إنّها تعاني التهابًا بكتيريًا في المعدة، وإنّ تدهور وضعها النّفسي أدّى إلى تفاقم مرضها. سأل عمًّا حلّ بها، فقالت بقلق: «ما فهمت مِنّا شي. هلّق بتّصل ببيت صاحبتا وبعرف شو صار». ووصف لها دواءً للالتهاب ومهدّئًا للأعصاب. وأوصى بأن تُكثر من شرب السوائل وتلتزم الرّاحة التامّة.

كانت، طوال ثلاثة أيّام على التّوالي، تصحو لتشرب الماء والعصير ثمّ تنام. تغزو مخيّلتَها الصُّورُ. تتراءى لها نوال في ثياب الزفاف تشدُّها لترقص معها. ويظهر اللّحام من ورائهما بسكّينه الكبيرة. ترى صهره عاريًا ينزف. يتوسّل، لكنّها لا تسمع صوته. ترى جابرًا مجروحًا. لا تسمع منه سوى كلمة ماء. يموت أمام الجميع. ترقص السّكاكين حوله والناس

يزغردون. تقنعهم والدة نوال بأن يتركوه مكوَّمًا على موته، وتصفق باب بيتها وراءه وتخرج. تصحو نور من كابوسها وهي تصرخ.

• • •

انتشرت أخبار الجريمة بين الناس. أحيل اللَّحام وخاله على التحقيق، ووُضعت أخته في عهدة عمَّتها لحمايتها. نجا الشَّاب من الموت بأعجوبة. يوم تزوَّج بأخت اللَّحام، دقَّ هذا الأخير على صدره وقال إنَّه سيذبحه هو وأخته. وأوهمهما، بعد مرور ثلاثة شهور، بأنَّه غفر لهما ودعاهما إلى العشاء. أدخلتها يومها أمُّها الغرفة وربطتها بخشب السَّرير بمساعدة خالها. وقام أخوها بتعذيب زوجها بشتَّى الوسائل، قبل أن يهشِّم خصيتيه ويقطع عضوه التناسلي.

استقرَّت في اليوم الرَّابع حرارةُ نور، لكنَّ بعض الألم لازَمَ رأسها ومفاصلها. ضمَّها بدري بحزن قائلًا: «شدِّي حيلك يا بابا. هودي وحوش. جزبي شيليهن من راسك». وأضاف أنَّ عمَّتها زارتها مرَّتين، ووجدتها نائمة فجلست قربها تصلِّي. طلبت نور منه أن يأخذها إلى الخلوة، فحثَّها على تناول الطعام أوَّلًا. عدَّلت جلستها وبدأت تأكل من صحن الأرز المسلوق الذي أتت به كاميليا.

وقفت بعد الظهر تحت الدُّوش تتأمَّل الماء المنهمر بغزارة على يديها. نشَّفت جسمها وفتحت قارورة عطر الياسمين لكاميليا وتنشَّقتها. ارتدت فستانًا فضفاضًا. لم تحتمل أن يضغط شيء على جلدها. لبست خاتم الياقوت الذي أهداها إيَّاه جابر، ونبشت ديوان بيشوپ، وحاولت أن تسترجع صوت دانا وهي تقرأ قصيدة الأرق. بدت كأنَّها تقوم بطقوس ضدّ الخوف والغثيان. لم تقوَ على التحدُّث مع جابر بالتليفون. لا بدَّ من أن يكون قد اتَّصل بأكرم، وفهم سبب انقطاع مخابراتها. فتحت حاسوبها وكتبت له: «أتذكَّر حين قلتَ لي إنَّني خارج اللَّقطة؟ صرت الآن داخلها يا جابر! أصوِّر نفسي. أتقمَّص خيالات الآخرين. لقد انكسر ذلك الحاجز الذي يُشعرني بالأمان، ويحميني».

مشت بخطوات بطيئة إلى باب البيت وفتحته. كان محمَّد يهمّ بالدُّخول ومعه إياد الذي بانت في عينيه فجأة نظرةٌ شرهة. مدَّ أخوها يده عاليًا كي يصافحها فاعتذرت بأنَّها لا تريد أن تصيبه بعدوى مرضها. قال باستخفاف: «أنا أبصخنش! بعدين ياللّه كبّي لورا ضهرك». نظرت إليه باشمئزاز فابتسم. وخرجت وهي تقول له: «أنا بالخلوة».

ضمَّتها الستّ مهيبة إلى صدرها وقالت: «استهدي بالرَّحمن. اطلبي من اللّه يلطف بعباده ويهديهن». تساءلت نور عن معنى أن يكون في الدّين هدايةٌ للناس، فأجابت عمَّتها: «مش كلّ درزي بيصير مُوَحِّد، ومش كلّ موحِّد بيصير من أهل العرفان. أصابيعك بإيديكِ سوا يا نور؟» فتنهَّدت عن غير اقتناع. لا تنحصر المأساة فيما فعله اللّحام، بل في أعداد غفيرة من الناس الذين برَّروا فعلته. كسا الإرهاق وجهها وانهمرت دمعة لم تستطع حبسها وهي تتذكَّر أم نوال. أرادت لوهلة أن تخبر عمَّتها عن علاقتها بجابر وتطلب مساعدتها، لكنَّ الكلمات خانتها. لم تكن تعرف كيف تتغلَّب على قلقها وخوفها. بدأ جسمها يرتجف. حين رأتها الستّ سارة بهذه الحالة طلبت منها أن ترتاح في حجرتها؛ المكانِ الذي لا يدخله أحد غيرها.

استلقت نور على فرشة صغيرة في الحجرة. فاحت رائحة الشاي الأخضر من الغطاء الذي غطَّتها به خالتها مهيبة. وجدت السكينُ طريقًا إلى نفسها، فأغمضت عينيها وغطَّت في نوم عميق، وحين استيقظت، كان المكان قد غرق في العتمة. رأت في الممرّ صحنًا من البلّور، فيه شمعة مضيئة. تلقفت صوت عمَّتها آتيًا من الدار. كانت تتحدَّث إلى محمّد. بدا صوته قوِيًّا ثابتًا. اخترق همسات أوراق الحبق ومواء القطط الخفيف. قال:

ـ الدرزي اللّي ما بيدافع عن إخوانه بيكون ضلّ عن تنبيهات وليّ الحق، حمزة بن علي، مِتِل ما ضَلّ ابن البربريّة الملعون.

ـ هودي إسا اللّي قريتُن وفهمتُن؟

ـ هيدا السنّي هتك عرضنا، بيستاهل الذبح!

ـ في محاكم لتحكم بالعدل.

ـ نحنا المحاكم!

ـ هيدي الرّوح نحنا مِنِنسَأل عنّا. هيدي مش مخاض تسع شهور. لا فيها يمكن خمس مخاضات من خمس إمّات. اليوم عم يبكوا بِكِلّ جيل على إبنهن. حتّى الحيوان لازم تِرأفُ فيه وتطعميه وتحميه. كلّنا مخلوقات ربّك.

ـ بعقيدتنا زواج هالشّابّ منها حرام. اللّي بيرتكب الحرام لازم نقتله!

كظمت الستّ سارة غيظها ونظرت إلى وجهه بحيرة قائلة: «ولا ما بتخاف تذبح نفس لَلّي خالقَك؟ مين عَطاك هالجبروت إنتَ! فكّر بحكمة

وما تُنطق بالجهل. انطق بالإحسان». كانت تعرف جيّدًا أنَّ كلمات محمّد مصدرها الشَّيخ فوزي. قالت له إنَّ هناك دعاة يقضون على الإيمان. يتغطرسون على الكشف بلا عمل ولا يقين. فهم محمّد ما رمت إليه، فتجنَّب الخوض في موضوع لا يفقه فيه شيئًا، واكتفى بالقول إنَّ للشَّيخ فوزي كرامات يعرفها البعيد والقريب، وإنَّ عمَّته تظلمه بكلامها هذا. وأضاف بخبث أنَّ اللّـه اختبر إيمان الشَّيخ فوزي مذ كان صغيرًا. فقد عاش يتيمَ الأب، وكان يعمل ليل نهار في حقل عمّه قاسم. ينظِّف قشر الصَّبار ويتخلَّص من شوكه كي يُطعمه للبقرات. ينام في المعلف صيفًا شتاءً ويتغطَّى بأكياس الجنفاص ليدفأ. وكافأه اللّـه على صبره وزهده بالدُّنيا والنساء. عاش مع زوجته طاهرًا لأنَّه تزوَّجها زواج نَظَر، لا يبيح لنفسه أن يلمسها وهذا أقصى الإيمان. فمن بركات اللّـه أنَّه سخَّرها له.

شعرت الست سارة بأنَّ الوقت قد حان لتنتقل من التلميح إلى المواجهة العلنيَّة مع الشَّيخ فوزي وأتباعه. آن الأوان كي ترمي بالحيطة جانبًا. قالت لمحمّد إنَّ كلّ من يقول إنَّه يعرف حكمة اللّـه ورغبته لا يعرف قَدْر نفسه، أكان الشَّيخ فوزي أم غيره. وكذلك الذي يجهل ارتباط أهل الإيمان ببعضهم البعض أكانوا مسلمين، أم مسيحيِّين، أم بوذيِّين. شرح سلمان الفارسيُّ للموحِّدين المعاني العميقة للفرائض الإسلاميَّة، لكنَّه لم يقل إنَّ من يقوم بهذه الفرائض، كالوضوء والصلاة والصوم، قد صار عدوًّا لهم. عبارتا «أقِمِ الصَلاة» و«الأمر بالمعروف»، تتضمَّنان إشارات إلى توحيد اللّـه. ومن ثمَّ فجملة: «انهَ عن المنكر» تدلّ على شريعته بما فيها من حقائق إلهيَّة ونجاة للأرواح. تفسير الموحِّدين مبنيّ على القرآن لا على تعاليم الشَّيخ فوزي. فأجاب بلباقة موارب محترف: «العفو منك. يمكن كلامي ما كان بمحله. اللّـه أعلم. الحقّ بإيدِك. أنا بدّي رضاكِ». لكنَّها لم تُجب، فاقترب منها وانكبّ على يدها ليقبّلها قائلًا: «كلّ شي ولا غضبِك! إرضي عليّ». فسحبت يدها بسرعة ودعت له كي ينوِّر اللّـه طريقه.

صرخت نور وهي تقف في الممرّ: «إنتَ يا محمد ما إلك شبيه إلَّا الحيوان، والشَّيخ فوزي من صنف البهايم!» فردَّ عليها بصوت أعلى: «إنتِ هون يا إم كاميرا؟ تُضرَبي ما أصغر عقلك. بدّي قصلّك ياه لَلسانك!». ثمَّ اندفع نحوها فطلبت منه عمَّته أن يترك الخلوة لأنَّ أخته مرهَقة. نظر إلى عينَي نور بغضب لثوان، ثمَّ فتح باب الخلوة وخرج.

دعتها الستّ مهيبة إلى الجلوس قربها وعاتبتها على طريقتها في التحدُّث إلى أخيها، وأوصتها بأن تلجم غضبها. اعتذرت نور متمتمة: «مش

بإيدي». بدت الستّ سارة ساهمة حزينة. وقالت بعد دقائق إنّ مشكلة محمّد الأساسيّة لا تكمن في نقصان عقله، بل عاطفته. فالضمير لا ينمو داخل مَن هُم بلا عاطفة. وأتباع الشّيخ فوزي يأتون بالحجج التي لا تخلو من المنطق، ويستندون أحيانًا إلى الرّسائل التي بين أيديهم كي يبيحوا القتل. هؤلاء لا يفتقدون العقل، بل العاطفة.

صارت خلال ذلك الشهر تنام ثلث اللّيل، ثمّ تستيقظ لتنكبّ على تلاوة الرّسائل العرفانيّة، وتستشهد بأقوال الزهّاد والأولياء الصالحين كي تمسح عنها آثام الآخرين.

• • •

حاولت نور أن تستعيد قواها لتكمل تصوير الفيلم بعد أكثر من أسبوعين على وقوع الحادثة، ورأت أمّها سلوى أن ترفّه عنها فقالت: «بكرا الأحد مشوا نروح على البحر». تحمّست كاميليا للفكرة فهزّت نور رأسها بفتور وقالت: «طيّب».

علت جلبة في الحيّ، قبل أن يطلع الصُبح عليهنّ، وانتشرت رائحة حريق. تردّد صوت انفجارات متتالية بين التلال. أطلّ الناس من غرفهم وشرفاتهم على الدُخان الكثيف الذي أضاء سماء دير القمر، ووقفت نور مثلهم تنظر إلى النار التي اندلعت في الأحراج لتخلّف عدّة حرائق جوّالة. بدأ رجال الدّفاع المدني والصّليب الأحمر بإجلاء السُكان الذين حاصرتهم حبال النار في دير القمر، وحاولت مروحيّات الجيش حصر الحريق لكنّ كتلًا هوائيّة تحرّكت في اتُجاه أفقيّ أدّى إلى هبوب الرّياح. التقت شراراتُ النار الألغامَ التي زرعتها أيدي المحاربين خلال الحرب الأهليّة، فتفجّر الواحد تلو الآخر، وأطلق العنان للشكوك والانقسامات. حوّل اللّهب مساحات شاسعة من أحراج دير القمر وبساتينها الخضراء إلى رماد أسود، ثمّ امتدّ إلى بعض بيوت دار شمس وأكل شجيرات يانعة زُرعت حديثًا.

تجمّع عدد من رجال الحيّ عند ناصية بيت أكرم والشارع العام. سمعت نور عمّها نادرًا يقول: «هودي الألغام من وقت حرب الجبل... قاموا القوات اللبنانيّة يعبّو براسن للمسيحيّة بدير القمر تا يهجموا علينا. بس نحنا كنّا مستعدّينلن!». وأجابه جاره أبو طالب: «اسمعلك هالحكي! وين مستعدّينلن؟ ما هني كان عندن ثكنة عسكريّة مدعومة من إسرائيل. ونحنا شو كان عنّا سلاح؟ شو؟ ما نحنا كنّا زليطات!». فقال ابنه: «كلّ البلا من الإسرائيليّة! حقنونا وانسحبوا وتركونا ندبّك ببعض. رفاقنا بالغرب لو ما يجوا الفلسطينيّة يساعدوهن كانت القصّة وسخة». همست كاميليا لنور

قائلة: «شوفي كيف قاعدين يجوجلوا بسيرة الحرب ومش خايفانين من الحراج الولعانة حواليهن!».

لماذا تتصرَّف الذَّاكرة بالمكان هكذا؟ لماذا تحنُطه؟ سألت نور نفسها. حين نبصر الأشياء، يكون قد انعكس ضوؤها على عدسة العين المحدَبة فتنقلب صورتها رأسًا على عقب. لكنَّ الدِّماغ يعرف أنَّ في هذا العالم الملموس لا أحد يفهم الصُّورة المقلوبة، ولذا يقوم بتصحيحها لنا. أمَّا الذَّاكرة فتقع في الخطأ. تغالط حركة المكان. لا تستطيع أن تجعلنا نرى أنَّ المكان يتقلَّب باستمرار كلَّما تغيَرت حاجات ناسه. تجعلنا الذَّاكرة نظنّ أنَّنا ما زلنا في المكان ذاته الذي دارت فيه الحرب. ربَّما لذلك تظلّ حاجتنا إلى الحروب ثابتة.

قرَّرت في ذلك الصَّباح أن تأخذ كلّ ما صوَّرته حتَّى الآن من فيلمها وترحل. طلبت من أبيها أن يحجز لها مقعدًا على أقرب طائرة مسافرة إلى نيويورك. حاول إقناعها بالتريُّث، لكنَّها توسَّلت قائلة: «بابا، مش قادرة كمِّل التَّصوير». وكتبت في المساء رسالة إلكترونيَّة إلى جابر تخبره فيها بموعد وصول طائرتها إلى نيويورك.

طلبت سلوى منها ومن محمَّد أن يتصالحا يوم سفرها. ودَّعته بكلمات هامدة. هل صارت محبَّتها له أشلاء؟ تريد الآن أن تحزن بعيدة عنه، تحت سماء نيويورك. صافحها بأسلوب متعالٍ، فنظرت إلى ابنها بعينين آملتين وقلب خائف. كانت نور تعرف هذه النَّظرة جيِّدًا؛ نظرة من ترى ولدها يحوم حول جرَّة غاز مثقوبة.

أوصل بدري نور إلى المطار ثمَّ ذهب إلى الخلوة، يشكو من عمق الخلاف الذي وقع بين ولديه. قالت الست مهيبة بأسف: «القزاز انشعر بيناتن. نور ومحمَّد ما بيجتمعوا بقا على كلمة». وأضافت الست سارة: «قدَّامن امتحان صعب. بس إنتَ خلّيك عم ترشده لمحمَّد»، فأجاب باستسلام: «إرشده؟ ما نحنا كلّنا عمَ نغيِّر عوايدنا ونسايره حتَّى يرتاح راسنا».

• • •

وصلت نور إلى نيويورك مع غياب الشمس. التصقت بجابر وهي تغالب البكاء. عبثت أصابعها بشعره. تنشَّق عنقها وهمس: «اشتقتلج هوايه». وجرَّ عربة حقائبها وسارا نحو السيَّارة. تعمَّد إلقاء النُّكات ليعيد البسمة إلى وجهها.

سرت في جسمها قشعريرة عذبة وهي تنظر إلى سريرهما. استحمَّت وخرجت إلى البلكون. بدت في الوسط طاولة الحديد المستديرة وعليها باقة من الورود الصفراء التي تحبُّها وصحنٌ من الأجبان والخبز الإيطالي. كوَّرت نفسها على الكرسي الواسع ونظرت إلى المباني حولها، ثمَّ سمعت وقع قدمي جابر تقتربان ورنين أكواب زجاجيَّة. انحنى فوقها ومرَّر يده على زندها، فرفعت رأسها لتلثم شفتيه. قال:

ـ ما أريد الآن أفكِّر في حلّ لوضعنا.

ـ ولا أنا.

ـ آني سعيد أشوفچ وألمسچ.

ـ خفت عليك كتير... كنت... كنت إتخايلك...

ـ لا تفكِّرين باللّي حصل ويّاچ في لبنان. مو سهل بس حاولي.

ـ أنا ومعك بصير أحسن.

ـ هسه أريدچ تذوقين الـگليچة اللّي سوَّيتها.

ـ شووو... في تقدُّم!

ـ أحبها. قلت أحاول أسوِّيها. خابرت ماما وأنطتني الوصفة.

طأطأ رأسه قليلًا وتنهَّد. «خير؟» سألته. قال إنَّ الكليچة أثارت حنينه إلى بغداد. ذكَّرته بقصَّة ناجي. في زيارته الأخيرة للعراق، أمضى معظم وقته مع خاله رضا وصديقه سركون. ثلاثة شهور لم ينسَ طعم حلاوتها. كانوا يجلسون أحيانًا في الزقاق خلف بيت سركون الذي يقع في البثاوين. يقطع عليهم أحاديثهم جدُّ سركون. يقترب من حفيده، وقد تقوَّس ظهره وأربكه النسيان، ويردِّد سؤاله: «أبراهم شفته؟» ويدلّ على بيته. توفِّي أبراهم منذ خمس سنوات في حيفا. ترك بغداد وذهب. كان جاره وصديقه. يجمع علب الكارتون الفارغة والتي يرميها التجَّار. يحملها على درَّاجته ويعطيها لمصنع علب الكرتون في مقابل ربع دينار. وما زاد في شقائه أنَّ له ابنًا مختل العقل لم ينجب غيره، اسمه ناجي. يمضي نهاره في الأزقَّة متعرِّضًا لسخريَّة الأولاد ومضايقاتهم، وخصوصاً صبيًّا يدعى بدر الدِّين.

تمزَّقت في أحد الأيَّام عجلةُ الدرَّاجة، فلم يستطع مزاولة عمله. جاء إلى جد سركون وهو يجز درَّاجته ويشكو قسوة العيش وضياع عقل ابنه. فمازحه ليخفِّف عنه، وأصرَّ على أن يعطيه بعض المال ليصلِّح درَّاجته. وأعطته جدَّة سركون أيضًا عدَّة قطع من الكليچة التي يحبُّها ابنه ناجي.

جرّ أبراهم دراجته حتّى شارع الرشيد، حيث انطلقت المظاهرات المندّدة بنوري السعيد. وفوجئ بابنه واقفًا وسط مجموعة من تلاميذ المدرسة، والإرهاقُ بادٍ على وجهه. كان يصدح: «يسقط نوري السعيد القندرة!». وبان وراءه بدر الدّين وهو يقهقه بمكر ويجبره على الهتاف من جديد، واعدًا إيّاه بكليچتين إذا فعل. حين رأى ناجي أباه وفي يده كيس مليء بالكليچة هتف عاليًا: «يسقط بدر الدّين القندرة!».

ضحكت نور وهي تشعر بأنّها ابتدأت تستعيد مرحها. قالت لنفسها: «أبراهم، سركون، رضا. مختلفون متشابهون. يعيشون ويموتون معًا. يعيشون ويموتون وحدهم مثل أهل دار شمس ودير القمر». بدت طوابق الحيّ المضيئة حولها أقرب من قبل، وزماميرُ السيّارات أقلّ إزعاجًا. ظهرت سماء بروكلين كقطع من غزل البنات الزهريّ تحوم حولها طيور حالكة السّواد.

حملت نور حاسوبها ودفتر ملاحظاتها صباح يوم الاثنين وخرجت للتباحث مع أستاذها بشأن إتمام فيلمها. كان جابر ذاهبًا هو الآخر إلى مكتبه في كلّيّة هانتر. وسألها وهما يسيران نحو محطّة المترو:

ـ راح تحچين لأستاذچ عن اللّي حصلچ؟

ـ إي، ليش؟

ـ أخاف يظنّ أنّنا قبائل همجيّة... وحوش خطرة على الكوكب البشريّ!

ـ ما بظن رح يفكّر هيك.

ـ لا تستغربين يقلچ تصوّرين فيلمچ عن الجريمة. أصبحنا مواد خصبة للغرائب اللّي يتفرّجون عليها.

سألت نور نفسها إن كانت تستطيع أن تقارن الجريمة التي حدثت أمامها بأنواع الجرائم التي يعرفها أستاذها. هل تقول له إنّ اللّحام مصاب بمرض عقليّ؟ أو إنّ الأمّ مُبتلاة بالفوبيا؟ حين قُتل أربعة جنود أميركيّين زوجاتهم بعد عودتهم من أفغانستان، ألم يشخّص الأطبّاء أمراضهم على أنّها نفسيّة؟ لم يجدوا تفسيرًا لطعن الزّقيب غريفين زوجته بالسكّين خمسين مرّة سوى غيرته الجنونيّة. لم يأت التقرير على ذكر ما يفعله الرجال في الحروب، ولا كيف يحتفلون بالعنصريّة. وفي لبنان، ألم تكن رجولة اللّحام في الميزان؟ والعنصريّة، ألا يسمّونها كرامة الطائفة؟

قرّرت ألّا تذكر له شيئًا. شعرت براحة عميقة وهو يؤكّد أنّ لديها موادّ كافية لإنجاز فيلمها. عليها أن تقوم ببعض التعديلات وتكون خلّاقة في التوليف والإنتاج. بقي أن تفكّر في موضوع الفيلم الثاني.

صاحت فجأة، وهي جالسة إلى طاولة العشاء ذلك المساء: «جابر، وجدتها! مخطوط واين ريبلي وضورة! رح أعمل فيلم وثائقي لشخصيّة تاريخيّة». بحثت عن الملفّ الذي حفظته على الماك بوك پرو بعد أن تخلّصت من حاسوبها القديم. ضمّ الصور التي التقطتها في حمّام بيت نصوح. عليها أن تحصل على الصّور الأخرى لبناء سيناريو وسرد غنيّ للفيلم، بل يجب أن تعتمد على المخطوط نفسه. ستبدأ بالبحث في مكتبة الجامعة.

انطلقت في اليوم التالي باكرًا إلى مكتبة باتلير. صعدت إلى الطابق

السَّادس. أتت أمينة المكتبة بدليل صغير فيه قوائم لمخطوطات وكتب منشورة لرحَّالة ومبشِّرين زاروا الهلال الخصيب. المصادر متسلسلة بالترتيب الألفبائي لأسماء المؤلِّفين. وقع نظرها على اسم واين دايفيد ريبلي. له مخطوط وكتاب مطبوع سنة ١٩٤٨ في المطبعة الأميركيَّة دود أند ميد. أمَّا الصُّور الموجودة في الكتاب فيبدو أنَّ شركة قسم الصُّور، المستعمرة الأميركيَّة في القدس، قامت بتظهيرها. المخطوط والكتاب متوفران هنا. تهلَّل وجهها وخرجت من فمها كلمة، «آ»، فرفع زوَّار المكتبة رؤوسهم، وحدجها أحدهم بنظرة غيظ.

حمل الكتاب عنوان «رحلة إلى الأرض المقدَّسة». كانت صفحاته السَّبعون والصور المطبوعة داخله في حالة جيِّدة. مرَّر عامل المكتبة بطاقتها الجامعيَّة على قارئ الباركود فتمَّ لها استعارته. ذهبت بعدها إلى قسم المخطوطات النادرة، حيث أشار إليها أحد أمناء المكتبة كي تتبعه إلى غرفة زجاجيَّة. وضع المخطوط على خشبة عريضة مغلَّفة بقماش مخملي فوق إحدى الطاولات. حمل المخطوط عنوان «مذكرات واين دايفيد ريبلي». تفاجأت بأنَّ الجمل التي التقطتها من هنا وهناك كانت تحرِّك رعشات خفيفة في جسمها، تجعلها تارة متحمِّسة وتارة مضطربة. يكاد المخطوط يكون مطابقًا للكتاب، فطلبت نسخة فوتوغرافيَّة عنه ثمَّ دفعت الرسوم المطلوبة. ونصحها بأن تتَّصل به بعد ثلاثة أسابيع لتعلم إنْ كانت النسخة جاهزة.

خرجت من المكتبة وهي تشعر بالجوع والتعب. ذهبت إلى مقهى غرب شارع ١٢٠. أكلت قطعة مافِن ثمَّ أخذت فنجان كابوتشينو وسارت في الشوارع المجاورة من دون هدف. أوقفها معرض في الهواء الطلق لكارثة البرجين. قَدِمَ أيلول للمرَّة الثالثة على التوالي وهي في نيويورك. اقشعرَّ جسمها. رمت بفنجانها في سلَّة المهملات واقتربت من الصُّور بقلب واجف. ما حدث منذ خمس سنوات كان أغرب من طوفان في الجنَّة. حدث هنا في مدينتها الضاحكة الباكية، والتي لا تستغيث بأحد. رأت امرأة تبحث عن صحافيٍ صوَّر عددًا من الضحايا وهم يرمون بأنفسهم من البرج الشماليّ. جاءت ليُريها الصُّور التي التقطها ذلك اليوم لهؤلاء الضحايا. لماذا أتت متأخِّرة؟ فكَّرت نور. لماذا الآن؟ قالوا إنَّها فقدت صوابها. تركتها المهدَّئات تعيش فيما يشبه الغيبوبة. عثرت بين الصُّور على ابنيها وهما يتعانقان قبل أن يبتلعهما الدُّخان ويجذبهما الأسفلت إليه. قرَّبت الصُّورة لتقبِّل انعكاسهما وتودِّعه. قدَّم إليها المصوِّر ما تريد من الصُّور. وقالوا بعد

انتهاء المعرض إنّه توقّف عن عمله كصحافيّ. لم يُمسك كاميرا قط.

باشرت نور بتنظيف لقطات فيلمها الأوّل استعدادًا للتوليف والإنتاج. بدأت أيضًا تقرأ في كتاب ريبلي وتدوّن ملاحظاتها. رأى جابر التفاؤل يسطع من عينيها، فقال:

ـ الآن حلّيتِ مشكلة أفلامچ نور خانم. لازم تتمركزين ويّاي وبيّ لولا تحلّين لي مشكلتي.

ـ هات حبيبي احكيلي.

ـ أريد نتزوّج.

ـ نتزوّج؟

ـ إي، ويش ننتظر؟ أريد أزور سوريا والعراق ويّاچ. أظنّ لازم نكون متزوجين. يعني ما أريد شي طِرِن يفلّش وجهي!

ـ طِرِن؟

ـ غبيّ.

ـ هههه. إي كلّ شي وارد.

ـ لازم تفاتحين أبوچ وأمّچ بالموضوع.

ـ طيّب.

اتّصلت في الصّباح بوالدتها وقلبها يخفق بسرعة. حكت لها ما كان يجب أن تحكيه وهي في دار شمس. خيّم في البداية الصّمتُ على سلوى، ثمّ اقترحت عليها أن تتريّث حتّى تختبر مشاعرها. أعادت نور على مسمعها أنّها تعرف جابرًا منذ سنتين، ورجتها أن تفاتح أباها في الموضوع من دون أن يدري محمّد. لم تمض نصف ساعة حتّى اتّصل بها أبوها. تبدّدت ومضات الأمل سريعًا. استشاط غضبًا لأنّها لم تخبره بأيّ شيء عن جابر من قبل. قال:

ـ ما بيحقلّك تطلبي موافقتنا بهالشكل! استسهلتِ الموضوع. بس الموضوع صعب كتير!

ـ كنت رح قِلكن، بس إنتَ عارف الظروف اللّي مرّيت فيا.

ـ الزواج مش لعبة، مش فيلم! إنت عم تعقّدي حياتك وحياتنا.

ـ كيف يعني؟

ـ عطيتِك الحرّيّة مش لحتّى تستهتري فيا!

قد يكون على حقّ. تنسى أحيانًا أنّ الأفلام تجعلها تلعب بالحياة قليلًا. أمّا حريّتها، التي يتحدّث عنها، فهي أشبه بالتّسوية. اتّفاق صامت بينها وبينه يحوّل بعض الممنوعات إلى احتمالات، وبعضَ الاحتمالات إلى أمور مسموح بها. ربّما لذلك لا تحبّ كلمة حرّيّة. تجدها استعراضيّة لا تتناسب مع عدد الاحتمالات المتواضع.

قال أبوها إنّها لا تدرك كم هي هذه الزيجات معقّدة، وكم سيحاربهما الآخرون. وحين أجابت بأنّها لا تهتمّ برأي الآخرين صرخ قائلًا: «لا، لازم يهمّك!... لازم يهمّك كلام الناس. ما بتعرفوا شو ناطركن! أنا من قبلك انصدمت وتخيّبت. اللّي بيفكروا عكسِك كتار وهنّي أقوى منّك». وهَمهَم، بعد ثوان، كأنّه يتحدّث إلى نفسه: «بيكفّي المشكلة اللّي رح تعمليلنا ياها مع محمّد!». لم تصدّق أذنيها. يخاف أبوها أن يواجه محمّدًا. كيف يمكن لرجل مثله ذي ماض ثوريّ أن يرى زواجها من جابر مخاطرة؟ أن يقول إنّ العاقل يختار الأسهل على الأصعب. أسهل لمن؟

لم تره يعترض منذ زمن بعيد، ربّما لأنّه لا يعرف على ماذا يعترض بالتحديد. كأنّ خلايا عينيه المخروطيّة لم تعد تلتقط لون التعصُّب الذي يصبغ الآخرين. هو لون يسيل باستمرار. يختلط عادة مع ألوان الشجاعة والغيرة والوفاء. لهذا، يتعوّد البصر عليه ويتأقلم. يبدو أبوها أحيانًا كأنّه تحسّس لونًا عنصريًا مريبًا فيتأفّف. يبحلق بملل ويسكت.

كتبت سلوى، بعد ساعات، رسالة إلكترونيّة إلى ابنتها تنصحها فيها بأن تخابر أباها مرّة ثانية وثالثة لعلّه يلين. لم تتوقّع نور منها مثل هذا الموقف. أدمعت عيناها وكتبت: «ماما بحبّك كتير». كان جابر مقتنعًا بأنّ أباها سيغيّر رأيه مع الوقت. توالت مخابراتها له، وأعاد على مسمعها الكلمات ذاتها بانفعال. طلبت منه أن يثق بها. وبعد فترة ملّ من مناقشتها لكنّه بدا أكثر هدوءًا. رأى جابر أن يتحدّث معه بالتليفون. ردّ تحيّته باقتضاب. خاطبه بلغة لبقة مموّهة صارت أحد الفنون النادرة في دار شمس. واختلق بعدها عذرًا لإنهاء المكالمة واستودعه. أطرقت نور لبضع دقائق ثمّ أعلنت: «مشّي نتجوّز». تبدّد دفعة واحدة القلقُ والخوف اللذان اعترياها وهي في دار شمس، كأنّ نيويورك دقّت على صدرها ووعدتها بالحماية.

• • •

ذهبا إلى سيتي هول في بروكلين، بعد ظهر يوم الجمعة ومعهما

شاهدان، عمر صديق لجابر وأنجيلا زميلة لها. تفوَّها بعهد الزواج بين أثاث مكتب جديد ومنضدة أثريَّة. كتبا اسميهما ووقَّعا على بعض الأوراق الرسميَّة، ثمَّ دعاهم عمر إلى مطعم في شاياناتاون، البلدة الصينيَّة في مانهاتين.

ساروا بعد الغداء في شارع مُتّ. كانت السوق المضاءة قد افتُتحت في أيلول. يفاصل الناس على الأسعار هنا كما في دار شمس. وتكدَّست، في الحوانيت الصينيَّة والكوريَّة، الفواكهُ الطازجة على شكل هرم، وفاحت منها روائحُ مشوَّشة. وروائح السَّمك واللَّحم المجفَّف وحبَّات الفطر الشتائيّ تنبعث بسرعة بين أجساد المارَّة وتطغى على عبير الورود. أحواض مائيَّة تحرَّكت فيها ضفادع حيَّة. تنانين ورقية فرغت أفواهها وتمايلت بأجسامها المغطَّاة بالفرو.

شعرت نور بالرَّوائح الصَّارخة، النَّتنة والعطرة، الغريبة والأليفة، تتسرَّب إلى طباعها. الرَّوائح التي لا ترحم التصقت بكلّ شيء. رافقت الجميع ورافقتها. لا مجال للانفصال عنها. هي لم تأتِ صغيرة إلى نيويورك لتذوب فيها، لكنَّها لا تريد أن تبقى منفصلة عنها، ربَّما لأنَّه لم يعد يحقّ لها أن تنتمي إلى روائح دار شمس. سيهدر دمَها محمَّدٌ وأتباعُ الشيخ فوزي، وعندها ستنفصل عن دار شمس لوقت طويل جدًا، أو إلى الأبد.

ودَّعهما عمر وأنجيلا عند تقاطع شارع مُتّ وكانال، واختفيا في الشَّارع المكتظّ بالناس. التفت جابر إليها قائلًا: «تشربين الشاي؟» أجابت: «بشرب». أخذها بيدها ومشى في طريق فرعيّ. وصلا إلى مقهًى كبير، رأت حروفًا صينيَّة في واجهته الفوشيائيَّة ذاتِ الإطار الأصفر، كُتب إلى جانبها بالإنكليزيَّة: «مقهى السَّعادات الخمس». جلسا قرب الشبَّاك. نظر إلى فستانها الكتَّاني الأبيض، ثمَّ أخرج من حقيبته شالًا يتماوج فيه اللَّونان الترابيّ والشذريّ. افترَّ ثغره عن بسمة لم تكتمل، وقال، «البائع چان يريد يرفع سعره فقال أكو ملكة إفريقيَّة لبسته!». ضحكت ولفَّت الشال حول كتفيها. «إي، أنا جبتلك مقلمة الشاه عبَّاس بذاته!»، أجابت ووضعت أمامه علبة خشبيَّة مستطيلة بأطراف مكوَّرة عليها رسم ملك يلعب الپولو. قال: «آ، هاذا قلمدان... من إيران. رائع».

لفَّ يده حول خصرها وشدَّها إليه. وقع كيسها على الأرض. انبعثت منه رائحة الخرما التي اشترتها. تذكَّر الخرما الناس هنا بآسيا النائية. أمَّا هي، فتراها وتتذكَّر دار شمس، المكان الذي وُلدت فيه. انتشر عطرها اللَّزج واستراحت نظرة جابر عند فمها. فكَّرت في كلمات لي يونغ لي، الشاعر

الذي أتى من مكان بعيد مثلها: «بعض الأشياء لا تفارق الإنسان: رائحةُ شعر الحبيب وملمس الخرما بثقله الناضج في كفِّك».

• • •

استلمت نور، بعد مرور شهرين مكتوبًا من كاميليا زرع فيها الأسى والحيرة. أثقلت الأمور صدرها في الأيّام الأخيرة، ففتحت بريدها الإلكتروني وخطّت هذه الرّسالة. أصيبت خالتها مهيبة بأزمة نفسيّة حادّة، وتجاهد عمّتها سارة في إخفاء ذلك عن أهالي دار شمس.

انقطع الحيض عن السّت مهيبة وأصبحت إنسانة أخرى. انقطع باكرًا، فهي لم تتعدَّ واحدًا وأربعين عامًا من عمرها. تأكل بذور الكتّان المطحونة وتغلي القرفة وتشربها لتخفّف موجات البرد والسخونة التي اجتاحت جسمها. بدأت تنزلق في هوّة سحيقة. تعتريها موجات من الغضب والكآبة. تستيقظ في اللّيل لتمشي في الحقل. تبكي وحدها وتبكي وحدتها. تجد أيّ عذر لتترك الخلوة حين يأتي أحد بأطفاله، كأنّ رؤية الأطفال أصبحت تؤذيها.

لم تدر عمّتها كيف وصلت إلى هذه الحالة. من أين أتت هذه الأحاسيس الخانقة؟ اعتقد الجميع أنّها ماتت بعد أن توفي وحيد غرقًا. ما الذي أحياها من جديد؟ هل هو فقدان القدرة على الإنجاب، أم شعورها بأنّها لن ترتقي إلى المستوى الرُّوحي الذي وصلت إليه الست سارة، مرشدتها ومثلها الأعلى؟ كلّ ما تعرفه كاميليا أنّ الشكوك كانت قد أينعت ونمت في داخلها. باتت تشتكي من أنّ اللّه لم يُنعم عليها برؤيا أو كرامة. هل فقدت إيمانها؟ لو لم تستدرك عمّتها سارة الأمر لكان وضعها سينفضح أمام عائلتها وأهالي دار شمس. أرسلت سرًّا في طلب طبيبة، فوصفت لها مهدّئًا للأعصاب.

دار حديث غريب بين عمّتها وخالتها، قبل أيّام من مجيء الطبيبة. كانت كاميليا تهمّ بالدُّخول إلى الخلوة حين سمعت خالتها مهيبة تتحدّث إلى عمّتها بنبرة حادّة. ظنّت أنّهما تتشاجران، فتراجعت وانتظرت خارج الخلوة. قالت عمّتها:

ـ استهدي بالرَّحمن.

ـ ما عاد في شي بينفع!

ـ إنتِ مارقة بمحنة.

ـ ما عاد في شي بينفع!

ـ كيف هالحكي!

ـ هلّق عرفت إنّه هالطّريق اللّي أخدته غلط بغلط! يا اللّـه ما إجاني منّك إشارة ولا رؤيا! وما فِدت الناس ببركة!

وصفت نفسها بأنّها كانت مجرّد خيال لسارة. الآن، حين انقطع عنها الحيض، عادت إليها مشاعر الأمومة دفعة واحدة. عادت بعد أن مات كلّ رجائها في تحقيقها. كانت في الماضي كلّما رأت طفلًا يزور الخلوة تحبس لهفتها وتقول لنفسها إنّ مشاعرها هذه ستخفت مع الأيّام.

استمرّت الست مهيبة تنتقد نفسها من دون هوادة، وكاميليا تستمع من خلف باب الخلوة. شعرت باليأس حين توفي وحيد. كان طيفه يحثُّها على أن تبقى طاهرة، وألّا تكون لغيره. وكانت، في الوقت ذاته، تريد أن تتشبّه بالرّاهبة جورجيت. ارتكبت خطأً كبيرًا. لو عاد الزمن بها إلى الوراء لتزوّجت وأنجبت الأطفال. تريد أن تشمّ رائحتهم وتسمع أصواتهم. تنهّدت بعمق، ثم قالت: «بدّي ولد يقلّي ماما. كنت إستحي قلّك هالكلام. بس هلّق صغرت بعينِك وصغرت! ما عاد يهمّني شي، يعني الموت أرحم...»، ثمّ اختنق صوتها.

سمعت عمّتها تجهش بالبكاء. لأوّل مرّة في حياتها تسمعها تبكي. مادّت الأرض تحت قدمي كاميليا، لكنّها لم تدخل الخلوة. بقيت واقفة تتنصّت. وقالت عمّتها بعد دقائق لخالتها إنّ شكوكها هذه آتية من الوعاء الذي يغلّف الرُّوح، أي الجسد. فقاطعتها خالتها قائلة: «إنتِ ما في عليكِ إثم!» أرادت أن تحرّرها من أيّ مسؤوليّة، فهي نصحتها بالتفكير طويلًا قبل أن تختار طريق أهل العرفان.

لم تعد الستّ مهيبة تصلّي أو تقرأ. صارت تشعر بتعب قويّ كأنّ جسدها ليس لها. تنتظر منامًا تحبّه، هو منام أو حلم اليقظة. ترى فيه بنتًا صغيرة ذات عينين زرقاوين بلون أعماق البحر، تزورها دائمًا قبل حلول الصّباح. تطلب منها أن تُطعمها رمّانًا. تفرح بها. تسألها البنت إذا كانت هي أمّها. لكنّها ما إن تستيقظ من النوم حتّى تدرك أنّ البنت ذهبت كما ذهب الحلم. تسألها الست سارة عن تفاصيل هذا المنام، وتذكر أنّ البنت إشارة إلى شيء آخر. تمتعض الست مهيبة ولا تتركها تُنهي جملتها. تؤكّد أنّ حلمها لا يحتمل التأويل، ولا يُخفي في باطنه حقيقة مغايرة للظاهر! تصرُّ على أنّه تعبير عن رغبتها الواقعيّة في أن تصبح أمًّا. كانت تظنّ، خلال السنوات الماضية، أنّها قهرت نفسها، هذه النّفس التي تطلب منها أن تكون حبيبة وأمًّا. تقول: «ما كنت أعطي نفسي مداها. حتّى سارة وكاميليا

ومحمد لمّن كانوا صغار، كنت بزّد قلبي تجاهن». كانت تخاف أن يُبعدها إحساسها بالأمومة عن طريق أهل العرفان.

على الرّغم من المهدّئات فإنّ الستّ مهيبة لم تعد كما كانت. حاولت أمّها استنطاق الستّ سارة لتفهم سبب ذبول ابنتها وانكفائها عن الجويدات، فاكتفت بالقول: «عندا تعب». اتّصلت بعدها بالشيخة نايفة التي أخذت مكان الشيخة سعدى في حاصبيا بعد وفاتها، فأخبرتها عن حالة الستّ مهيبة وأوصتها بأن ترعاها بعيدًا عن أعين الناس إلى حين يأتي الفرج وتتغلّب على محنتها. وفي اليوم التّالي، رحلت الستّ مهيبة إلى حاصبيا.

تأرجحت نور بين الحيرة والألم وهي تنهي قراءة الرّسالة. تمنّت لو كانت تستطيع أن تراها وتضمّها إليها. هي الآن في حاصبيا وحيدة ضائعة. كم هو قاسٍ أن يحمل الإنسان قدرة عظيمة على الحبّ ولا يجد الحبيب. ألهذا نقبل بالأنصاف والأثلاث والأرباع من الحبّ؟ كانت خالتها مهيبة مستعدّة لأن تمحو ما في مخيلتها من صور لوحيد لأجل رؤيا أو إلهام من اللّه يقضي على الشك، ويُشعرها بأنّه عادل وبأنّه الحبيب الأكثر سموًّا.

• • •

طوت نور كتاب ريبلي ووضعته جانبًا. جلست ساهمة بضعَ دقائق قبل أن تعيده إلى يديها من جديد. فتحته وتركت نظرها يتكاسل فوق صورة احتفظ بها ريبلي سهوًا. كانت الصّورة الوحيدة التي لم يعلّق عليها بحرف. لم يحاول أن يضع عنوانًا لها. تمتدّ ألسنة اللّهيب في حقل شاسع من القمح. وفي اليسار طفلةٌ فلسطينيّة مع أبيها يحاولان الهرب. الهلع بادٍ في عينيها، تمسك بكوفيّته لعلّها ترفع قدميها بعيدًا عن النار. الجروح بادية على وجهيهما. ما الذي حدا بريبلي إلى أن يترك هذه الصّورة اليتيمة في مجموعته؟ أهي فجوة في حساباته؟

يتحدّث عن معتقدات الدروز وعلاقاتهم بالحكّام المسلمين. يقدّم صورًا عنهم التقطها في دار شمس وعبيه والمناصف وحاصبيا. يقول إنّه عمل مع أعوانه سرًّا على كسب ثقتهم. وشجب انتقادات بعض البريطانيّين اللّاذعة لموجات الهجرة اليهوديّة من أوروبا إلى فلسطين، واقترح على الفيدراليّة الصهيونيّة أن تقدّم إلى الدروز ضمانات بإنشاء دولة مستقلّة منفصلة عن المحيط العربيّ تكون مجاورة لدولة يهوديّة. يشرح أنّ الشوف وحاصبيا منطقتان ملائمتان للهجرات اليهوديّة، ويبدو حانقًا من أحدهم

لأنّه هزئ باقتراحه، معلّقًا بأنّ هذه المستوطنات ستكون مقسّمة ومنعزلة، ومن الأفضل العمل على تأمين منطقة جغرافيّة مفتوحة بموارد طبيعيّة غنيّة.

يذكر ريبلي في مكان آخر صديقًا له ندّد بمجزرة ارتكبها الدُروز في حقّ اليهود القاطنين في صفد سنة ١٨٣٨، واتّهمهم بإحراق بيوت اليهود ومعابدهم. نفى ريبلي ذلك بحدّة، مؤكّدًا أنّ تفاصيل هذه الحادثة ليست واضحة، ولا أحد يستطيع أن يؤكّد هذه المزاعم. وكتب إلى الهيئة الفيدراليّة الصهيونيّة العليا يقول: «إنّ الزمن تغيّر يا حضرات السّادة، وتحالفاتنا يجب أن تتغيّر أيضًا». وشجّع زملاءه على استغلال باطنيّة الدروز كي يظهروا أمامهم كأقليّة مضطَهَدة مثلهم، فيخلقوا منهم أصدقاء ومعاونين للدولة اليهودية المنشودة. ثمّ عدّل من فكرته هذه في مقطع لاحق، قائلًا إنّهم لن يكونوا حلفاء بالمعنى الحرفي للكلمة، فليس لديهم الامتياز الاقتصاديّ ولا القوّة العسكريّة المطلوبة، ولن يقدّموا سوى ولائهم. وستستفيد الفيدراليّة من استعدادهم للقتال دفاعًا عن دولة إسرائيل.

ويعلن ريبلي في نهاية هذا القسم أنّ جهوده المبذولة في دعم الصهيونية باءت بالفشل في منطقة الشوف. فالمجموعة السرّيّة التي ألّفها لم تستطع أن تضمّ إليها سوى ثلاثة وجهاء في قرى متفرّقة. وحاول أن يعتنق العقيدة الدّرزيّة كي يكسب مساندة الأجاويد لقضيّته، لكنّه لم يفلح. لم يقبلوا بفتح الدّعوة. وجاء ريبلي على ذكر تاجر في السويداء دغدغت أحلامَه فكرةُ دولة درزيّة مناصرة لليهود. لكنّ ذلك كان قبل ثورة ١٩٢٥ ضدّ الفرنسيّين. صار بعدها أهل السويداء أشدّ عداءً للهجرات اليهوديّة وللاستعمار الغربي من جميع العرب.

سطعت بين هذه الإخفاقات انتصاراتُ والدة ريبلي، إستر هيرشيل، التي ساهمت في إنشاء قسم من الفيدراليّة للنساء، وساندت منظمة هداسا للصهيونيّات. كان بيتها في لندن ملتقًى لرؤساء الفيدراليّة الصهيونيّة ومدراء ورجال أعمال بريطانيّين ويهود. ويشير ريبلي إلى حفل عشاء أقامته على شرف حاييم وايزمن، ويذكر مقتطفات من الخطاب الذي ألقته آنذاك.

انصبّ اهتمام إستر على تعليم اليهوديّات اللّواتي هاجرن في أواخر القرن التّاسع عشر إلى فلسطين، وأقمن بالقدس وطبريّا وصفد والخليل. وقال ريبلي لها: «علينا بالصُور والمعارض. سنجعل أوروبا ترى نساءنا كما ترى نفسها. ستُجبَر على التعرُّف إلينا بعد أن لفظتنا». ووقفت عدسته

أمامهنّ خاشعة. عرف كيف يحدّد فتحة عدسة الزاوية وكمّيّة الضوء الذي سيدخل كاميرته. وقدّمهن إلى بريطانيا وإيرلندا وأميركا في جوّ مستغرق في الواقعيّة. أعطى مجموعته الفوتوغرافيّة عنوان: «عاملات راسخات في أرض جدودهن». كنّ في الحقيقة طافيات على سطح مكان لا يَرينه ولا يفهمنه. وقفت الفتيات المساعدات لإستر في المعارض يسردن ما تريد هي أن يحدث في الصُّور الفنّيّة الأنيقة. أرادت من كلّ متفرّجة أن تشعر بأنّها تنظر إلى مرآة. ترى نفسها في نساء يحترمن قيمة العمل، ويتمتعن بالنّظام ويقدّسن النّظافة. نساء لا شبيهات لهنّ في فلسطين.

قلّدت النساء الرجال على الرّغم من انتقاداتهنّ لهم. نشدن الأرض ذاتها التي نشدها وايزمن. مجّدن الطبيعة، فانقلبت في مخيّلتهنّ إلى أرض الميعاد. قال ماركس إنّ الأيديولوجيّات تقلب ما نراه في واقع الحياة رأسًا على عقب، مثلما تفعل كامارا أوبسكورا. فما هو مقلوب لم يكن في نظره حقيقة محتجبة، بل حقيقة لم تكتمل، فتحوّلت إلى اشتباه.

هناك ثمان وثلاثون صورة بالأسود والأبيض، معظمها أخذ بين سنة ١٩٢٨ وسنة ١٩٣٩، بكاميرا كوداك. أمام محطّة قطار حيفا مهاجرون من اليهود وصلوا للتوّ من بريطانيا. في وقوفهم متراصّين أملٌ كبير ممزوج بالعناء. تبثّ الصورة شعورًا أثيريًّا. إلى أين ينظرون؟ إلامَ ينظرون؟ طفلة، بوجه ملائكيّ، تأكل قطعة من الباغيت وتضحك. قُتل والداها في محرقة اليهود في ألمانيا. أضافت الزاوية العلويّة لاتّجاه الضوء الظلالَ على وجهها، فمدّتنا بالدّفء. ننظر إليها كما تنظر إلينا، بحب. صورة لثلاثة رجال اعتقلهم الجيش البريطانيّ. فلسطينيّون من نابلس ببشرات حالكة علكتها الشمس. عضلات وجوههم متقلّصة ورؤوسهم منكّسة. يتراكم فينا استحقاق العقاب ونحن ننظر إليهم. في القدس ويافا عربٌ غاضبون، وليس لغضبهم أيّ إيقاع فنّيّ أو ظلال. يستعدّون للهجوم على الكيبوتزات اليهوديّة. صورة لمؤتمر النساء في فلسطين سنة ١٩٢٩ لا تخلو من الغبار. بعض النّساء يُفرغن أفواههن بوقفة تظاهريّة، وبعضهنّ منقّبات. لن يسترخي النّظر عليهن. صورة بانوراميّة مضيئة لبستان جثسيماني، المكان الذي خان يوضاس فيه المسيح. فيه دُفن أيضًا آلافُ اليهود. كتب أنّ العصابات العربيّة قتلتهم. في الصُّور وجوهٌ جامدة حمقاء لفلّاحات حافيات لا أسماء لهنّ. في القدس امرأة فارعة الطول تحمل طفلًا ببشرة حليبيّة مشبعة بالضّوء. يظهر زوجها في لباس الحنين من زمن الحنين اليهوديّ. صورة أخرى لمحطة القطار في حيفا. يقف فيها المهاجرون

كعمالقة، ويتصاغر العمّال العرب أمام العدسة. يبدون ضائعين كأطفال.

لحظات كوداك أرادها ريبلي طبيعيّة: لحظاتٌ لأجسام مختارة ولحظاتٌ لأجسام منبوذة. تزاحم الصورة الإنسانَ على حقيقته. الوحيدون الذين لم يلتقطوا صورًا لأنفسهم هم الأوائل، هم الفلسطينيّون. كالشجر والأنهر لم يفكّر السكان الأصليّون في أن يبثّوا صورًا لهم ليثبتوا أنّهم موجودون، أنّهم حقيقة. لا بدّ من أنّ جورج إيستمان نفسه فهمهم في آخر لحظات حياته. كوداك، تلك الكاميرا الرشيقة والرّخيصة الثمن، كانت من ابتكاره. درّت عليه أرباحًا طائلة وشهرة عالميّة قلّ نظيرها. كان في العقد السّابع من عمره حين أصيب بداء عضال في القناة الشوكيّة. ويوم شعر بألم مخيف في عموده الفقريّ، شدّ إصبعه على الزّناد وأطلق النار على قلبه. لم يضغط على زناد الكاميرا. لم يفكّر في التقاط صورة تثبت آلامه أو تخلّد المأساة. كان ذلك سنة ١٩٢٣.

الكاميرا ثقب صغير في مكان مظلم. اختار ريبلي ضحاياه بدقّة. صوّب العدسة وأطلق النار. قتل الفلسطينيّين من دون أن يترك أثرًا لدمائهم. أنتج صورًا من دون جثث ثقيلة. نستطيع أن نحمل الكاميرا معنا إلى كلّ مكان من دون جلبة؛ من دون أن نلفت الانتباه. لم تكن فلسطين قريبة من نور يومًا كما هي في هذه اللّحظة. كانت المفاجأة أكبر ممّا توقّعت. عشرات الصّفحات كرّسها ريبلي لاكتشاف فلسطين اليهوديّة: آثار معبد، رمح، حائط، أوانٍ من الفخّار والزجاج. الاكتشاف فكرة قاهرة لا يستطيع أن يوقف غوايتها أحد. أبحر فيها المستعمرون وأبحرت فيهم. أحيانًا يجد المكتشفون ما يريدون أن يجدوه، ثمّ يتظاهرون بالدّهشة.

عاش ريبلي حنينًا إلى مجتمع يهوديّ جميل لم يخدشه التاريخ؛ مجتمع وهميّ نذر حياته له. صار أهم من الناس الذين درّس أطفالهم، وأكل في بيوتهم، وشرب من مائهم في دار شمس. كانوا يجهرون باسمه وأقواله. يؤمنون بعلمه. كم هو مناقض لإميلي برونتي! هي خلقت غُوندَل، عالمها الوهميّ. أطلقت فيه العنان لعاطفتها، لخيالات السُلطة كما رأتها حين كانت رقعة الإمبراطوريّة البريطانيّة تتّسع. لم يدمّر عالمُها الخياليّ العوالمَ الأخرى، بل عمّق تجربتها الواقعيّة. كان عالمًا تنمو فيه عواطف النّساء وتتبلور قوّتهن. في الخارج، في عالم الرجال، لم يكن هذا متاحًا. أمّا ريبلي، فقد دمّر الواقع من خلال حلمه الصبيانيّ بالركض وراء عالم قاتل، اسمه الأرض المنشودة. أرض تَقدّم إليها بطلب مُسبق، وأفرغ لها في خياله أرضًا أخرى اسمها فلسطين.

• • •

أخذت نور نَفَسًا عميقًا، بعد العودة من حفل تخرُّجها، وتمدَّدت على الكنبة أمام التلفزيون وأغمضت عينيها. فكَّرت في الأخبار التي نقلتها إليها كاميليا عن والديها أمس، حين اتَّصلت لتهنِّئها على نجاح فيلميها. كانت المشاحنات بين سلوى وبدري تتفاقم يومًا بعد يوم. هي تسأله أين اختفت المزايا التي أحبَّتها فيه، وهو يتَّهمها بالغفلة عن التلميحات التي تصله من الناس بسبب غياب نور الطويل. تلومه على إخفاء حقيقة زواج نور عن الجميع، وهو يخاف أن يمزّغ الشيخ فوزي سمعتهم في الوحل حين يعلن أنَّ الفتاة المنحلّة ما هي إلَّا ابنة أخي الست سارة، وأنَّها ترعرعت في خلوتها. احتارت نور في كلماته العاجزة وجفائه الطويل. اشتاقت إلى ضحكته التي تغور في صدره، ثمَّ تنسكب على دفعات. منذ أكثر من سنة، لم يعد يردّ عليها حين تتَّصل بالتليفون. كم هو غريب ألَّا يهتمّ حتَّى بمعرفة ما صوَّرته في فيلمها عن ريبلي والدروز وفلسطين. ولولا أمّها وكاميليا لاستسلمت للحزن.

كانت تحسّ، في الأيّام التي تلت حفل تخرُّجها، بثقل الصَّمت الذي التزم به نصوح وبتواطئه. هل كان الآخرون في مدرستها يعرفون حقيقة ريبلي؟ هل يبرِّر الخوف كلّ شيء؟ عن أيّ خوف أو تقيَّة يتحدَّثون؟ دروز إسرائيل يثابرون في تدمير بيوت الفلسطينيّين؛ في اعتقالهم وقتلهم. يتمنَّون أن يكونوا مواطنين حقيقيّين في دولة احتلال، وأن يعيشوا حياة منطقيَّة في كيان غير منطقيّ؛ حياة لا وجود لها. قالوا إنَّ آباءهم قاموا بتحويل اسم المستعمِر إلى محرِّر ليحافظوا على دينهم ويجاهروا به. الغريب في الأمر أنَّهم لم يجاهروا به أبدًا. لم يتغيَّر الكثير قبل الاحتلال وبعده. ومع ذلك، خسروا صورة فلسطين الأولى. قصُّوا وجوههم وخرجوا منها. جعلوا التنكيل بالفلسطينيّين جسورًا نفسيَّة توصلهم إلى دولة إسرائيل.

لكنّ اللُّغة العربيَّة بقيت تعاندهم. وقفت لهم بالمرصاد. التصقت بهم والتصقوا بها. العربيَّة وحدها كانت كافية لإثارة شكوك الدولة فيهم وازدرائها لهم، لأنَّها تحمل انعكاسات فلسطين وخيالاتها. ماذا عساهم يفعلون بلغتهم العنيدة هذه؟ فهم لا يعرفون كيف يتحدَّثون إلى أنفسهم من دونها. يخافون، إن تلوا صلواتهم بالعبريَّة، ألَّا تصل إلى أذن اللّـه.

• • •

استلم جابر، في أواخر نيسان، مكتوبًا من إدارة الجامعة تنبئه فيه بالحصول على فرصة عمل لسنة. ابتسم ولحق بنور إلى المطبخ. أخذت تفّاحة من البزّاد، قضمتها ونظرت إلى الرّسالة في يده مستفسرة. برقت عيناه بأمنية. سألها: «وِش رايج لو نقضي شهر فلبنان قبل مَنروح لسوريا؟» أجابته: «لبنان؟ بهيدي الظروف؟» حذّرتها كاميليا من الاقتراب من دار شمس، فهمس جابر في أذنها بشيء من التشويق: «بيروت مُو مُلك أحد». ضحكت. أحيانًا تنأى بيروت عن مريديها. أحيانًا أخرى تسلّم نفسها لحزنهم وفرحهم. تؤنس الهاربين من عوالمهم الضارية. ألقت بيديها على صدره، فأمسك بهما وقضم قطعة من التفّاحة. وأجابت بشيء من التردُّد: «طيّب، على بيروت».

وصلتهما تهديدات محمّد، وهما يحزمان أمتعتهما في آخر أيّار. علم بزواجهما. سمع صدفة أمّه وأباه يتشاجران في غرفتهما، ففهم كلّ شيء. بدا كقنفذ اعترى جلدَه الشّوك ليدرأ عنه الأخطار. تفكّك لهاثه وتدحرج إلى جوفه. جمدت عيناه داخل حدقتيهما، وانقضّت يداه على الهواء. منظره الذي تعمّد أن يخيف به الآخرين، ما كان إلّا تعبيرًا عن هلعه هو. امتقع جلده كأنّ الزّمن أعاده صبيًا يقف أمام المرحاض متبوّلًا وإياد يلمس مؤخّرته ليعبث برجولته ويقهقه. كيف تجاهلت نور حقّه عليها؟ حقّه الذي وُلد معه؟ صغّرته وهو يريد أن يعلو فوق مرتبة الشّيخ فوزي. لم تكن رجولته وحدها التي ارتُهنت منه. ستضيع منه فرصة تجميع المال في مشروع جديد لوالد إياد إذا قرّر هذا الأخير أن يقطع صلته به وبعائلته.

سكن الأرق نور في ذلك المساء. كانت يدها ويد جابر متشابكتين، تصعدان وتهبطان معًا على صدره. بدت لها الأخوّة كأوهام البصر التي تحدّث عنها ابن الهيثم. كتلة الأواصر التي نسمّيها العائلة، بدت أيضًا صعبة الفهم. أمّا يدها المستلقية على صدر جابر، فبانت أبسط وأشدّ وضوحًا.

• • •

جلست نور وجابر على بلكون شقة الاستوديو التي استأجراها في رأس بيروت. ظهرت في بعض اللّافتات أمامهما بيروت الأيقونيّة، بيروت ما قبل الحرب. ظهرت بسيماء بهيّة، بالشيفون، قماش الزمن الجميل. حتّى بائع الكعك في سوق أبو النّصر لم يعر أسنانه المهترئة اهتمامًا. وضع سلّم الكعك على رأسه وابتسم للعدسة. ففي الزّمن الجميل الكلُّ خارقون. كان يمكن لفقراء بيروت أن يكونوا نقيض الأغنياء، لكن، في الزمن الجميل، الكلُّ أغنياء. اتّفق البيروتيّون على تفسير نزر من التاريخ واختلفوا في كلّ

ما عداه. الحرب امتدّت كمدرّج روماني. يُسمعك الجلوس في أعلى حلقة منه الأبعادَ الصَّوتيّة للمغنّية، ويُريك الهبوط إلى القعر انفعالاتِها. سيصفها كلّ واحد وفق الحلقة التي يجلس فيها.

توقّعت نور وجابر مجيء كاميليا في أيّ لحظة لقضاء بضعة أيّام معهما. حذّرتهما من إرسال أيّ معلومات عبر بريدها الإلكتروني تشير إلى وجودهما في بيروت أو عنوان سكنهما خوفًا أن تقع في يد محمّد.

تناولت كاميليا ذلك الصّباح الفطورَ على عجل. قالت إنّها ستذهب إلى بيروت للمشاركة في ورشة عمل تتعلّق بالأمراض البيئيّة، وستنام في غرفة صديقة لها في حرم الجامعة الأميركيّة لعدّة أيّام. اعترض محمّد على الفور، وانتظرت أن يتدخّل أبوها وأمّها لإنقاذها منه كالعادة، فقال بدري بضيق: «شو هالحكي؟ بدّك ياها تطلع وتنزل كلّ يوم بالتكاسي؟ لا بابا. خلصي شغلك وارجعي».

كانت بعد ساعة تقف أمام شقّتهما. رنّت الجرس فأوقف جابر عزفه ووضع العود جانبًا. فتحت نور الباب وتعانقتا بلهفة واضطراب. ردّدت كاميليا: «اشتقتلّك كتير كتير». فأجابت نور: «حبيبتي، مش قدّي». تكوّمت عشرات الأسئلة على لسان نور، لكنّ تنهيدة كاميليا المتكسّرة وعينيها الدّامعتين أسكتتها. جلست على الكنبة بقلب واجف، ثمّ تمتمت: «خير؟» أجابت: «خالتي مهيبة... يعني... ما بعرف شو بدّي قول... سَخنت كتير كتير!». استفسرت نور عن قصدها، فسكتت لثوان، ثمّ قالت إنّها توفّيت في ظروف مؤلمة منذ ثلاثة أسابيع. ضعقت نور للخبر. اختفى صوتها. غطّت وجنتيها بيديها. تدحرجت دموعها من الفتحات بين أصابعها. حاولت كاميليا تهدئتها. قالت إنّها خافت لو أخبرتها من قبل بمرضها أن تتهوّر وتحضر إلى دار شمس لرؤيتها، فقال جابر بأسف: «اللّه يرحمها»، وحضن نور. خيّم عليهما الصّمت وتركا كاميليا تروي لهما ما حدث.

جلست عمّتها يوم المأتم قرب التابوت المفتوح تمسح على رأس رفيقتها وتقرأ. لم يكن في صوتها حزن أو فرح. اجتمعت نساء عائلة كمال الدّين ورجالها في قاعة واحدة، وبينهم الستّ سارة، في آخر المساء، حين رحل المعزُّون، اقتربت كاميليا منها قائلة: «بعرف يا عمّتي قدّيش رح تفقديلا، اللّه يرحما»، فأجابت بهدوء: «ما بعترض على حكمة ربنا».

نظرت كاميليا صوب البحر وهمست: «يا حرام، خالتي مهيبة شو تعذّبت! هالمرض، السّرطان، لا كان عالبال ولا عالخاطر». كانت تقيم

بحاصبيا بعيدًا عن الأنظار. بقيت تتخبّط في اليأس إلى أن بدأت صحّتها تتدهور، وشهيّتها للطعام تضعف. رأت يومًا بقعًا من الدّماء تلوّن بولها، فقالت للشيخة نايفة إنّ الوقت قد حان لتعود إلى دار شمس. بانت كتلة في رحمها. انتشر السرطان في الأمعاء والرّئتين. لم تقدّم إليها الطبيبة تفاصيل عن طبيعة مرضها، ففهمت أنّها لن تنجو منه، وقرّرت أن تتخلّص من المهدّئ الذي كان في حوزتها.

صارت، بعد بضعة أسابيع، تتعب من أيّ عمل بسيط. تلهث كأنّ رئتيها تستجديان الهواء. العجيب أنّ روحها، على عكس جسمها، بدأت تهدأ وتطمئن. تبدّلت حالها أيضًا. فوجئت الستّ سارة بها تناجي مريم العذراء خلال اللّيل وعند طلوع الفجر. جزعت وقامت بتغيير مكان الدروس والزيارات ومواعيدها. طلبت من تلميذاتها أن يحضرن إلى دار المحكمة؛ تلك القاعة التي أصبحت جزءًا من بيت أهلها القديم، إلى حين تتحسّن صحة الستّ مهيبة.

كانت أوجاعها تشتدّ على مدى شهرين. رفضت الخضوع لأيّ علاج أو الذهاب إلى المستشفى. بات دعاؤها لمريم يعلو في أرجاء الخلوة. تهتف قائلة: «يا أم الرّحمة، امنحيني القوّة وصلّي لأجلي». وسمعوا صراخها في اللّيل، في الأيّام التي سبقت وفاتها. قالت كاميليا إنّ قلوبهم كانت تتقطّع عليها، فركضوا إلى الخلوة، لكنّ الستّ سارة لم تسمح لأحد سواها هي بالدّخول. أشارت إلى أبيها ففهم أنّها تريد أن تُبعد محمّدًا عن الخلوة. خافت أن يعرف المشايخ التابعون للشّيخ فوزي أنّ الستّ مهيبة ستموت كمسيحيّة. عندها لن يصلّوا عليها، بل سينشرون عنها أوصاف الارتداد. لو علموا بأنّها كانت تستنجد بطيف القديسة رَفقا فسيتّهمون الستّ سارة، معلّمتها، بالكفر. طلبت عمّتها من أبيها أن يأتي بسليمان، أخيها الأصغر، لأنّها ستحتاج إلى مساعدته. حين اقترب من سريرها سمعها تناجي: «يا يسوع وهبتك حالي وسرّي. بهتدي بأوجاعك. اقبلني. خلّصني من مخاوف هذا العالم الفاني»، فنزلت دمعته وبكت كاميليا بحرقة. لم يقل أحد منهما شيئًا، وتكتّما على ما سمعاه.

توفي والد الستّ مهيبة منذ بضع سنوات. جاءت أمّها لتودّعها بناء على طلب الستّ سارة، فسمعت ابنتها تهمس، وهي في لجّة الألم، قائلة: «يا يسوع، إليك التجأت. أنت العظيم في الرّحمة!». جفلت. لعنت الساعة التي أرسلتها فيها إلى دير القمر لتتعلّم عند الرّاهبات! قالت إنّ هذه البلدة كانت شؤمًا عليها. وأشارت إليها الستّ سارة كي تسكت. لكنّها لم تأبه

لأحد. استمرَّت تكيل اللَّعنات لابنتها حتَّى أعادها سليمان إلى البيت.

ساءت حالتها ذلك اليوم وابتدأت تتنفَّس بصعوبة. مشت الستّ سارة من المجلس إلى الممرّ المتَّصل به حيث امتدَّت مكتبتها. مسحت على وجهها بيديها، ثمَّ أخرجت كتابًا من أحد رفوفها. حمل غلافه نقوشًا غريبة واسم هرمس الهرامسة. سألتها كاميليا عمَّن يكون. ردَّت عليها بأنَّه حامل أسرار الحكمة اليونانيَّة وحكمة آتوم أحد آلهة الفراعنة، وتجلَّى في النبي إدريس. هرمس هو المبدأ الذي لا يتغيَّر من الوثنيَّة إلى الوحدانيَّة.

جلست الستّ سارة قرب الستّ مهيبة، وفتحت الكتاب. رفعت صوتها عاليًا بالقراءة. امتزجت قوَّة الأولى بإرادة الأخرى وأنينها. قرأت: «هو الخفيّ المتجلّي في كلّ شيء. هو الواحد الصَّمد غير متحرّك، ومع ذلك هو أصل الحركة ذاتها. هو حاوي الأضداد وهو واحد. آتوم الذي آمن به الفراعنة كان القوَّة الإلهيَّة التي انبثقت بنفسها عن نفسها. كان القمرُ أمَّه والشمسُ أباه». فهمت الستّ مهيبة كلّ ما رمزت إليه وابتسمت لها. بانت عيناها الزَّرقاوان أشدّ صفاءً من أيّ وقت مضى. توقَّف أنينها لدقائق ولم تعد تلهث. لم تكن في تلك اللَّحظة نسخةً عن أحد، لا الستّ سارة ولا القدّيسة رَفقا، ولا حتَّى الرَّاهبة جورجيت. أصبحت صورة فريدة بنفسها.

فقدت القدرة على النُّطق بعد ساعات. تصرخ من الوجع وتضرب الفراش بيديها. يقبّل سليمان يدها، ويحاول أن يُلصق على جسمها كمَّادات مورفين، فتميل برأسها بشدَّة نحو اليمين واليسار علامةَ الرَّفض، فيبكي ويسكت.

توقَّفت كاميليا عن الكلام وانحدرت دموع نور بغزارة. انتبه جابر للسخونة والاحمرار في وجهها، فطلب أن يجلسوا على البلكون لعلّ النسائم البحريَّة تريحها. أتتها كاميليا بكأس من الماء البارد، شربت بعضًا منه. حدَّقت في الغشاوة التي كست الكأس وكيف تشقَّقت. تذكَّرت إبريق الزُّجاج وهو ينتقل من يد إلى يد في مجلس عمَّتها ليصل إليها فتقول لها أمّها: «يلّا زَرزقي متل ما علَّمتِك. ما تحطّي تمّك على البريق». ماتت خالتها مهيبة ولم تستطع رؤيتها أو حتَّى وداعها. هل ستُحرَم أيضًا أمَّها وعمَّتَها والزهورَ الصفراء المنبثقة بين صخور دار شمس؟

شربت كاميليا بعض الماء ووضعت الكوب على الصينيَّة. قالت لنور إنَّها لو كانت حاضرة في المأتم لرأت كيف كان الناس ينظرون إلى وجه الستّ مهيبة وجسمها. كانوا مشدوهين يعلّقون: «رجعت بنت خمستعش!»، «كأنّا قمر مصوّر!». لم يكن هناك تجعيدة واحدة في وجهها. بشرتها ناعمة

مصقولة كبشرة طفل. لم تفهم نور معنى ذلك. هل هذه هي الكرامة التي وُعدت بها؟ أليس هذا هو العمر الذي يطغى فيه الظاهر على الباطن؟ تذكَّرت صور زميلتها أنجيلا وهي في حفلة أشبه بالعرس أقامها لها والداها في المكسيك حين أكملت سنتها الخامسة عشرة. كان احتفالًا باكتمال جسمها، بجمال الظاهر كأنَّ الظَّاهر خالد. هل هذه هي الجائزة التي وُعدَت بها خالتها مهيبة؟ أن تحظى بجمال الظاهر؟ أن ترجع إلى النقطة التي بدأت منها قبل أن تحب وحيدًا ويموت، بل قبل أن تنفصل عن دير القمر؟ إذًا، فمظهر الجسد ليس تفصيلًا كما يدَّعون. والرغبات التي يثيرها ليست خدعة. تعكس وتنعكس في الرُّوح مثل كاميرتين تصوِّران إحداهما الأخرى، وكلّ واحدة تلتقط انعكاس الضوء المحيط بالثانية وظِلَّ عدستها عليها.

سألت نور بقلق إن كان ما حدث لخالتها قد تسرَّب إلى أذني أحد من مجموعة الشَّيخ فوزي. بدَّدت كاميليا مخاوفها قائلة إنَّ الصَّلاة على روح خالتها مهيبة ومراسم الدَّفن جرت كما كان متوقَّعًا. وبقي كلّ شيء آخر في طيّ الكتمان. وحين وقف الشَّيخ فوزي ليعدِّد صفاتها، مشت عمَّتها خطوتين واستدارت قليلًا كأنَّ جسدها يتجنَّب إيحاءات جسده. ولمَّا بدأ بالكلام كانت تنظر إلى أبعد ممَّا تراه العين وتنطق بصلاتها الخاصَّة بها: «يا من أقرَّت له النفوس، وشهدت بأنَّه قبل الدهور الدَّاهرة معبودٌ، وفي الأزمان الغابرة موجودٌ. ربّ الأنوار العلويَّة، والعناصر الأزليَّة. أنت الظاهر لتثبيت الحجَّة على الناس، وأنت الباطن الذي لا يُدرَك بالحواسّ».

• • •

اقترح جابر قبيل المساء أن يخرجوا ليمشوا في الهواء الطلق ويتمتَّعوا برؤية الشاطئ. فهمت كاميليا أنَّه يودّ أن يروِّح عن نفس نور فرحَّبت بالفكرة، وعقصت شعرها العسلي بشريط أسود وعلَّقت حقيبتها على كتفها. ضبط جابر درجة تبريد المكيِّف كي يطرد الرَّطوبة من الشقَّة، ثمَّ لبس قبَّعته الشمسيَّة. أمَّا نور فغسلت وجهها ولبست نظَّارتها الشمسيَّة السَّوداء لتحجب عينيها الحمراوين عن النَّاس.

مشوا طويلًا في منطقة المنارة. ارتاحت إلى توقُّف أختها عن البكاء، فقرَّرت ألَّا تتطرَّق إلى أخبار أهلها حتَّى يرجعوا إلى الشقَّة. وحين اقترب وقت العشاء، دخلوا مطعمًا قرب مدينة الملاهي، وجلسوا على شرفته المطلَّة على البحر.

وضع النادل قوائم الطعام على طاولتهم وغاب. اقتربت نور من

كاميليا وسألتها متى ستهمد النار في قلب أخيهما؟ هل ستنتظر سنة؟ عشر سنوات؟ عشرين سنة؟ العمر كلّه؟ علّق جابر قائلًا إنَّ محمَّدًا يقوم بالتهويل لا أكثر، فحذَّرته كاميليا من الاستخفاف بتهديداته، فقد أقسم أن يجعل نور عبرة لبنات الطائفة. قال إنَّه سيعلّقها من شعرها ويكسر عنقك! وأصبح الشَّيخ فوزي يشيد به في المحافل الاجتماعيَّة، ويبصق كلَّما أتى أحدٌ على ذكر نور. خفق قلب نور من الخوف وارتجفت ساقاها. صرخت: «كلّ شي ولا جابر!». تعجَّبت كاميليا. ألهذا الحدّ تحبّه؟ لم تقل إنَّها خائفة على مصيرها. وأضافت نور: «محمّد هلّق إجاه دور كبير يلعبه. صار فيه يحكم وفيه يشنق. إله زمان ناطر هالدور!».

احتلَّت مخيّلةَ كاميليا صورةٌ وجدتها في التَّتخيتة حين كانت في العاشرة من عمرها. عثرت على علبة تنك فيها سلبيَّات وصور أُخذ بعضها بكاميرا پولارويد. حملت العلبة إلى غرفتها، ورمت بكلّ ما فيها على فراشها، ثمَّ تربَّعت بالقرب منها. رأت صورة لأمّها وهي جالسة في غرفتها تحمل مولودًا عمره بضعة أسابيع. ملامح المولود مطابقة لملامح محمّد. وخلف الصُّورة كُتب: «إيهاب، شباط ١٩٨٨».

كانت نور يومها منهمكة في صنع عقد من الخرز الملوَّن. أخذت لها كاميليا الصُّورة كأنَّها اكتشفت سرًّا خطيرًا. ضحكت نور متمتمة: «إي... إيهاب». لم تسمع كاميليا التي تكبر أخاها بسنة وبضعة أشهر باسم إيهاب من قبل. قالت متعجّبة: «هلّق محمَّد كان اسمه إيهاب؟» هزَّت نور رأسها بالإيجاب، وأخبرتها بأنَّ عمَّتها سارة كانت تذكر اسم النبيّ محمَّد حين وصلها خبر ولادة أخيهما. استبشرت بذلك، فقرَّر أبوها أن يسمّيه محمَّدًا، لكنَّ أمَّها لم توافق على الاسم. وحين كبرت نور وسألتها عن السَّبب، قالت إنَّه عبء ثقيل. كأنَّ سمعة كلّ محمَّد في هذا الكون متعلّقة بنجاح ابنها أو فشله. أحبَّت اسم إيهاب لأنَّه يدلّ على الاستطاعة، والقدرة على القيام بالأمور التي توكل إلى المرء. أقنعت بدري بأن يبقى اسمه في تذكرة الهويَّة محمَّدًا على أن ينادوه في البيت إيهابًا. لكن، حين صار محمّد في الخامسة، ذكر أحدهم أمامه أنَّ والده أسماه محمَّدًا. عندها صار يقول: «اسمي محمَّد مش إيهاب». تعجَّبت سلوى من إصرار طفل في مثل عمره على تغيير اسمه، ونزلت عند رغبته، آملة أن ينسى الموضوع بعد فترة قصيرة. لكنَّ النتيجة كانت أنَّها نسيت هي أن تناديه إيهابًا وبقي باسم محمّد.

• • •

وقفت نور واقتربت من شرفة المطعم. ودّت لو تستطيع أن تستنشق جرعة كبيرة من الهواء المثقل بملح البحر. يبدو هذا البحر قويًا، لا تثني عزيمته هياكلُ المدن التي أفرغت من أهلها، ولا تخيفه هجرة الطيور ولا خيبات الرّاحلين. يحتمل القسوة وما يُرمى في داخله من الأحلام، وما يموت خارجه.

وضع النّادل طبق السّمك المشويّ وصحون الخضار على الطاولة. سأل جابر كاميليا إذا كانت على علم بأنّ خاله رضا هاتَفَ أباها منذ بضعة شهور، فهزّت رأسها علامة النّفي. قال خاله إنّ بدري بدا لطيفًا، لكنّه ادّعى، أو ربّما أقنع نفسه بأنّ الأمر لو عاد إليه لتقبّل هذا الزواج. جنون محمّد والجوّ السّائد حوله يدفعانه إلى الانتظار. وعلّق جابر بمرارة: «لعد ليش ننتظر؟ عشان نعرف شيريد يسوّي بينا السُلطان محمّد!». وأضاف أنّه لا يأبه لغضبه، بل لجفاء بدري والتباس موقفه. تغيّرت ملامح كاميليا عندها، وابتسمت قائلة إنّ لديها أخبارًا تدعو إلى التفاؤل. قال جابر: «زين، احكيلنا لنتفاءل معك. شايفة نور أختك؟ ما أعطتنا قطرة أمل. دمّرتنا بأخبارها الحزينة من الظهر!». ضحكت كاميليا وأرجعت نور قطعة الكبيس إلى الصحن قائلة: «خير؟»

كان والدها قد قرّر أن يخبر عمّتها بزواجها من جابر حين ابتدأت صحّة خالتها مهيبة تتدهور. شعر بأنّ الوقت ليس مناسبًا. وعاتبته أمُّها، بعد مضيّ أسبوع على وفاتها، لأنّه لم يصارح أخته بالأمر منذ البداية كما اقترحت عليه. تشاجرا فسمعهما محمّد وقتذاك وفهم كلّ شيء. وصرخ بأعلى صوته بأنّه سيهدر دم نور. وذهبا إلى الخلوة، بعد محاولات فاشلة بتهدئته، وأخبرا عمّتها بكلّ ما حدث.

بلع جابر اللّقمة التي كان يلوكها في فمه في انتظار ما ستقوله كاميليا. قال والدها لأخته بعصبيّة:

ـ نور غلطت، غلطت!

ـ كلّ هالوقت مزوّجته وما خبّرتني! ليش نور ما صارحتني؟ كيف ما حكتلي شي؟

ـ شو فيها تقلّك؟ ما هي عارفة حالها شو عاملة!

ـ ما توقّفتِش إنّا تاخد واحد من بزات بيئتنا.

ـ ما سألِتش عن حدا!

ـ إلّك حق تزعل.

ـ جابتلنا الهم! شو بدنا نعمل إسا؟

ـ طوّل بالك. متل ما قلتلّك، إلك حقّ تزعل، وأنا كمان إلي حقّ ما كنش راضية. بس هادا اللّي صار.

ـ شو يعني؟

ـ كلّ روح بإثبات بوِعاها.

ستقف كلّ نفس بعد الموت بهيئتها أمام خالقها، وتُحاسَب على أفعالها، أكانت حسنة أم قبيحة، أضافت الست سارة بهدوء. لا هو ولا سلوى ولا محمّد ولا أيّ أحد آخر سيُحاسَبُ على زواجها من جابر. ولا يحقّ لأحد معاداتها أو إيذاؤها. العباد ليس لهم كلمة الفصل، بل هي للّه وحده.

تنهّد بدري وأشاح بوجهه عن أخته، فوضعت يدها على كتفه وقالت إنّه واجه ما هو أقسى من هذا الظرف خلال حياته الحزبيّة. عرّض نفسه وعائلته للخطر، وهو يناضل من أجل تحرير فلسطين. خاض صراعات طويلة من أجل إحلال الزواج المدني، ولم يأبه لاعتراض أحد يومها، فما باله الآن مستسلمًا لخوفه ولما سيقوله الآخرون ويفعلونه؟ فعلّق بحدّة بأنّ هذا لا يتنافى مع موقفه الآن، فهذه الزيجات لا تلائم الجميع. سكتت لبرهة ثمّ قالت إنّه بات يجيب عن كلّ شيء بجملتين، الواحدة تنفي الأخرى. وسيشجّع موقفه الملتبس محمّدًا والشّيخ فوزي على الانتقام من ابنته وزوجها بأبشع الطرائق. رأى، حينها، في عينيها شرارةً من اللّوم تتوسّع، وتتحوّل إلى استياء، فقال:

ـ شو فيني أعمل؟

ـ رح تكون قدّ الحمل؟

ـ شو بتقصدي؟

ـ رح تقول للناس إنّك صالحتا لنور؟

ـ ما تزوّجت بإرادتي!

ـ رح تخلّي اللّي بيسوا واللّي ما بيسوا يهدّدا بالدّبح؟

ـ لأ... بس هيك بدّك ياني دغري إرضى؟ وين بدّي روح بحكي الناس... بالبهدلة؟

ـ كلّ شي بيبدا كبير وبيصير يصغر. هيدي بنتك يا بدري.

ـ كنت مفكّر إنّك رح تنبذيا.

ـ أنا زعلانة منّا... وإلي حكي تاني مَعا. بس مين بكون أنا لإنبذا؟ بإيده هوَ اللّي فوقنا كلّ شي.

ـ هيَي دايمًا بتّتصل بس مش عم حاكِيا.

ـ لازم ترجع تحاكِيا.

ـ بعد بكّير.

ـ لا مش بكّير! وبعدين إذا ما كبّرت المسألة بوجّ ابنك ما بتصغر!

ـ بعرف، بعرف.

ـ بدّك تهدّه أو منوقع بشي كبير!

ـ هدّه؟ بشو؟

ذكّرته بأطماع محمّد قائلة: «إنت بتعرف قدّيش بيحبّ القرش». أوصته بأن يذهب إلى كاتب العدل، ويستخدم كلّ حنكته وعلمه ليغيّر وصيّته فيضع فيها شروطًا تقضي بحرمانه من الميراث إذا ألحق الأذى بأخته أو بزوجها. كانت متأكّدة من أنّ محمّدًا لن يغامر في خسارة ليرة واحدة. ضحك بدري معلّقًا: «صِرتِ إنت محامية يا أختي؟»

طأطأ رأسه بعد برهة وقال إنّ كلماتها هذه خفّفت ضِيقه. كانت سلوى على حقّ حين نصحته أن يستشيرها منذ البداية، فنظرت سلوى نحوه بحنان. وعلّق باستسلام: «هالنور راسا عاصي!».

ضحك جابر موافقًا وابتسمت نور رغمًا عنها. توقّفت كاميليا عن الكلام. عبثت موجات الهواء الممزوجة برائحة الصُخور والطحالب بخصلة من شعرها فأزاحتها. وضعت قطعتي ثلج في كأسها، وأضافت سقن أپ ورشفت جرعة منه. سألها جابر: «شلون انتهت الأمور؟» ستأخذ عمّتها وفدًا من الجويّدات لتزور الشّيخ فوزي، وتحذّره من التدخُّل في هذا الموضوع. وسيتّصل والدها بعدد من أقربائه وأصدقائه المعروفين، وسيذهبون جميعًا لمقابلته. سيهدّدونه أمام محمّد ويحمّلونه مسؤوليّة أيّ أذى قد يلحق بنور أو زوجها.

اغتبط جابر لهذا الخبر، وقال: «صدق، عمّتك قصّة تحيّر. شيوخ الدّين ذولا اللّي تحچي عنهم، فوزي وموزي، حافظين كم كلمة مخبلين بيها الناس يا الناس مخبلتهم. كلّ شي ما أفهم. ما يقدر الإنسان يوفّيها حقّها لعمّتك باللّي تسوّيه!». نزلت دمعة فرح من عين نور ورست على قطعة خبز كانت في يدها. لكم فاجأتها! لم تبارك زواجها ولم تتوقّعه، لكنّها حمتها وتركت للّه الحُكم فيه. الآخرون يتلون حروف الكتب السماويّة وعمّتها

تعرف سرّ هذه الحروف وصورها المقلوبة. تقرأ ظلالها. تعيش انعكاساتها. أمّا نور، فتعلم جيّدا كم هي ساحرة هذه الحروف، لكنّها لا تدلي لها بالحقائق. لا تعلّمها كيف تعيش في أزمنة وأمكنة متناقضة، لذلك تنظر إلى عمّتها وتتعلّم.

أحاطتها كاميليا بذراعيها وقالت: «نور، خلص. خلّينا نغيّر جوّ. يالله مشوا ناخد صورة». حثّتهما على النزول معها إلى الشّاطئ كي تأخذ لهما صورًا قبل غياب الشمس. ستُريها لوالديها في الوقت المناسب.

سار الثلاثة في ممرّ حجريّ يأخذ إلى البحر. أخرجت كاميليا الآي پاد من حقيبتها وطلبت منهما أن يقفا في مكان معاكس لظلّ الشمس. علّقت نور:

ـ شووو؟ صايرة محترفة.

ـ إي بس إنتِ يا ست نور بتعرفي تصوري؟

ـ بيطلعلِك.

ـ جاهزين؟

ـ إي.

ـ لأ، لأ. ما تعبطولي بعضكن متل جوليو وروميت!

ـ شوو؟

ـ عمّي عاطف من وقت اللّي رجع من زيارته للأرجنتين بظل يعرف روميو من جولييت! طاروا عقلاته هونيك مرّة لمّن بنته وخطيبها عبطوا بعضن. ما عدش يعرف كيف يشبّهن.

ـ هههههه.

ـ صورة محشومة، إي جابر؟ بدنا نقدر نعلّقا عالحيط.

ضحك جابر ورفع يديه مستسلمًا لتعليمات كاميليا. التقطت لهما بضع صور، ثمّ نظرت حولها لترى إذا كان هناك من يستطيع أن يأخذ لهم صورة جماعيّة. رأت صبيًا لا يتعدّى الثالثة عشرة من عمره يستلقي على حافّة السُّور قرب مبنى المطعم. نظر إليها مستفسرًا فقالت: «بتاخدلنا صورة كلّنا مع بعض؟» هزّ رأسه علامة الموافقة، ورمى بعود الشجر الذي كان في يده على الرّمال. تقدّم نحوها. دلّته على زرّ الكاميرا في الآي پاد وذهبت لتقف قرب نور وجابر. كانت نور، في هذه الأثناء، ترفع قبّعة جابر عن رأسه هامسة: «غابت الشّمس». قالت كاميليا: «اجمدوا هلّق لياخد

الصَّبيّ الصُّورة!». تراجع الصَّبيّ بضع خطوات وهو يرفع الآي پاد أمام وجهه. قبض عليه جيّدًا بيده اليسرى. ضمَّه بسرعة إلى صدره، وبدأ يركض بعيدًا عنهم. قفز وراء السُّور في لمح البصر، وعَبَر الممرّ بين الأبنية، ثمَّ أطلق ساقيه للرِّيح.